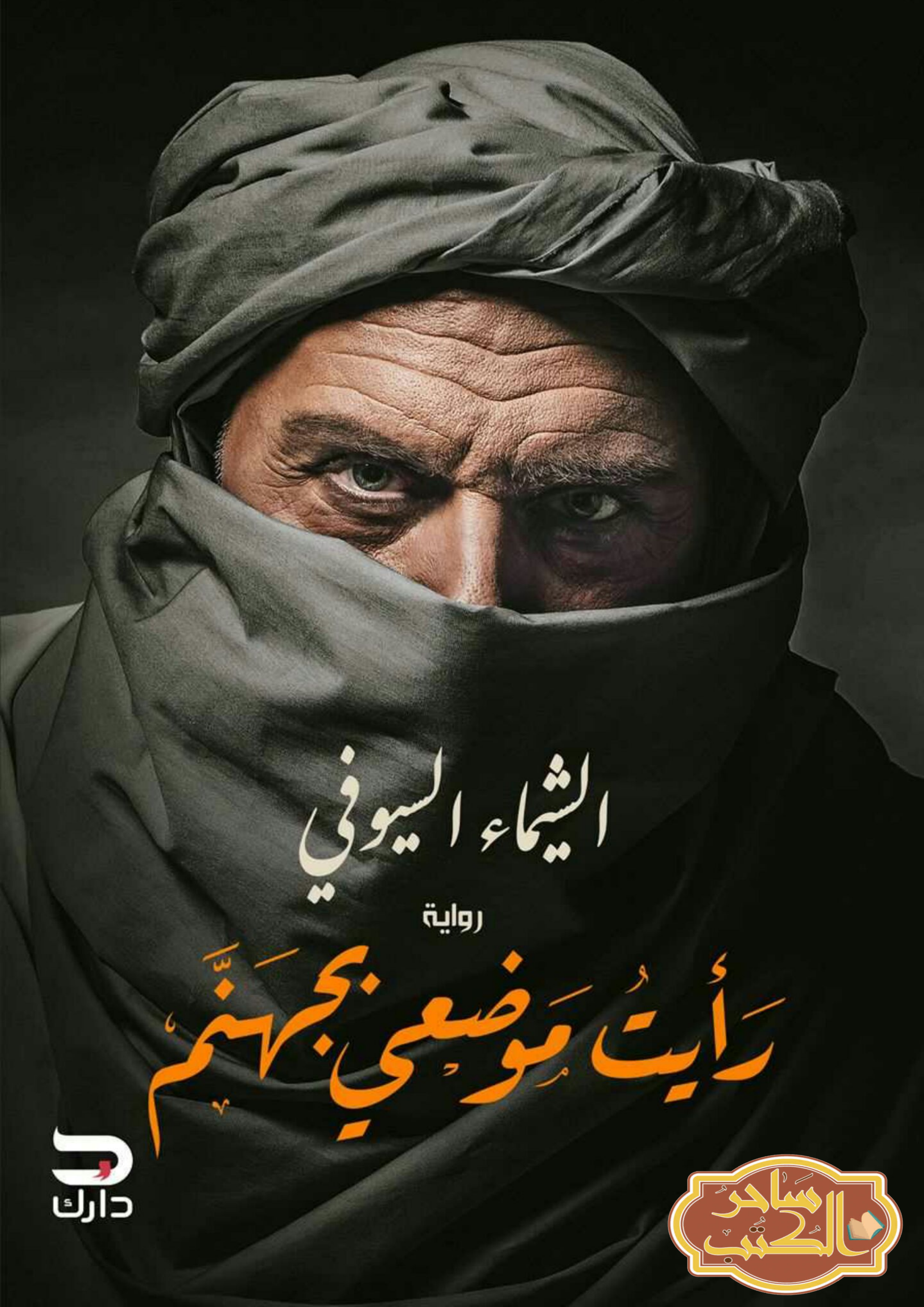

الشيماء اليسوفي
رواية
رأيتُ موضعي بجهنَّم
دارك
ساحر الكتب



ساحر الكتب



ساحر الكتب

دارك

للنشر والتوزيع



رأيت موضعي بجهنم




info@darak-egy.com


٠٢ ٠١٠-٢٤٨٣٢٦٦٩ ٢٧٢٥١٩١٥ -



١٥ ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.



رأيت موضعي بجهنم

الشيماء السيوفي

تصميم الغلاف : كريم آدم

تدقيق لغوي : أحمد أسامة

رقم الإيداع : ٢٠١٦ / ٢٦٣٨٥

الترقيم الدولي : ٩٧٨ – ٩٧٧ – ٨٥٣١٦ – ٧ – ١

الطبعة الأولى : ٢٠١٧

الشيماء السيوفي

رأيت موضعي بجهنم

رواية


دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الذي إن سُئلتُ عنه....رمزت رمزًا و لم أسمّي

يا موضع الناظر من ناظري ..... ويا مكان السرّ من خاطري

يا جملة الكلّ التي كلهـــــــــــــــــا ..... أحبّ من بعضي ومن سائري

.. بل إنهما ظهرتا هناك بالفعل، لكنهما ظلتا تقتربان، أو تتضخمان بسرعة، حتى احتلتا المساحة البصرية الكاملة لكل من المرأتين المذعورتين، لتختفيا بعدها فجأة، هما وهبّة الهواء الباردة التي اختفت كما ظهرت بالتزامن معهما. وكل هذا لا يعني إلا شيئًا واحداً ..

أنه، بسم اللّه الرحمن الرحيم، كان هناك شيءبالفعل يقف عند النخلة المائلة .. وأن ذلك الشيء، والعياذ باللّه، قد مر من بينهما.



(١)

عشقتك عيني فابتليت بصحوتي ... حاشا لعين شاهدتك تنام

القاهرة (٢٠١٤)

لعنت (دنيا) في سرها حرارة الجو وهي تسير بخطوات سريعة نحو شؤون الطلاب في الحرم الجامعي، رأسها مغطى بحجاب أسود أنيق، يتناقض في شدة مع بياض وجهها ليجعله أكثر إشراقًا، لكنه في نفس الوقت يمتص حرارة أعلى تركت كل وجهها على بياضه فيما عدا خديها اللذين أضاف لهما الحر والعصبية، حمرة طبيعية زائدة، فوق الحمرة التي وضعتها هي فوقهما قبيل تركها للمنزل.

وصلت لشؤون الطلاب لتصطدم بالازدحام، وتلعن نفسها هي كذلك لتأخرها. قطبت جبينها وهي تدرك أنه لا خيار أمامها سوى الصبر، فاليوم هو آخر فرصة لها كي تدفع المصروفات، ولا يوجد لديها أي فراغ آخر في أي يوم يليه، حتى تنتهي مهلة الدفع. اقتربت لتقف في ذيل طابور الطالبات الطويل أمام منفذ كلية الآداب، وبحثت بعينيها عن أي واحدة من صديقاتها أو أي شخص تعرفه فلم تجد. فتحت



حقيبتها لتعد نقودها للمرة الثالثة منذ خروجها من المنزل، حيث أخذت مبلغًا محترمًا من المال، مازالت تخشى أن يكون المطلوب أكثر منه، لذلك رفعت رأسها وتنحنحت قليلًا قبل أن تقول:

هي المصاريف كام السنة دي؟

لم يكن سؤالها موجهًا لشخصٍ بعينه، بل لأي متطوع بالإجابة.

بيقولوا زادت حوالي ١٠٠ جنيه عن السنة اللي فاتت

التفتت لمصدر الإجابة التي أتت من طابور الطلاب الملاصق لطابورها، من شاب طويل عريض الكتفين، يبدو أنه الوحيد الذي سمعها من بين الموجودين، أو الوحيد الذي اهتم أن يجيبها ربما.

وده لكل الكليات بكل أقسامها؟

مش متأكد بصراحة، بس أظن آه

هزت رأسها شاكرة فجاوبها بابتسامة مهذبة ليعود كلاهما وينظر أمامه، كل إلى طابوره الطويل. مضى الوقت ببطء و(دنيا) تشعر أن طابورها لا يحرز تقدمًا يُذكر، خاصة بالمقارنة مع المجاورين له. شبت على أطراف أصابعها علها ترى



أو تستنبط سببًا للتأخير فلم تفهم شيئًا. بدأت تشعر بشيء أشبه بالدوار جعل جسدها خفيفًا ورأسها معدوم الوزن. نظرت للطابور المجاور لتجد الشاب الذي رد على سؤالها، وكان بمحاذاتها وقتها، وقد صار على بعد طالبين أو ثلاثة فحسب من المنفذ.

ازداد إحساس الدوار بشدة وصاحبه غثيان عنيف، دارت برأسها قليلًا إلى الخلف لتصطدم عيناها بعدد يليها من الطالبات يفوق بكثير من يسبقنها، لو خرجت الآن منه فقد ضاعت كل وقفتها، حتى لو عاودت أخذ دور بعد أن تتحسن، وبحسبة بسيطة أدركت أنها ستجد نفسها وصلت أخيرًا إلى المنفذ في الوقت الذي تهم فيه موظفته العابسة بركوب الميكروباص المتجه إلى منزلها.

تشبثت بالحاجز المعدني القصير بين الطابورين، وهي تشعر أن العالم الخارجي يبتعد في ضوضاء استاتيكية غريبة. ولسببٍ ما، ربما لأنها تراه أمامها، أو لأن عقلها احتفظ بذكرى قصيرة مسجلة له، وجدت نفسها تعود وتنتبه للشاب الذي أجابها. لم تستطع طلب المساعدة لخجل أو ضعف، وتساءلت إن كان هناك من سيساعدها أصلًا، وكل من حولها أغراب لا تعرفهم، ولكن بدا وأن عقلها المشوش قد خلط عليها الأمر ليعطيها إشارات زائفة أن ذلك



الشاب ليس بغريب، وأن النجدة آتية، أو يجب طلبها، من عنده.

نظرت له بصعوبة وقد بدأ بصرها يتضبب، يحادث شخصًا بجواره مضاحكًا إياه على ما يبدو، ومشيرًا بيده إلى شيءٍ ما خلفهما. حانت منه التفاتة قصيرة عابرة إلى الخلف جعلته يعيدها مرة أخرى بقوة بعد أن اصطدمت عيناه بوجهها الشاحب وعينيها الزائغتين. رأت عينيه تتسعان قليلًا وفمه ينفرج ليقول عبارة لم تسمعها إلا بعد أن أعادها عليها للمرة الثانية:

إنتي كويسة؟

لم تجب، بل لم تستوعب في البداية سبب اتساع عينيه ثم ما لبثت أن التقطت أذنها رنة القلق الخفيفة في سؤاله والتي تحولت سريعًا إلى الحزم وهو يمد يده نحوها قائلًا:

هاتي إذن الدفع وروحي اقعدي

بدا لها العرض مغريًا بقدر ما هو غريب، لتفكر قليلًا أتقبله أم لا، وتتردد وهي ترفع يدها بالإذن قليلًا، فخفض الشاب عينيه إليها بتردد قبل أن يمد يده هو ببطء وحذر ليلتقط الورقة الصغيرة



من بين أصابعها بخفة، ودون أن تلمس أصابعه أي جزء من يدها.

روحي اقعدي

قالها بحزم هادئ يحمل شعرة حنان لم تعرف من أين التقطتها بالضبط، فملامحه وعيناه ظلت تحمل تعبيرًا هادئًا أميل للبرود، ولا يشي عن أي شيء، لكنها لم تفكر في الأمر كثيرًا وهي تشعر أن ذلك الإذن كان حملًا ثقيلًا ألقته عن كاهلها، لتصب تفكيرها في البحث عن أقرب مكان يصلح للجلوس، ومن حسن الحظ وجدت مقعدًا خشبيًا أوصلتها له خطواتها القصيرة المرتعشة أخيرًا في الوقت المناسب، لتلقي نفسها عليه وهي تحمد اللّه في سرها.

احتارت قليلًا وهي لا تدرِ ما يجب عمله، ولا إن كان من الأصلح أن ترتاح قليلًا ثم تنهض بنفسها للبحث عن الشاب، أم تثبت في مكانٍ واحد كي يعثر عليها هو. ولكن كيف؟ هل يعرف شكلها جيدًا؟ والأدهى، هل تعرف هي شكله أصلًا؟ هي لا تذكر من ملامحه سوى أنه أبيض البشرة أسود الشعر، طويل القامة عريض الكتفين، عظيم، عليها فقط أن تبحث عنه بين كل شاب طويل أبيض ذو شعر أسود يمر من أمامها، يعني نصف الشعب المصري مثلًا، أو ثلاثة أرباع الجامعة!



ضغطت على دماغها المضغوط عليه أصلًا، وهي تحاول تذكر أي تفصيلة أخرى في شكل الشاب أو هيئته، ملابسه، أي شيء، لون عينيه لم يسجل في ذاكرتها في المرة الأولى التي نظرت فيها إليه، أما في المرة الثانية، فقد كانت عاجزة عن رؤية ملامحه بوضوح أصلًا، فضلًا عن تخزين أي منها في مخها.

هي تذكر اللون الأبيض، لم يكن منبعثًا من وجهه فقط، بل كانت هناك هالة بياض مشوش في مكانٍ ما، ملابسه ربما، والتي تذكر أنها كانت مهندمة أنيقة وتبدو غالية الثمن.اتسعت عيناها عند ذكر المال، لتتذكر أيضًا أنها لم تعطِ الشاب أي نقود، فلا ريب أنها تبدو قليلة الذوق أو بلهاء جداً في نظره الآن، خاصة وهي لا تعرف فعلًا إن كان يحمل في جيبه ما يغطي مصاريفهما معًا، حتى وإن بدا ثريًا أو ميسور الحال كما يظهر على ملبسه وهيئته.

اندمجت في أفكارها حتى شردت عيناها رغمًا عنها وسط محاولاتها البائسة للتدقيق في كل مارٍّ تنطبق الأوصاف عليه. مرت برهة قصيرة من الوقت بدت لها طويلة بشكل مقلق، لكن قلقها ذاك لم يفلح، على شدته، في انتزاعها من شرودها، حتى أنها لم تلاحظ ظهور الشاب من خلف ركن المبنى القريب، وهو يضع يده اليمنى فوق عينيه وكأن يتقي الشمس أو يدقق بصره الذي راح يجيله ببطء



بين الجالسين على المقاعد حتى توقف عندها، ليقترب منها بهدوء حتى يدخل مجال بصرها، ويأتيها صوته يقول:

عاملة إيه دلوقت؟

أجفلت قليلًا وفتحت فمها لكنه لم يمهلها لتجيب، أو بدا وكأنه لا ينتظر أن تفعل، وهو يجلس على مسافة متوسطة منها على نفس المقعد، ويضع في يدها شيئًا، بنفس الخفة التي التقط بها إذن الدفع منها، قائلًا:

إشربي ده

تبينت ما بيدها لتجدها علبة عصير صغيرة، ولتلتفت إلى الشاب وهي تهم بقول شيءٍ ما هذه المرة، عبارة شكر أو اعتذار، أو حتى إجابة عن سؤاله على الأقل، إلا أنه عاجلها ثانية وهو يضع بالقرب منها زجاجة مياه صغيرة ويعود ليقول:

خلي دي كمان معاكي، بس اشربي شوية عصير الأول

أنهى عبارته ليبعد عينيه عنها مرة أخرى ويولي اهتمامه لجيب قميصه يبحث فيه عن شيءٍ ما.أما هي فقد كان وعيها يعود تدريجيًا وعقلها



يستعيد إدراكه الذي أدهشته مفاجآت هذا الشاب، الواحدة تلو الأخرى.استخرج من جيبه أخيراً ورقة صغيرة مد يده بها إليها وهو يقول:

الوصل

مدت يدها لتلتقط الإيصال وهي تراقبه في صمت ذاهل يتأهب للنهوض والرحيل، فاستجمعت قوتها فجأة كي تهتف به:

ثانية واحدة من فضلك!

التفت لها بتساؤل خفيف على وجهه الهادئ الذي بدأت تتبين ملامحه الوسيمة أخيراً، والتي تأملتها وهي تقول:

حضرتك .. حضرتك دفعت إيه؟؟

خرج السؤال منها بحدة لم تردها، بدا وكأن مبعثها غضب منه في حين كان مبعثها الحقيقي هو حرجها هي من نفسها، أما هو فلم يبد عليه أنه تأثر بحدتها تلك على الإطلاق وهي يجيب ببساطة:

المصاريف



خفضت عينيها وحدة صوتها في خجل وهي تعود لتسأل:

أيوه يعني كام؟

مش فاكر

مش فاكر؟ لأ، مش .. إزاي يعني؟ لأ .. لأ ما ينفعـــ..

بترت عبارتها حين فطنت إلى غباء سؤالها وهي تنتبه فجأة أنها تحمل في يدها إيصال الدفع الذي يحمل قيمة المبلغ المدفوع! وأن كل ما عليها فعله هو أن تلقي نظرة صغيرة عليه فحسب. لكنها حين حاولت ذلك وجدت أن بصرها المضبب لا يكاد يفك طلاسم خط موظف المنفذ، فلم تتمكن من قراءة شيء. وعبث الحرج بكلماتها لتخرج منها بلا تنسيق وهي تجذب حقيبتها وتهم بفتحها في حين يقول هو:

يا فندم ما تشغليش بالك بالموضوع من فضلك، الحكاية مش مستاهلة

فتحت الحقيبة وراحت تعبث بداخلها بحثًا عن محفظتها وعينيها على الإيصال تحاول فك شفرته في نفس الوقت، أما شفتيها فقد ظل سيل الكلمات الغير مترابطة ينهمر من بينهما:

لأ ده أنت جبت حاجات كمان لأ .. أنا هشوف، أنا .. أصل ما ينفعش خالص يعني، ما ينفعش..

فوجئت بيده تهبط على حقيبتها مثبتة إياها بحزم خفيف جعلها ترفع عينيها إليه لترى فيهما بسمة عتاب خفيفة وهو يقول:

اللي أنتي بتعمليه هو اللي ما ينفعش على فكرة، وما يصحش، دي حاجة بسيطة أصلًا

لأ مش بسيطة! وإنت لازم تاخد فلوسك

وأنا واللّه ما هاخد منك حاجة، خلاص بقى أنا حلفت

لأ مش هيد ...

باللّه عليكي ما تصوميني تلات أيام في الحر ده

لم تتمالك نفسها من الطريقة التي نطق بها عبارته ومن العبارة نفسها، لتفلت منها ضحكة خفيفة جاوبها هو بضحكة مماثلة، كفت بعدها عن محاولة إخراج المحفظة، وغمغمت باستسلام وهي ما تزال مبتسمة:

أيوه بس..

سحب يده بجواره وهو يسترخي في جلسته قائلًا:



ما بسش، إحنا زمايل وده عادي جداً، واشربي العصير بقى قبل ما يبقى مربى

ضحكت ثانية وهي تفتح علبة العصير بالفعل، قائلة:

يعني لو الوضع معكوس، وأنا اللي دفعت، كنت هتسيبني عادي؟

لأ طبعًا

ليه بقى؟

لأني ما كنتش هسيبك تقفى على الشباك أصلًا وأقعد أنا

إشمعنى؟

عشان ما فيش راجل يعمل مع بنت كده

حتى لو تعبان؟

تحت أي ظروف

ورغم بساطة عباراته، وبساطة قوله لها، إلا أنها جعلت عيني (دنيا) تتركزان عليه بشيءٍ من الإعجاب وهي تتأمله بالكامل في نظرة سريعة،



مختلسة، خجلى. طوله الفارع وكتفيه العريضتين، شعره الناعم شديد السواد، وبشرته شديدة البياض، والتي لم ينقص بياض قميصه من بياضها شيئًا، أنفه المستقيم وحاجبيه العريضين فوق عينيه الواسعتين الحادتين التي انتبهت إليهما أخيرًا، وإن لم تحدد لهما لونًا بعد، ربما لأن إدراكها وبصرها لم يعودا لطبيعتهما بالكامل بعد، وإن كانت تستطيع القول أن لونهما بني تقريبًا، بني فاتح ممتزج بلون آخر، لم تتمكن من تبينه بعد.

معلش أنا مضطر أستأذن منك عشان ورايا محاضرة

إنت معانا في تالتة؟ أنا مش فاكرة إني شوفتك قبل كده، أنت انتساب؟

اندهشت من كَمّ ما قالته وشعرت بخجل خفيف من فضولها الذي أظهرها كالمتطفلة، في حين قال هو ببساطة:

أنا مش في آداب

نظرت له بعجب وهي تشير إلى المبنى القريب قائلة:

بس ده مبنى آداب، شباك آداب .. اللي كنا عنده

ابتسم الشاب وهو يقول:

عارف

طب كنت بتدفع مصاريف آداب ليه لما أنت مش في آداب؟!

كنت بدفع لواحد صاحبي مش ليا، عيان ومش قادر ييجي يدفع هو

أومأت برأسها علامة الفهم وهي تشعر أن إعجابها به يزداد، ووجدت نفسها رغماً عنها تعود لتمطره بالأسئلة دون أن تشعر:

أمال أنت في كلية إيه؟

حقوق

سنة كام؟

رابعة

واسمك إيه؟

صالح



أجفلت حين وصلت معه إلى هذه النقطة وهي تشعر أنها قد تعدت حدودها قليلًا، كأنها متطفلة أو جريئة، أو تتعمد تأخيره كلما همّ بالرحيل كي تستبقيه بجوارها، وهي طبعًا لا تفعل ذلك، طبعًا! هي فقط .. تبدو وكأنها تفعل. ورغم البساطة التي بدت في صوته وهو يجيبها، فقد اعتراها خجل حاولت أن تداريه بصوت تحشرج وهي تقول متصنعة المزاح:

أنا قلت يعني بما إن إنت بقى عرفت اسمي وكده، فمش معقول ما أبقاش أنا كمان عارفة إسمك، عشان اشمعنى يعني!

ابتسم بقليل من الخجل وهو يقول:

بس أنا معرفش إسمك

وجمت قليلًا قبل أن تتمعن في وجهه لثوانٍ لتتبين ما إن كان يمزح، فلما لم تجد في وجهه ما يدل على ذلك، أسرعت لتقول:

ماتعرفوش إزاي؟ أنا إذن الدفع بتاعي كان معاك، وإنت اللي جايب لي الوصل بنفسك، وطبيعي إسمي على الإتنين، إسمي الثلاثي كمان!



ازداد اتساع ابتسامته مع ازدياد الخجل فيها وهو يبعد عينيه عنها قليلًا ويقول:

ما أنا ما بصيتش فيهم

ولا الموظف نده الإسم اللي على الوصل عشان صاحبه يستلمه؟؟

ما ركزتش واللّه، أنا كنت منتبه قوي بس لحد ما أخدت الوصل، وبعدين ما فكرتش أحفظ أو أفتكر

ابتسمت في تلك اللحظة وهي تراقب خجله الخفيف الذي لمحت فيه لمسة طفولية جعلت ابتسامتها تتسع وهو يتابع كلامه قائلًا:

هو كان حاجة بحرف الدال تقريبًا، صح؟ .. (دينا)؟

تبادلا الأدوار لحظتها ليرتبك هو بشيءٍ من الخجل ويحك رأسه بحيرة، وابتسامته تتسع حتى تتبدى أسنانه البيضاء.

(دنيا)

زفر نفسًا لم ينتبه أنه حبسه في صدره وهو ينظر لها قائلًا:

كويس، ما بعدتش قوي يعني



تبدت أسنانها هي الأخرى ووجهها يشرق بابتسامة انقلبت إلى ضحكة خفيفة جاوبها هو بضحكة مماثلة قبل أن ينظر في ساعته قائلًا:

أنا آسف، بس مضطر أقوم دلوقت، يادوب ألحق المحاضرة

أعادتها عبارته إلى أرض الواقع لتقول بسرعة:

آه آه طبعًا، إتفضل

تابعته ببصرها بقليلٍ من الأسف وهو ينهض ويعدل ملابسه بسرعة قبل أن يلتفت لها قائلًا:

مش عايزة أي حاجة؟

شكرًا

وعاملة إيه دلوقت؟ أحسن؟

آه الحمد للّه، أحسن كتير

أكيد مش محتاجة أي حاجة؟

آه واللّه ما تقلقش، أنا تمام

ابتسم وهو يتراجع بظهره قليلًا قائلًا:



طيب، فرصة سعيدة جداً يا آنسة (دنيا)

أنا أسعد يا (صالح) .. آآ هنتقابل تاني أكيد

شعرت أنها تسرعت في إضافة تلك العبارة الأخيرة، ولم يخرجها من تأنيبها لنفسها إلا صوته الهادئ وابتسامته المهذبة وهو يقول:

أكيد طبعًا، وأنا تحت أمرك لو احتجتي أي حاجة

تبع عبارته بأن هز رأسه مستأذنًا بأدب وهو يستدير ليسير بخطوات مسرعة مبتعداً و(دنيا) تتابعه ببصرها مبتسمة بإعجاب، ومتمتمة في سرها:

صالح

عدن (٢٠١٤)

نسمات هواء الليل المنعش حملت رائحة العشب المقصوص حديثًا إلى الأنوف، وخلقت جواً من الراحة الهادئة والسلام النفسي الذي عم السائرين المتناثرين في أنحاء المكان، المتجهين إلى نفس النقطة. أصوات صرصور الحقل الرتيبة وصوت الخربشة الخفيفة من احتكاك أقدامهم بالرمال الرطبة، صنعت ما يشبه موسيقى تصويرية هادئة لحدثٍ كبيرٍ مرتقب.



غايتهم جميعًا هي ذلك المبنى الأبيض البسيط في مظهره، العظيم في قلوبهم. يهرولون نحوه ليتركوا نعالهم كيفما اتفق وسط فوضى من مثيلاتها تناثرت حول المداخل، بعد أن فاضت بها الخزائن المخصصة لها، ويدخلون لينضموا إلى الجمع الجالس على الأرض المفروشة بالسجاد، في صالة مستطيلة واسعة تناثرت فيها الأعمدة، نصفها الأمامي للرجال والخلفي للنساء، بمدخل لكل منهما، وحاجز قصير يسمح بعبور الأطفال بحرية بين القسمين، كفصل معنوي أكثر منه مادي، لأن كل من في المكان بمثابة الأهل لبعضهم البعض، كأسرة كبيرة متحابة بقدر ما هي محافظة.

تجمع همهماتهم ملأ المكان كضوضاء خافتة تعلو عشوائيًا كل حين، أحاديث جانبية أو ذكر هامس على المسابح الملتفة حول معاصم وأصابع الكثيرين، مختلفة في ألوانها وأشكالها، وجميعها بمائة حبة وعدادين.علت الهمهمة فجأة وبقوة لتتحول إلى صلاة وتسليم على النبي خرجت جماعية موحدة من الكل حين ظهر مولانا، الشيخ (مصطفى)، في جلباب كحلي بسيط وأنيق في الوقت ذاته، يعلوه عباءة بنية لا تقل أناقة، بقامته المتوسطة المائلة للطول، ووجهه الوسيم المريح ذي البشرة القمحية.



ورغم اتساع الصالة، إلا أن كل من فيها تمكن من رؤيته بوضوح، البعيد والقريب، فهناك تلك الشاشات التليفيزيونية الصغيرة المعلقة على بضعة أعمدة كي تنقل صورته، عدا عن عيني الشيخ المشرقتين الحادتين، واللتين تُمكنان الناظر إليهما من رؤية لمعتهما وإن كان على بعد أمتار، وابتسامته الواسعة الطيبة تظهر أسنانه النضيدة التي تلمع كعينيه.

لكن أهم ما في الأمر هو روح الشيخ نفسها، حضوره الآسر الذي يفرض نفسه على الجميع، ويجعله يظهر في صورة الأب الحنون الحازم، خاصة مع تلك الشعيرات الفضية التي تناثرت بين سواد شعره القصير، وشاربه المنمق، وتلك اللحية الصغيرة المحيطة بفمه، والتي تشي عن حكمة وعمر متقدم.

اتخذ طريقه من مدخله الخاص إلى مجلسه المعتاد على المقعد الخشبي الكبير في رأس القاعة، التي هدأت بعد انتهاء تبادل التحية بينه وبين ومريديه، ليجلس في تواضع على المقعد المزخرف، ويبدأ حديثه في بساطته المعهودة، ملقيًا درس الليلة على آذان السامعين، ونزل الخشوع كما نزلت السكينة، على قلوب المجتمعين.

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِين



خلاء – تاريخ غير معروف

أنا الأفضل وهو من يلقى القبول والمعاملة الحسنة، أنا الأكبر وهو من يستأثر بنصيب الأسد في كل شيء!ظلم يجعلني غاضب بشكل لم أعهده في نفسي من قبل، وأنا أسير في ظلام الليل شارداً أفكر، وأحدثها، لا أعرف إن كانت تقنعني بالمضي قدماً أم بالتقهقر للوراء، وأتعجب أنهم أرسلوني أنا بالذات خلفه لأرى ما أخره، مع كل ما حدث، وكل ما بيننا.

القاهرة (١٩٧٧)

منطقة (الحسين)

ربما لم يكن في الدرس الأسبوعي الذي يلقيه الشيخ) آدم) على مريديه، الكثير مما يميزه عن غيره من دروس الطرق الصوفية الأخرى على اختلافها، وأما ما لم يختلف عليه اثنان من قريبٍ أو بعيد، فهو الشيخ (آدم عبد الحي) نفسه، فالرجل بالقطع يختلف عن أقرانه من مشايخ تلك الطرق، اختلاف في شيء أبعد من المظهر والملبس، وإن كان يشملهما بطريقةٍ ما، فجلبابه وعباءته، والعمامة التي التف قماشها متقاطعاً على جبينه، المجتمعون في سوادٍ تام غير مألوف، والمتناقضون بشدة مع بياض بشرته، يعطونه



هيبة وجلال فريدين من نوعهما، خاصة مع قامته الفارعة وبنيته العريضة. أما وجهه، فقد أجمع الكل على أنه يحمل صفة ما، تجعل الناظر إليه مأخوذاً به، مأسوراً بحركاته، وكلماته، وسكناته، صفة لم يفهم أحد من أين تأتي بالضبط، من عينيه الواسعتين الحادتين أم الحاجبين العريضين فوقهما؟ من أنفه الكبير المستقيم أم شاربه المنمق أسفله، الموصول بلحية كثيفة ناعمة مهذبة؟

من على مجلسه المعتاد فوق شلتة بسيطة وُضعت مباشرة على الأرض، نهض الشيخ (آدم) ممسكًا بمسبحته الطويلة كبيرة الخرزات، التي لا تفارق أصابعه، السوداء كزيه، والتي تضيف عليه كذلك المزيد من الرهبة والقليل من الغموض. وقبل أن تنفرد قامة الشيخ بالكامل، كانت قامات المريدين تنشد معتدلة بسرعة، احتراماً لنهوضه، ولكي لا يظل أحدهم جالساً بعد أن يتم هو وقوفه.

كان هموم الشيخ بالنهوض هو العلامة الأولى لانتهاء درس الليلة، أما العلامة الثانية، فقد كانت أصوات المؤذنين العذبة المتداخلة، التي انسلت مع نسائم الليل اللطيفة من نوافذ دار الطريقة، حاملة آذان العشاء الذي ينتهي معه الدرس، كما يبدأ عقب صلاة المغرب، ككل خميس.



شق طريقه نحو المدخل بخطواتٍ سريعة تُجبر على التمهل أحياناً، بسبب تدفق حشود المريدين الصغير نحوه بشوقٍ لا يخلو من الاحترام، منهم من يرغب في تقبيل يده رغم رفضه، أو حتى في السلام عليه فقط كي ينال البركه. وصل أخيراً إلى مدخل الدار وقد تراجع سيل المتدفقين مفسحاً الطريق أمامه كي يتمكن من التقاط حذائه، الأسود كملابسه، من بين بقية الأحذية المتراصة على الأرفف الخشبية القصيرة قرب المدخل.

سار نحو السلم المؤدي لأسفل وهبط عليه، يتبعه الأسف في أعين بعض مودعيه حتى الخميس التالي، وقليل ممن تمكنوا من ارتداء أحذيتهم بسرعة كي يلحقوا به حتى يهبط من الطابق الأول، الذي تقع به قاعة الدار الصغيرة، إلى أسفل البناية القصيرة القديمة، مقر الدار، والتي تقع في أحد شوارع حي (الحسين) الصغيرة، وقد علقت عليها من الخارج لافتة عريضة، كُتب عليها بخط زخرفي جميل:

(الطريقة الشاذلية الأحمدية)

أهم ما يميز دار (الشاذلية الأحمدية) هو قربها من مسجد ومقام الإمام (الحسين) – رضي اللّه عنه – حيث لا تبعد عنه إلا مسافة سير لا تتعدى الدقائق الخمس، يقطعها الشيخ (آدم) بعد درس كل



خميس كي يلحق بصلاة العشاء هناك. مسافة ربما قطعها بعضهم من قصرها في أقل من ذلك، وطريق قطعه الشيخ مرارًا فحفظه حتى صار شبه قادر على السير معصوب العينين فيه، ورغم ذلك يحرص على الإبطاء من خطوته الواسعة القوية قليلًا، لا انبهارًا وتأملًا لما حوله كالسياح، وإنما تنفسًا لروحانية المكان التي لا تنضب، و تمتعًا بالراحة النفسية المشعة من كل ركنٍ فيه، وكل عطفة.

اقترب من حرم المسجد الواسع كي تقع عينه أول ما تقع كالعادة على مئذنته المدببة المميزة التي تقتحم بصره وتشق السماء في مشهدٍ لا يكف قلبه عن الخفقان له كل مرة. بدأ يهرول قليلًا كأنه متحمس أو مشتاق، وبدأت دقات قلبه تختلط بذكره، حتى يكاد المار بجواره أن يسمع صوت أزيزه.



(٢)

يا نعم ما طلع الجمال من العمى .... نعم الظهور وجل من يغشه

القاهرة (٢٠١٤)

هممممم .. وعمل إيه كمان؟

ما عملش

طب ما عملش إيه كمان؟

إنتي بتستهبلي يا (مي)؟!

جمال من النوع الذي تشعر أنه إبهار أكثر منه جمال حقيقي، دلال أنثوي مصطنع مع كثير من مساحيق التجميل المرسومة بعناية، تلك هي) مي(، نقيض نوع آخر من الجمال هو جمال (دنيا) صديقتها، حقيقي وطبيعي رغم هدوئه، لا يحتاج للكثير من الزينة، ويضج بالأنوثة رغماً عن أنف صاحبته. أما طولها فقد تعدى ما هو مقبول قليلًا بالنسبة لفتاة، لكنه أتاح لها ولو بطريقة كوميدية، أن تشعر أنها أعلى قليلًا ممن تحدثهن من صديقاتها، وكأنها تنظر لهن جميعاً من عل، خاصة



(دنيا) التي تميل للقصر، والتي ردت عليها (مي) قائلة:

واللّه إنتي اللي بتستبهلي وأنا ولا فاهمة منك حاجة أصلًا

أنا ما قلتلش حاجة من الأساس عشان تفهمي ولا ما تفهميش، وبعدين أنا مش بستهبل

لأ بتستهبلي

بستهبل إزاي بقى إن شاء اللّه؟!

إنتي عارفة بتستهبلي إزاي

لأ واللّه ياريت تنوريني!

ابتسمت (مي) بخبث خفيف وهي تطالع وجه (دنيا) الوردي الذي كان أبيضًا منذ عدة ثوانٍ فحسب، قبل أن تزفر بضيق ونفاذ صبر مصطنعين وهي تقول بملل:

عمالة من الصبح تقولي كلام أهبل وملخبط، وعكس بعضه! جدع، وسيم، لأ مش وسيم يعني بس شكله حلو، لأ ده لبسه، لبسه هو اللي حلو ومحليه، لأ بس الفكرة مش في شكله يعني ما الحلوين كتير، هو يعني تحسيه راجل كده، بس



مش راجل رخم، مش عايش دور الرجولة يعني، هو الصراحة حلو، بس مش حلو قوي يعني، وشه تحسيه فيه قبول كده .. ما تقولي إنه عاجبك وتخلصي!

اتسعت عينا (دنيا) وتحول وجهها للأحمر وهي تجيل بصرها حولها بشيءٍ من التوتر، مبعدة إياه عن عيني (مي) الثاقبتين الساخرتين، وبطريقة أرادتها عفوية لكنها جاءت مرتبكة وكأنها تخشى أن يراها أو يسمعها أحد، أما صوتها فقد تحشرج قليلًا وهي تقول بابتسامة أرادتها ساخرة فجاءت بلهاء:

عاجبني مين يا هبلة إنتي!أنا مش مهتمة بيه ولا كنت فاكراه أصلًا، أنا بس الموقف جه على بالي فقلت أحكيه ليكي عادي يعني

موقف إيه؟

إني دخت وأنا بدفع المصاريف وكده، ما تركزي

صح، عشان كده وصف الدوخة أخد له بتاع تلات ثواني، قعدت لك بعديها بتاع خمس ست ساعات كده توصفي في الراجل

أوصف إيه وأنا معرفوش أصلًا!!



اتسعت ابتسامة (مي) الخبيثة الساخرة وهي تربت على كتفها كأنها تهدئها قائلة:

صادقة يا أختي والله! طيب تسمحي تقولي لي إحنا بنعمل إيه عند باب حقوق؟

حاولت (دنيا) رسم البرود على وجهها وفي صوتها وهي تقول:

بنخرج من الجامعة؟

إنتي تقريبًا عمرك ما خرجتي من هنا، ولا بتحبي تيجي الناحية دي أصلًا

عادي تغيير

وبتتلكعي ومخلياني أتلكع معاكي ليه؟

مانا طول عمري بمشي بالراحة يا (مي)

إنتي مش بتمشي بالراحة إنتي بتزحفي

لو متضايقة قوي كده من بطئي إتفضلي مدي أنت وسيبيني أزحف لوحدي!

أسيبك إيه يا حمارة أنا بهزر معاكي، نزحف لنا شوية وماله، كله في سبيل الـ..



بترت (مي) عبارتها فجأة وهي تتطلع إلى نقطة خلف (دنيا) وخارج مجال بصرها قبل أن تعود لتقول:

يخرب بيتك! لو هو ده يبقى ذوقك حلو يا بت، طلعتي بتفهمي

هو بجد؟؟ بيعمل إيه؟ يعني واقف ولا قاعد ولا ما..!

لسه خارج من المبنى، وواقف يتكلم مع واحد تاني

عرفتي إزاي إنه هو؟

إنتي كنت قربتي تطلعي ورقة وقلم وترسميه ليا .. وبعدين إيه اللهفة دي كلها؟؟ هو مش (أنا مش مهتمة بيه ولا أعرفه أصلًا)؟!

(مي) من فضلك مش وقت استهبال خالص!

إنتي اللي بتستهبلي من الصبح، عشان كده قصدتي تخرجينا من باب حقوق، عشان تشوفيه، صح؟

لأ مش صح طبعًا! دي صدفة

الظاهر إنه هو فعلًا، والظاهر كمان إنه شافك على فكرة، لأنه سلم على اللي كان معاه وشكله جاي



ناحيتنا

كادت (دنيا) تقفز من مكانها ودرجة احمرار وجهها تزداد وهي تقول:

بجد؟! طب .. أنا شكلي إيه؟ طرحتي مضبوطة؟؟

تمعنت (مي) في وجهها قليلًا وكأنها ستجيب قبل أن تتراقص ابتسامة عابثة على ملامحها وهي تقول:

معرفش..

ماشي يا (مي)!

قالتها (دنيا) بغضب، فعادت (مي) تقول:

مش شايفة كويس

ماشي!!

امتزج الغضب بالتوتر في صوت (دنيا) وهي تقول كلمتها السابقة وراح قلبها يدق بعنف داخل صدرها، في حين قالت (مي):

يمكن أعرف لو اعترفتي إنك كنتي قاصدة وبتستهبلي عشان تشوفيه



أنا واثقة في نفسي ومش محتاجة رأيك أصلًا

ويمكن أفضحك وأقول قدامه إنك كنتي لسه قاعدة تتغزلي فيه من شوية، إنتي عارفاني أعملها عادي

أنا ما كنتش باتغ ...والمصحف يا (مي) لو عملتي كده لا هتبقي صاحبتي ولا هعرفك تاني!

إخلصي عشان هو خلاص فاضل له كام متر ويبقى هنا

آه يا (مي) كنت بستهبل، ارتحتي؟!!

شكلك زي القمر، يللا بقى لفي وابتسمي عشان ما تقابليهوش وإنتي مبوزة كده جتك القرف

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ

عدن (٢٠١٤)

بعد انتهاء الدرس، وببساطته المعتادة وخطواته الهادئة الوقورة، ترجل الشيخ (مصطفى) عن مقعده متجهًا نحو باب الخروج المخصص له، والمفضي إلى الجراج الخاص حيث سيارته السوداء الكبيرة التي يحب قيادتها بنفسه. كان حاضروا



الدرس قد نهضوا مع نهوضه، احترامًا، دون أن يتجهوا نحو أبواب الخروج، أو يلفتوا رؤوسهم حتى، قبل التأكد من خروجه هو أولًا، كي لا تفوتهم ولو لمحة من عينه، التي يشعر كل واحد منهم وكأنها توجه حديثها إليه هو وحده، تربت عليه بعطف هو فقط، دونًا عمن يحيطون به.

البعض اندفع خارجًا من الدار وهو يرتدي حذاءه على عجل، كي يقف على مقربة من مدخل الجراج الخاص، ممليًا عينيه بخطف نظرة أخيرة من الشيخ وهو يغادر المكان في سيارته، دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب أكثر مما ينبغي، طاعة للشيخ وحبًا له، فهو قد منع التجمهر والتدافع أمام مداخل الدار حفاظًا على النظام ومظهر الطريقة وأبنائها، خاصة عند وجود زوار لمزرعة الفواكه التي يمتلكها، والتي تقع الدار داخلها، وتحتل، مع الكثير من المباني الأخرى، جزء ليس بالكبير من مساحة المزرعة الهائلة، والتي هي أقرب لقرية أو بلدة صغيرة، خاصة مع كل التجهيزات والمرافق التي يحرص الشيخ، – وهو رجل أعمال ناجح كذلك – على توفيرها لقاطني المكان والعاملين به من أبناء الطريقة، وحتى من خارجها.

لهذا السبب تمكن الشيخ من الخروج من الدار والتوجه لسيارته بهدوء، يتبعه شاب حليق في أوائل العشرينيات، يشبهه كثيرًا لكن لا يحمل



نفس وسامته أو حضوره ربما، يتبعه بأدب واحترام بالغين، دون أن يسبقه أو يسير بمحاذاته حتى، ودون أن يتفوه بكلمة إلا عندما فتح الشيخ باب السيارة وهم بالصعود إليها:

هتروح معانا حضرتك يا بابا؟

لأ خد إنت والدتك وأختك وروحوا يا (محمد)، أنا هروح مع عمك (عثمان) نقرا الفاتحة وبعدين نطلع على المكتب عشان عايزه في كام حاجة كده

بخصوص الشغل؟ تحب حضرتك أوصل ماما و(بتول) وآجي لك المكتب؟

وقبل أن يجيب الشيخ، وكأنما ليؤكد كلامه، أو كأنه استجاب أو تعجل فور سماع اسمه، ظهر عند مدخل الجراج رجل وقور مائل للقصر، ابيضت أغلب خصلات شعره، له عينان عسليتان ضيقتان، أسفلهما تجاعيد إرهاق أو حزن، وفوقهما نظارة طبية أنيقة.

لأ خليك إنت مرتاح الليلة

قالها الشيخ في حين أشرق وجه (محمد) فور ظهور (عثمان عبد الملك)، نائب الشيخ (مصطفى)، وإن شاب هذا الإشراق حمرة خفيفة في خديه كأنه



خجل، وهو يبتسم في وجهه مصافحًا إياه، قائلًا بحماس اختلط بشيءٍ من الارتباك:

إزيّ حضرتك يا عم الشيخ؟

شد (عثمان) بكلتي يديه على كفه في حنان أبوي قبل أن يقول:

إزيك أنت يا (محمد)؟

أنا تمام الحمد للّه.و .. وإزي (هشام)؟

اللّه! أنت ما شوفتوش جوه في الدرس ولا إيه؟

ازداد ارتباك (محمد) وهو يقول:

لأ ما أنا كنت قاعد في الصفوف الأولانية فما أخدتش بالي، شكله كان قاعد ورا شوية يمكن

لأ وانت الصادق شكله مجاش أصلًا

ليه خير؟ هو تعبان ولا إيه؟؟

آه يا حبيبي، بس تعبان بعقله وتاعبنا معاه! نفسي الواد ده ربنا يهديه بقى

إبنك زي الفل يا (عثمان)!



جاءت العبارة الأخيرة من الشيخ (مصطفى) الذي كان قد اتخذ مقعده خلف مقود سيارته، بلهجة حملت عتابًا مازحًا، فعاد (عثمان) يقول:

يعني عاجبك كده يا مولانا! لا بيحضر دروس ولا بيعمل أوراد، أنا وأمه غلبنا معاه واللّه. سبحان اللّه شتان ما بينه وبين بقية إخواته، بالذات (أمجد)، بقى يبقى الكبير مجنون والصغير عاقل يا ربي!!

لوح الشيخ بيده مازحًا وهو يقول ضاحكًا:

ولادك كلهم كويسين يا (عثمان). بطل إنت بس قلق عليهم، وهم هيبقوا زي الفل. و(هشام) ده بالذات بقى حبيبي، ما لكش إنت دعوة بيه، إنتوا لو تعرفوا (هشام) ده عندي إيه، لتتمنوا كلكوا تبقوا مكانه!

ورغم خروج الكثير من عبارته المماثلة بشكل مازح، إلا أن عيني الشيخ وصوته دائمًا ما يحملون ثقة وطمأنة تهدئ مريديه بشكلٍ ما، فيشعرون وكأن كل مشاكلهم قد انحلت فجأة، ولو كانوا منقوعين وسطها، لمجرد أنهم حكوها له، وكأنها خرجت منهم إليه، ولو على هيئة كلمات، ويأخذون الأمور بنفس البساطة التي يأخذها بها هو، فيصبح من الصعب عليهم أن يقلقوا بعد أن طمأنهم مولانا.



ويللا بقى ولا عايزين تباتوا هنا!

ضحك كلٌّ من (عثمان) و(محمد) على عبارة الشيخ، والأول يدور حول مقدمة السيارة ليركب بجواره، في حين يتراجع الثاني بظهره بأدب منتظرًا مغادرتهما للمكان.

خرجت سيارة الشيخ من الجراج فارضة هيبتها على الراجل والراكب، وقد تضاءلت إلى جوار تلك الهيبة جميع السيارات الأخرى حول الدار، حتى تلك التي تكبرها حجمًا، كحافلات النقل الجماعي بأحجامها المختلفة، والتي يوفرها الشيخ لنقل من يرغب، ولا يملك سيارته الخاصة، من وإلى المزرعة، وتحمل جميعها شعارها الأنيق.

انطلقت سيارة الشيخ في الطريق الطويل الكبير، الشبه ممهد، والمؤدي إلى عمق المزرعة.أما باقي السيارات الأخرى، فقد تناثرت متفرقة في أنحاء المكان، كل حسب رغبة راكبيها. فمن قرر المبيت في المكان اتجه إلى مسكنه الخاص، سواء أكان شاليهًا صغيرًا، أو فيللا كبيرة، أو حتى شقة أنيقة في إحدى البنايات الصغيرة المؤسسة على طرز حديثة. وأما من قرر الرحيل، فقد انضمت سيارته إلى خط الحافلات الطويل التي اصطفت كالطابور على الطريق الرئيسي الضخم، بأعمدة الإنارة العالية على جانبيه، والمؤدي إلى خارج المزرعة، حيث

بوابتها الكبيرة التي تحمل لافتة عليها نفس الشعار الموجود على جوانب ومقدمات الحافلات، اسم المزرعة الجميل، وقد كتب بخط زاده جمالًا..

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِين

خلاء – تاريخ غير معروف

سكونه وانتظام أنفاسه أخبراني من بعيد بغفوته، التي تأكدت منها حين اقتربت لأقف عند رأسه، أطالع وجهه المستريح الهادئ، وأعود أحدث نفسي لأسألها عن تلك الراحة، إن كانت شعورًا بقوة وفخر أم طيبة قلب ونقاء ضمير؟ أسألها .. أمن الطيبة أن يكون هادئًا خالي البال مستريح الضمير هكذا بعد ما حدث؟ بعد أن هزمني؟ وحتى إن كنت أنا من ظلمه في البداية، أمن العدل ألا يهتم أحد بما أشعر أنا به الآن على الإطلاق بعد أن دحرت وخذلت هكذا؟ أهو أمر عادي لا يفترض به أن يؤرق حتى منام أحد؟ أم أنني أسوأ من أن أستحق عدلًا أو رحمة، فلم يعد ينفع معي إلا مواجهة ظلمي بظلم مثله؟

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

طنطـــــا (١٩٧٩)



يا زفت .. إنت ياض يازفت!

انتفض الصبي واقفًا فور سماعه للصوت الأجش المشروخ، لم يكن اسمه في النداء لكنه يعرف أنه الزفت المقصود. ورغم سرعة خطواته المرتعشة فقد عاد النداء يتكرر بصوتٍ أعلى، يستحثه على الإسراع أكثر:

مد يا ابن الكلب أنت هتتلكع كمان!!

تمنى وهو يهرول في الممر الصغير المؤدي إلى الصالة الضيقة، ورغم معرفته التامة لما ينتظره، ألا يكون ما في باله، معرفة شبه يقينية تكاد تجعل عشم إبليس في الجنة أكثر واقعية. خرج للصالة ليطالعه نفس المشهد المؤلم الذي لا يكاد يتغير فيه شيء، حتى مؤثراته الخارجية كالصوت والرائحة، رائحة غريبة مكتومة عفنة، تقلب بطنه لأسباب نفسية أكثر منها فسيولوجية، فحتى لو لم تكن منفرة في حد ذاتها، ولو كانت رائحة فل، لظل ينفر منها ويهابها، ويكرهها، أكثر حتى من الموت الذي أخذ أمه وجعله لا يراها ثانية، ولدرجة تجعله أحيانًا يتمنى أشياء غريبة كأن يصيبه زكام دائم، أو مضحكة لدرجة البكاء، كأن يختفي أنفه فجأة أو يقطعه أحدهم كما انقطع أنف جارهم في إحدى مشاجراته العنيفة.



انحنى في صمت وسرعة ليحمل القفص الثقيل بحمله العفن وهيكله المتفكك، بكل ما فيه من أجزاء نافرة خشنة تمنع خدوش كفيه من الالتئام. صمت خارجي تناقض مع ارتفاع دقات قلبه في خوف لا يفارقه أبداً، مهما تكررت مرات حمله لذلك القفص الكئيب، من أن يشترك ثقله مع تفككه ليتهالك بكل ما فيه، لأنه سيكون الملُام الوحيد وقتها، وإن لم يكن مذنبًا حقًا، وحتى إن كان حمل مثل هذا الشيء بثبات صعب حتى على البالغين، لكنه تعود أن كل ما يحدث في محيطه، وإن لم يكن طرفًا فعليًا فيه، هو خطؤه في النهاية، ولو حاول، مجرد المحاولة، أن يشرح، أو أن يبدي أنه لم يخطئ فعلًا، فلن يجد إلا ما هو أسوأ من مهمته السيئة أساسًا.

عايزك بقى ترجع لي بطماطماية كده .. هه؟! أو كام كوساية تخبيهم في هدومك زي النوبة اللي فاتت، ورحمة أمك .. لا تاكل علقة ما كلهاش حمار في مطلع!

كانت تلك هي مهمته البغيضة، أن يجول في آخر النهار بذلك القفص المهترئ محاولًا بيع ما فيه من بواقي الخضروات التي عَفَّ الناس عن شرائها في أوله، وغني عن الذكر أنها كانت في حال يرثى لها، بل إن بعضها يكون العفن قد دب فيه فعلًا، لكنه كان مجبرًا ككل يوم، على إطاعة الأمر المستحيل،



فحتى وإن استطاع بيع أغلب ما في القفص بسعر أقل للمتسكعين ومفترشي الطرق، ومن لا يقدرون على ثمن الخضروات وهي طازجة، فمن الصعب جداً أن يبيعها كلها، لا بد من بعض الخسائر، من الصعب على صبي في سنه أن يتقي شر شقي يخطف حفنة عشوائية من الثمار ويهرب، ومن الصعب على أي أحد أن يقنع شخصًا بدفع مال في ثمرة عفنة، يستطيع أن يحصل على مثلها وربما أفضل منها، في صفيحة قمامة، مجانًا.

عدن (٢٠١٤)

منذ دخل (عبد اللّه) إلى المقام الصغير تلك الليلة، وذلك الرجل الآخر يقف صامتًا ثابتًا مستندًا برأسه إلى المقصورة الداخلية، بطريقة جعلت رؤية ملامحه أو تعبيراته صعبة للغاية، خاصة مع إضاءة المكان الخافتة. قدر أنه مريد آخر ربما لا يعرفه، خاصة وهو يكاد لا يراه، ولا يسمع منه سوى همهمات خفيفة اختلطت بآهات خافتة كأنه مكروب، وخيل إليه أنه رأى لمعة ما تأتي من اتجاهه، كأنها دموع، فآثر الصمت، ولم يشأ إزعاجه بكلام.

لم يمض وقت طويل حتى بدأ (عبد اللّه) يشعر أنه يسمع شيئًا آخر، كأنه .. أنين أجش مكتوم، أو زئير ضعيف متألم .. كأنه شيء يزوم! خيل له في البداية أنه يأتي من الخارج، كسيارة عابرة أو ما



شابه، لكن الأمر تكرر ثانية بصوتٍ أعلى، ومع الثالثة، بدا من الواضح جداً أنه يأتي من الداخل.

ورغم صمتهما التام من البداية، إلا أن (عبد اللّه) رغب في تلك اللحظة أن يسأل الرجل إن كان هو أيضًا يسمع ما يسمعه، كأنه يريد أن يطمئن نفسه به، أن يخبره أنه يتخيل وما من صوتٍ ولا أي شيء، أو حتى أنه يسمعه هو كذلك، فلا يكون وحده في مواجهة ما .. يمكن أن يحدث، أيًا كان.

قدسية المكان جعلت مشاعره تتأرجح بين الخوف والرهبة والروحانية والحيرة. الصوت يزداد علواً، والرجل الصامت ثابت في مكانه كأنه لا يسمع ولا يتأثر، و(عبد اللّه) يزجر نفسه داخليًا بشدة كلما انتابه الخوف، فكيف يخاف وهو في مقام مولانا؟ بل كيف يخاف من .. مولانا؟!

هل الصوت يأتي من أسفل المقام نفسه؟ من القبر؟؟! وما بال هذا الرجل رابط الجأش الذي لا يحركه أمر كهذا قيد أنملة؟!

أيكون له هو علاقة بالصوت؟ هو من يزوم هكذا؟؟!

شعر (عبد اللّه) أنه على وشك الجنون، وهو ينقل بصره بين الرجل الصامت، والمقام الذي يشعر الآن أنه أبرد من اللازم، وأظلم كذلك. شعر أنه لا يعرف ما



يجب فعله.هل يتحدث بطريقة عادية فيلقي السلام ويرحل؟ هل ينسحب ليسير مبتعداً بهدوء وصمت كأن شيئًا لم يكن؟ أم يطلق ساقيه للريح ويهرب؟؟ وحتى لو ركض، فالمنطقة المحيطة بالمقام عبارة عن مقابر متراصة يبتلعها الظلام، سيحتاج إلى بضعة دقائق حتى يصل إلى أي منطقة فيها عمار وناس وأضواء.

كان ذلك حين وصل إلى أذنيه صوت أعلى من كل ما سبقه.

فروا إلى اللّه تعالى، ولا تفروا منه، فإنه مدرككم ولن تعجزوه

أبو الحسن الشاذلي

كان الشيخ (آدم) عالماً. لم يكن كثير الكلام، لكنه كان حين يُسأل عن أمر ما، يجيب باستفاضة ودقة وكأنه كتاب انفتح ليلقي ما فيه من علم. غامض كذلك، فهناك أمور لا يكثر الكلام فيها، أو يتكلم عنها بطريقة مواربة، تشعر معها أنه قال الكثير، ولم يقل أي شيء في الوقت ذاته. كل من عرفه أجزم أن الرجل معجزة غريبة تمشي على الأرض، وأنه يبطن معرفة أكثر بكثير مما يبدي، رغم سخاء ما يبديه.



لم يكن اجتماعيًا، فعلاقته بمريديه تكاد تقتصر على درسه الأسبوعي، لكنه في الوقت نفسه لا يتأخر عن إجابة رجاء أو مسألة لأي شخص مهما كانت علاقته به، ومهما كان شأنه، داخل الطريقة أو خارجها، كبر ذلك الشأن أو صغر، وببساطة تتناقض مع هيبته، ويتعجب لها الجميع.

دائم الارتحال إلى مقامات آل البيت وأولياء اللّه التي يفضل زيارتها وحده، وإن اصطحب معه آخرين أحيانًا، في زيارات لم تقتصر على المقامات الكبيرة كمقام السيدة (زينب) والسيد (البدوي) فحسب، بل تعدتها إلى مقامات صغيرة شبه مجهولة كذلك، لا أحد يعرف كيف يصل إليها أو يسمع عنها، حتى أن البعض أقسم أنه ما من مقامٍ في بر مصر إلا وزاره الشيخ (آدم)، عدة مرات.

أما كراماته، فقد رآها الكثيرون، لكن الكلام في تلك الأمور دائمًا، قليل هامس، ربما برغبة من الشيخ نفسه.أحيانًا ما يغيب لمدة يعود بعدها وقد ازداد جلالًا وهيبة، وكأن شيء ما قد تغير فيه، رغم أنه، ظاهريًا، لم يتغير فيه شيء، حتى رداؤه الأسود يظل كما هو. تلك كانت خلوات الشيخ، التي لا يعرف أحدًا عنها شيئًا، اللهم إلا قلة قليلة من المقربين جدًا إليه، وأولئك لم يجرؤوا على البوح بالكثير مما رأوه، من شدة جلال ما يروه.



وفي إحدى تلك الخلوات، عاد الشيخ إلى مريديه في درسه الأسبوعي ذات خميس، وقد تغير فيه شيء، جعلهم يتساءلون عما كان في تلك الخلوة الغريبة، حتى الخميس الذي تلاه.

القاهرة (٢٠١٤)

أنا مبسوط قوي بالصدفة اللي خلتنا نتقابل تاني

وانا كمان!

صدفة جميلة فعلًا!!

كانت تلك من (مي) التي قالت عبارتها بنبرة بدت عادية على عكس عينيها التي لم تكن طبيعية على الإطلاق وقد حملت خبث الدنيا الذي لم يره (صالح) بسبب زاوية وقوفها منه، ولأنه كان حريصًا على عدم التدقيق ناحيتها أو النظر إليها مباشرة، وإن رأته (دنيا) التي تمنت لكمها في تلك اللحظة و قد احمر وجهها بطريقة جعلت ابتسامة (صالح) تتسع في حين عادت هي تقول:

أصل الجامعة مش كبيرة قوي كده .. طبيعي إن إحنا ممكن نتقابل صدفة، ده أنا حتى قابلت (مي) النهاردة الصبح صدفة على السلالم قبل المحاضرة



بالضبط من غير ما نتفق، عارف لو اتفقنا؟؟ كان لازم واحدة فينا هتتأخر!

ضحك ثلاثتهم و(دنيا) تتابع ضحكة (صالح) بعينيها، كما تتابع حركاته وسكناته، وتكاد تحفظها وتسجلها في رأسها، كأنها ترغب في عمل ملف كامل عنه في عقلها دون أن تدري لذلك سببًا. أعجبتها ضحكته التي رأتها عفوية طبيعية، يشرق معها وجهه الذي تشعر من تعبيراته وخطوطه أنه لا يضحك، ولا حتى يبتسم، كثيراً. الأمر الذي جذبها إليه أكثر، وأيضًا دون أن تدري لذلك سببًا.

لكنه قطع عليها تأملاتها وتحليلاتها وهو يقول معتذراً بشيء من الخجل والأسف:

معلش أنا مضطر أستأذن عشان ألحق الظهر لأن العصر خلاص قرب يأذن

أخفت (دنيا) أسفها هي الأخرى وإن بدا القليل منه في عينيها وهي ترد بسرعة قائلة:

آه آه طبعًا إتفضل، معلش أنا آسفة .. آسفين يعني إن إحنا عطلناك



أبدًا واللّه ده أنا كان نفسي أستنى أكثر من كده، بس للأسف مش هقدر

تقبل اللّه مقدمًا

قالتها (مي) فرد (صالح):

منا ومنكم يا أستاذة (مي)، سعيد إني إتعرفت بحضرتك

خلي بالك من نفسك يا (صالح)

صعقت (دنيا) لقولها تلك العبارة وكأنها تحادث صديقًا قديمًا بطريقة جعلت كل احمرار وجهها يختفي فجأة ليحل الشحوب محله، أما (صالح) فقد احمرت وجنتيه هو قليلًا في خجل، ورغم ذلك فقد ابتسم بطريقة عادية وهو يقول بلهجة ودودة:

وإنتم كمان، خلوا بالكم من نفسكم في الحر ده، أنا بسمع عن ناس كتير بيجيلها ضربة شمس، ربنا يستر، مش عارف موجة الحر دي هتخلص إمتى بقى!

أنهت لباقته توتر الموقف وحرجه وإن تبقت آثارهما بداخل قلب (دنيا) الذي ظل يقرع طبوله في أذنيها،



ورغم ذلك، فقد أجبرت نفسها على الظهور بمظهر طبيعي وابتسمت هي الأخرى قائلة:

آه واللّه عندك حق، الحر صعب قوي، ما هو السبب في اللي حصل يوم المصاريف، مش عارفة من غيرك كنت هعمل إيه الصراحة

أنهت جملتها بضحكة قصيرة جاوبها (صالح) بابتسامة خجلى احمرت معها وجنتيه وتقطب جبينه في شيء من القلق وهو يقول:

أنا ما عملتش أي حاجة، بس الحمد للّه ربنا سلم، وزي ما قلت لك، أنا تحت أمرك في أي وقت، وفي أي حاجة تحتاجيها

صمت قليلًا وكأنه لا يجد ما يقوله و بدا أنه ما يزال خجلًا ليتنحنح وهو يعود ليقول:

أستأذن أنا بقى، بس عايزين الفرصة السعيدة دي تتكرر تاني عشان نشوفكم

هتتكرر تاني أكيد

شعرت (دنيا) أنها ترغب في لكم نفسها هذه المرة وقد ملت من عباراتها البلهاء التي تفضح إعجابها



بـ (صالح) الذي أزال حرجها للمرة الثانية وهو يقول مؤكداً ومبتسماً:

أكيد!

تبع كلمته بأن ألقى السلام عليهما وهو يتراجع بظهره هازاً رأسه بأدب قبل أن يوليهما ظهره ويسير مبتعداً بخطوات واسعة سريعة.



(٣)

ماذا تقول وأنت أنت ومن هو .... أنى تراه وقد علاه لثامُ

الخلوة (١٩٧٨)

في حضرة المتولي

صالة صغيرة في شقة متواضعة، قديمة ونظيفة جداً في الوقت نفسه، يجلس الشيخ (آدم) على شلتة صغيرة وضعت مباشرة فوق سجاد أرضيتها البسيط، ومسبحته السوداء الكبيرة بين يديه. شقة صغيرة يمتلكها ويقيم فيها خلواته، ولا يكاد يعلم عنها أحد، حتى أنه البشري الوحيد فيها الآن، لكنه ليس وحده رغم ذلك.

هناك أيضاً أصوات ذكر عذبة بشكل غريب، إنشاد بصوت غير آدمي، لكن كلماته غير واضحة، تدخل الأذن وكأنها فحيح، ما عدا لفظ الجلالة الذي يتكرر بطريقة تجعل القلب يدق في الصدر بقوة بغير ألم، تخرج جميعاً من أجسام كأنها بؤر من الضوء، تراصت بنسق معين في أنحاء المكان، لكن المؤلم حقاً هو أن تحاول التحديق في أجسام النور تلك، التي تخرج الأصوات منها.



عينا الشيخ (آدم) مغلقة، ربما لهذا السبب، وشفتيه كذلك منطبقتان، لكنك لو اقتربت منه جداً، ستشعر أنك تسمع مع دقات قلبه وتنفسه، صوتًا، كهديرٍ خافت جداً، وكأن قلبه هو الذي يذكر عوضًا عن لسانه.

ورغم علمه أنه في حضرة ذكر يقيمها الجان، وليس فيها من البشر سواه، إلا أن الشيخ فتح عينيه فجأة حين شعر بشيءٍ له حضور ونور، أقوى من كل في الحضرة مجتمعين، ورغم ذلك، فهو حضور آدمي.

خلاء – تاريخ غير معروف

أخيرًا فتح عينيه.ألقيت عليه سلامًا جافًا فجاوبني بلهجة هادئة يفترض بها أن تلين قلبي، لكنها قسته أكثر! شعرت في هدوئه بشيءٍ من اللامبالاة، من الفخر بنفسه أو الشفقة عليّ، ليعود رأسي ويشتعل بالحقد والغيرة والحسد.

اعتذر عن غفوته الغير مقصودة لتعبه الشديد، ونهض ليجلب حاجياته التي خبأها عند بعض الأحجار القريبة لحمايتها. فردت طولي ببطء وأنا أطالعه يجمع حاجياته بهدوء وقد أولى ظهره لي. قارنت بين جسدي وجسده الذي بدا لي أقوى وأكبر حجمًا. شعرت أن قشعريرة ما تتكون على ظهري



وتسرح إلى قلبي كأنها صقيع، فتجعله بارداً قاسياً كقطعة من الثلج، على عكس رأسي المشتعل.

تجرأت فجأة واختصرت جُلّ ما يجول بقلبي وعقلي في كلمة واحدة قلتها له. رأيته يوقف حركته دون أن يستدير ليواجهني. وحين نطق أخيرًا وأجاب، وجدت نفسي أركض نحوه كالبرق، أرفع ذلك الحجر الكبير .. وأهوي به على رأسه.

عدن (٢٠١٤)

شعر (عبد اللّه) أنه على وشك الانفجار صراخاً والصوت يتعالى. لم يتمكن من تحديد مصدره هذه المرة وقد فقد عقله كل هدوئه، ونصفه السفلي يكاد يفقد سيطرته عليه، لا ينتظر إلا تكة صغيرة فقط كي ينهار كليًا أو ينطلق راكضاً كالريح. تلاحقت أنفاسه وتقافزت عيناه في كل ما حوله، خاصة ذلك الرجل الذي ما يزال ثابتًا صامتًا تماماً حتى هذه اللحظة! كان ذلك حين ظهرت أضواء من بعيد راحت تقترب تدريجياً حتى غمرت المكان و..

أضواء تأتي من بعيد وصوتٍ عال؟!

لم يصدق الرجل نفسه وكاد يبكي فرحاً وهو يستدير ليرى سيارة سوداء كبيرة يعرفها جيداً



ويستبشر لاقترابها دومًا. بل إن صوت محركها، الذي يميزه بقوته عن معظم السيارات الأخرى، دائمًا ما يملأ قلبه بسعادة غامرة. لكن كل سعاداته السابقة لا تقارن مطلقًا بسعادته الآن، سعادة غطت حتى على لومه لنفسه، وإحساسه بالغباء لعدم تمييزه لذلك الصوت المحبب على الفور.

دمعت عيناه قليلًا بالفعل وهو يرتدي نعليه ويخرج مهرولًا من المقام، ليحظى بالسلام على الشيخ (مصطفى) الذي أوقف سيارته أمام المدخل، وليخلي له المكان، الذي لا بد وأنه قادم لزيارته، احترامًا. فلا شيء في هذا الموقع، والذي يقع في أحد أطراف (عدن) البعيدة، إلا المقابر والمقام.

اقترب في استحياء من نافذة السيارة المجاورة للشيخ الذي لم يهبط منها بعد، لتطالعه ابتسامته الواسعة المريحة وهي تزين وجهه الوقور الطيب.

جاي تزور مولانا في أنصاص الليالي كده ليه يا (عبده)! لحقت تيجي بعد الدرس؟! ولا تلاقيك ما حضرتش!

قالها الشيخ مداعبًا وهو يمد يده للسلام على (عبد اللّه) الذي تلقاها في لهفة طالبًا تقبيلها،



والذي لم يسمح به الشيخ وهو يسحبها منه بهدوء.

حضرت واللّه يا عم الشيخ! أنا بس جيت بعدها على طول

ومالك يا ابني؟ خير إيه اللي فيك؟ إنت كويس؟؟

طفرت عينا (عبد اللّه) بدموع احتجزتها طويلًا وتساقطت على خديه حين لمس شعور الشيخ به وبخوفه وهو يقول بتأثر:

شيء للّه يا عم الشيخ، أنا بقيت كويس عشان شوفتك!

ضحك الشيخ وهو يقول:

طب يا سيدي ربنا يخليك، أنا اللي مبسوط إني شوفتك

ابتسم (عبد اللّه) من بين دموعه وهو يتراجع بظهره احترامًا، دون أن ينسى إلقاء السلام على الشيخ (عثمان)، ودون أن ينسى أمرًا آخر ظل في مؤخرة عقله، جعله يلتفت رغمًا عنه نحو المقام، وهو يسير مبتعدًا ببطء، دائرًا بعينيه حول نوافذه، متطلعًا إليه من كل الجوانب من على بعد.

لأنه، طوال مدة وقوفه وحديثه مع الشيخ، لم ير الرجل الآخر الذي كان معه في الداخل، يخرج من المقام، المقام الذي دخله الشيخ (مصطفى) والشيخ (عثمان) الآن، ويمعن هو النظر إليه من كل النواحي، ومن كل ناحية ينظر منها، لا يرى في الداخل إلا رجلين فحسب.

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً

طنطا (١٩٧٩)

ترنح الصبي بحمله الكريه وأشعة شمس العصر الساخنة تكوي رأسه ككل يوم. تعب من السير فاتخذ موضعاً عشوائياً ليفترشه كعادته، حرص فقط على ازدحامه بالمارة وخلوه من بائعي الخضروات. ربَّع ساقيه وهو يخلع طاقيته ليهوي رأسه ويهرش فيها قليلًا، يرتجف ويتصلب كلما مس إحدى بقع الجلد العارية من الشعر، المنتشرة على جمجمته.

شرد يتطلع إلى مآذن وقباب مسجد (البدوي) القريب الضخمة المحببة إليه، ليتذكر أمه.هرش رأسه ثانية في ضيقٍ حزين ونظر إلى أصابع قدميه التي تطل من خفيه ليتذكر ذهابه إلى الطبيب، والكلام العجيب الذي قاله، وكان أكثر من قدرته على الاستيعاب، عن الشعر الذي يختفي من بضعة



بقع على رأسه، وبقع أخرى بيضاء صغيرة، تظهر على جمجمته وأصابع قدمه. لا يفهم لمَ كل هذا ولا يذكر متى بدأ بالضبط، لكنه متأكد أن شيئًا منه لم يحدث في حياة أمه. كل ذكرى له عن الأمر تخلو منها، وهو يذكر كلامًا قاله الطبيب عن وفاة الأم وتأثيره رغم أنه لم يفهم كيف تكون لأمه أي علاقة بالموضوع.

تساقطت بضع شعيرات دون قصد من رأسه أثناء هرشه، وكلما سقط شعره شعر بضيقٍ وخوف، بدونية أو ضآلة معينة، لا يفهمها لكنه يشعر بها تلسع كعود الثقاب. القط الرمادي الأعور في حارتهم، يطعمه أحيانًا ويشفق عليه لفقده إحدى عينيه، لكن لا يرغب أبدًا في تربيته أو اللعب معه، فهل يراه الناس هكذا هو أيضًا؟؟

وعلى كمية الألم التي جالت بخاطره، تذكر جسده ألم الضرب اليومي الذي ينتظره عند عودته بلا شك، خاصة مع هذا القفص اللعين الذي ما يزال ممتلئًا لأكثر من نصفه، ويفترض به أن يخلو بعد ساعاتٍ قليلة. وعلى ذكره للضرب جاءته ضربة شرسة مفاجئة في كتفه الأيسر، أعقبها صوت صياح حاد..

القاهرة (٢٠١٤)



يخرب بيت فقرك فضحتينا! خفي شوية

قالت (مي) عبارتها في لوم ضاحك لـ (دنيا) التي شحب وجهها كالأموات وكادت تبكي وهي تقول:

هو أنا بجد عكيت قوي كده؟؟

قالت (مي) وسط ضحكها:

لا عكيتي ولا حاجة، أنا بس عايزاكي ما تتدلقيش

يعني أنا باينة مدلوقة!!

يا بت إهدي بقى مش باينة ولا حاجة! أنا بس اللي عارفاكي ففاهمة، أي حد هيشوفك عادية جداً بس مرتبكة شوية يمكن، وده لأنك ما تعرفيهوش كويس، فده العادي يعني

زفرت (دنيا) قليلًا في محاولة لتهدئة نفسها وترددت قليلًا قبل أن تبتسم ابتسامة خفيفة وهي تتساءل بشيءٍ من الخجل والفضول:

بس إيه رأيك؟؟

رأيي في إيه؟



في فيلم الناصر صلاح الدين.هيكون في إيه يعني يا (مي)؟؟!

آه في العريس؟!

أنا الغلطانة إني سألتك

أنا لحقت أعرف عنه حاجة؟ هقول رأيي بناء على إيه؟؟ الكام دقيقة اللي وقفناهم مع بعض دول؟!

أنا الغلطانة واللّه

تحولت ابتسامة (دنيا) إلى تقطيبة ابتسمت لها (مي) قبل أن تتصنع الجدية وهي تقول:

هو إحنا مش فعلًا وقفنا مع بعض كام دقيقة يتعدوا على الصوابع؟ أنا قلت حاجة غلط؟!

ازدادت تقطيبة (دنيا) وزمت شفتيها كالأطفال في صمت وهي تشيح بوجهها بعيداً عن (مي) التي ضحكت قائلة:

دا إنتي واقعة بقى!

ظلت على صمتها فحنت عليها (مي) أخيراً وداعبتها متظاهرة بعدم الاهتمام:



بصي يعني هو لو حكمنا عليه بسرعة كده هنقول إن هو شاب وسيم، شيك كده ومهندم، وشكله محترم

تظاهرت (دنيا) بعدم الاهتمام هي الأخرى محافظة على صمتها فعادت (مي) تقول:

إيه؟ مش حلو التحليل؟ ده أنا كنت لسه هكمل! خلاص بقى مادام مش عاجبك

لأ كملي!

تراقصت في عيني (مي) ابتسامة عابثة استفزت (دنيا) التي ظلت صامتة رغم ذلك كي تكمل (مي):

نظراته مش بجحة، ولا بيتنح زي اللي بيتنحوا، وواضح إنه جدع، ومتدين .. بس كلاسيكي شوية، تحسيه طالع من فيلم قديم كده، وده يمكن لأنه محترم بزيادة، والصنف ده شاحح اليومين دول

طب ومن ناحيتي؟ يعني تحسيه حاسس إيه من ناحيتي؟

يا بت هو لحق يعرفك، ولا إنتي أصلًا لحقتي تعرفيه؟! عايزاه يحبك وكمان يبان عليه من تاني مرة يشوفك فيها! مش معنى إنك حبيتيه من أول



نظرة عشان عبيطة، إن هو كمان لازم يكون عبيط زيك

انفعلت (دنيا) بشدة وشعرت بحرارة تسري في جسدها كله احمر معها وجهها بالكامل وهي تقول:

أنا مش عبيطة وما حبيتوش من أول نظرة! أنا بس .. ارتحت له، مش عارفة ليه، أعجبت بيه عشان جدعنته معايا يمكن .. بس!

عامة هو بيتعامل معاكي باحترام وتحفظ مش مبينين حاجة من ناحيته. إصبري بقى وشوفي قدام هيبقى عامل إزاي...

خلاء – تاريخ غير معروف

اتسعت عيناي والحجر يسقط من يدي وكأنني أدركت ثقله فجأة، وأن كل ذلك الثقل شج رأسه الذي دار به نحوي، لأرى عينيه المستسلمتين. ربما لو أنه قاتلني .. قاومني! لما أكملت عليه بيدي اللتين أحطت بهما عنقه بقوة، لكن ثباته هذا أغاظني أكثر، هدوءه نفخ في ناري! لماذا يقاوم دوران رأسه فلا يسقط على الفور رغم ارتعاش جفنيه وساقيه؟ لماذا يقاوم غريزة الحياة فلا يدفع يدي عنه؟؟



ضغطت على أسناني وأنا أضغط بنفس القوة على رقبته بكلتي يدي. ازرَقّ وجهه. انهرنا أرضاً سوياً ويدي ما زالتا تضغطان. لم أشعر بسقوطي وسط بركة دمائه ولا أظنه هو الآخر فعل. وجاءت سكرة الموت أخيراً ليسكن صدره، ولأستفيق أنا، وأستوعب ما حدث.

عدن (٢٠١٤)

ليه هي بنتك لسه منشفة دماغها؟؟

مش حكاية تنشيف دماغ يا (ميادة)

تعكس المرآة وجه (ميادة) البيضاوي المريح، الذي لا تشي ملامحه الطفولية بسنها على الإطلاق، ولا يكاد يمت بصلة لوجه (نجوى) أمها، التي تجلس خلفها على فراش صغير، وجه مرهق فيه لمحة لا تخطئها العين من جمال سابق أثر فيه الزمن، فقلب كل خط حسن إلى تجعيدة شائخة.

أمال حكاية إيه إن شاء اللّه؟

بتقول لك مخضوضة يا ستي، خايفة ما تقدرش تنسجم مع أسلوب حياتهم .. إنه بيت عيلة وكده، لكن هي لا رافضة ولا موافقة



مطت (ميادة) شفتيها وهي تقول:

همممم .. .وإنتي داخل عليك جو خايفة ما تنسجمش مع أسلوب حياتهم ده برضو يا ماما؟

واللّه يا بنتي ده كلامها

إيه أسلوب حياتهم يعني؟ ما أنا عايشة مع أسلوب حياتهم ده بقالي سنين، كان جرى لي إيه؟ ومالها بتتكلم عنهم كأنهم غرب كده، أو كأنهم ناس عادية! دا حتى .. يا بنتي بطلي فرك جنبي بقى خليني أعرف أضبط الطرحة هنتأخر كدة!!

قالت (ميادة) عبارتها موجهة الجزء الأخير منها لابنتها الصغيرة التي أجفلت للهجة أمها الحادة وابتعدت عنها قليلًا بالفعل لتلهو مع أخيها.

زفرت (نجوى) وهي تشيح بيدها ضيقًا قائلة:

أنا كلمتها كتير يا (ميادة)، وما باخدش منها عقاد نافع. كلمة تجيبها وكلمة توديها ما إنتي عارفة أختك. لو مش عايزاه تقول لأ وتخلصنا بدل الغلب ده

إنتوا عارفين كام واحدة نفسها تبقى مكانها؟ كام واحدة هتموت وتنول شرف زي ده؟ قوم تيجي



بنتك كدة بكل بساطة وتقول لأ؟! ده إنتوا عايزين تنقطوني باين!

واللّه أنا اللي باين علي هتنقط منكوا إنتوا الجوز! واحدة مش عارفة هي عايزة إيه والتانية مشيلاني غلط الأولانية! إنتوا عايزيني أعمل إيه مش فاهمة؟!

يا أمي، يا أمي أنتوا فاهمين إنتوا بتقولوا لأ لمين؟؟

إنتي كنتي شوفتي حد قال حاجة أصلًا؟ ولا حتى أختك نفسها؟؟ ما قلناش لا قالت آه ولا قالت لأ! ثم إيه إنتوا إنتوا إنتوا؟! ما إنتي عارفة إني عايزة الموضوع ده يتم أكتر منك إنتي وأبوكي كمان! بس إحنا هنعمل لها إيه يعني؟ هنجوزه لها غصب يا (ميادة)؟ أختك اللي محدش فاهم لها حاجة

بس أنا بقى فاهمة

الخلوة (١٩٧٨)

السلام عليك يا ابن (قاين)

رغم عينيه المفتوحتين، لم يتمكن الشيخ (آدم) من رؤية مصدر ذلك الصوت الرخيم، الذي شعر وكأنه انسكب في أذنيه مباشرة، أو روحه ربما. لا يدري إن كان السبب في ذلك هو أنوار الحضرة التي



تعجزه عادة عن فتح عينيه بالكامل، أم شيء في صاحب الصوت نفسه، يعجز الناظر إليه عن رؤيته واضحًا. ورغم ذلك فقد رد السلام بأدب قائلًا:

وعليكم السلام والرحمة

خيل إليه أنه يرى طرفًا من عباءة بيضاء وجلباب تحتها بنفس اللون، وهو يحرك عينيه نصف المفتوحتين، في محاولة لرؤية محدثه وتحديد موضعه، وتعجب حين وجد أنه لا يقف على مسافة قريبة منه كما اعتقد حين وصله الصوت، الذي بدا وكأنه يأتي من أمامه مباشرة.

زاد إحساسه بالهيبة وهو يسمع صوت خطوات تزامنت مع شعوره باقتراب هالة اقشعر لها جلده كله. ألحت عليه رغبة في النهوض احترامًا لم يدرِ لها سببًا، وهاله عدم قدرته على ذلك. لم يستطع تحريك أطرافه أو أي جزء من جسده، ليس لثقل أو علة، وإنما لعدم شعوره بذلك الجسد أصلًا، وكأن روحه انفصلت عنه، والغريب أن ذلك لم يزعجه أو يضايقه على الإطلاق، بل على العكس، هو لا يذكر أنه شعر بهذا القدر من الراحة والسكينة قبلًا في حياته، وكأن حمول الدنيا كلها قد انزاحت عن كاهله.

إبق كما أنت ولا تحمل همًا



كلمات الرجل جعلت الشيخ (آدم) يتساءل عمن يكون، وهو الذي اعتاد على حضرات الجان وما يكون فيها، على ما يسمع منهم ويرى، أما هذا الشخص الغريب، فهو إنسي بلا شك، لكنه أغرب من كل ما سمع ورأى.

راح صوت الخطوات يتعالى مقتربًا، والعباءة البيضاء تحف بالأرض فلا تتسخ، ومن وسط الضوء القوي، رأى الشيخ جسداً له حدود إنسان، يقف أمامه مباشرة.

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

لم يدر من أين جاء الصوت هذه المرة، من محدثه الغامض المهيب أم من الحضرة أم من لا مكان على الإطلاق. وخيل إليه أنه يرى عينين واسعتين تحدقان فيه بقوة يعجز معها عن النظر بعيداً، وتلمعان رغم كل ما يحيط بصاحبهما من نور، والصوت الرخيم يزداد قوة وهو يصرخ في روحه:

هل أنت قادر عليها يا ابن (قاين)؟!

بخشوع رد الشيخ:

ما من قادر على كل شيء سواه



ألح الصوت:

هل أنت قادر عليها؟؟!

ازدادت رهبة الشيخ وخشوعه، وحيرته كذلك، وهو يقول هذه المرة:

وما هي يا مولانا؟

حمولك

طنطا (١٩٧٩)

نظر الصبي مندهشًا باتجاه الضربة والصياح مستبينًا مصدرهما ليجدها تقف مغبرة بتراب لا يبين لون بشرتها الذي حمصته الشمس. ترتدي جلباب قصير مهترئ. تحمل فوق رأسها الصغير شعر أكرت منتفش لا لون له. وتقف بجوار فرشة عليها أكياس مناديل صغيرة رصت بعشوائية. بدت وكأنها في الثانية أو الثالثة عشر من عمرها لا أكثر، يعني تكبره ببضعة أعوام فحسب، وربما كانت أكبر من ذلك لكن قصرها وضآلة حجمها يزيفان عمرها قليلًا. ورغم ضآلتها وقصرها هذان فقد بدت في عينيه ضخمة عملاقة، لجلوسه ووقوفها ربما، وربما لشراسة ضربتها التي لم يدر



كيف لمثلها أن تأتِ بها.لكن الأهم من الكيف هو لماذا، لماذا ضربته؟

قوم ياض يا جربان إنت من جنبي يللا!

نظر لها بصمت وكأنه مصدوم، أو لا يعرف كيف يرد، واكتفى بأن ارتدى طاقيته ببطء وكأنه يحاول معالجة الموقف، وكأن اتهامها له بالجرب سوف يتلاشى فور تغطيته لرأسه الذي تسبب انكشافه في هذا الاتهام. إلا أن الفتاة عاودت صراخها بالطبع وهي تركل أصابع قدمه البيضاء:

قوم بقول لك! يا جربان! يا معفن!!

آلمت الضربة كرامته أكثر مما آلمت جسده، فحتى وإن كانت أكبر منه فهي ما تزال فتاة!

أنا مش جربان!

دمعت عيناه وهو يقولها رغمًا عنه لكن الفتاة لم تر دموعه تلك، أو لم تهمها على الأرجح، وهي تنتزع طاقيته عن رأسه وتلقيها أرضًا بسرعة ثم تركلها بعيداً بقرف هاتفة:

كداب! أمال ده إيه ده؟!

مش جرب واللّه، ومش بيعدي



آلمته طريقة نطقه المستعطفة لعبارته أكثر مما آلمته العبارة نفسها، وأكثر مما آلمته الفتاة بكل ما قالت وفعلت. فكر في ضربها انتقاماً لكرامته. نظر حوله فلم يعرف إن كان تجاهل الناس له أفضل أم أسوأ. لا يعرف أصلًا إن كان صاحب الحق أم لا. قرر أخيرًا في صمت تجنب المزيد من المواجهة التي لا تأتي إلا بمزيد من الضرب والصراخ والفضيحة والألم. نهض بحزن ليلتقط طاقيته استعداداً للرحيل، لكن الفتاة، التي بدت وكأن شراستها غلبت عقلها، أمسكت بقفص الخضروات وراحت تهزه بغل مزيدة من تفككه.

اتسعت عيناه بذعر واندفع نحو القفص محاولًا تثبيته وهو يدفعها بكل قوته صارخًا:

سيبي! سيبي بقى حرام عليكي!!

ورغم ارتفاع أصواتهما ونشوب العراك بينهما، إلا أن أحداً من المارين لم يلتفت لهما كثيرًا. مجرد طفلان يتشاجران .. يلهوان بشيءٍ من العنف. أما الفتاة فقد ازدادت شراسة وكأن لعبة إثبات القوة هذه أعجبتها لتجد فيها ما يفرغ طاقتها. وربما لم تكن مهتمة من الأساس بعدوى جرب أو غيره فهي معجونة وسط القذارة، وإنما هي رغبت في فرض سيطرتها وحسب.



طفرت الدموع غزيرة من عيني الصبي رغمًا عنه وسط صراخه وكزه على أسنانه وهو يبعد الفتاة عن القفص حتى تعبت هي، أو ملت، من اللعبة، لتعتدل واقفة لاهثة ببطء كأنها فاتح منتصر، واضعة يديها في وسطها وهي تنظر إليه وقد تهالك فوق القفص ينظر إليها بخوف كأنه يحميه بجسده. ورغم قرار الرحيل الذي أضمره سابقًا، إلا أن حركة القفص هذه بدت له كضربة تحت الحزام بلا أي داعٍ على الإطلاق، جعلته يكره تلك الفتاة من قلبه رغم أنه لا يعرفها، ويقول في عناد وسط دموعه ولهاثه:

لو قرفانة قوي كده ما تقومي إنتي من جنبي، حد حايشك!

لوت وسطها بطريقة سوقية فجة لا تتناسب مع سنها وهي تقول باستفزاز:

لأ يا حبيبي، ده مكاني! وبقعد فيه كل يوم، يبقى إنت اللي تغور إنت وخضارك المعفن زيك اللي لامم علينا الدبان ده!!

كانت تلك آخر نفخة في صدره ليذبل بعدها بالون طاقته الضعيف. لم يعد يتحمل أو يرغب في أي شيء سوى أن ينتهي هذا الموقف بأي شكل. ولم تمض دقائق معدودة حتى كان قفصه على رأسه



وهمه على قلبه وهو يسير مبتعداً. أما دموعه فقد جفت وقد نسي أن يبكي غيرها منشغلًا بالقفص الذي صار آيلًا للسقوط في أية لحظة، داعياً اللّه ألا يحدث ذلك على الأقل حتى يعود إلى البيت.

خاف أن يفترش موضعًا آخر خشية تكرار ما حدث، وقرر أن السير أفضل كذلك لسرعة التخلص من الثمار التي لا تريد أن تنتهي. تمكن من بيع القليل وصار القفص أخف لكنه لم يفرغ بعد. انتبه إلى قرب مغيب الشمس وموعد عودته فتعرقت كفاه التي أنشبها كالمخالب في القفص كي لا ينزلق، ولكن بدا وأن شراسة تلك الفتاة قد أتت على ما بقي فيه من تماسك ليمسي عاجزًا عن حمله باتزان فوق رأسه، وينزله مذعوراً ليحتضنه بين ذراعيه بخوف.

جف حلقه حين سقطت منه ثمرتان أو ثلاث إلا أنه لم يفكر في التقاط شيء كي لا يترك القفص. كان ذلك حين دوى في أذنيه صوت أذان صلاة المغرب قادمًا من مسجد السيد (البدوي) الذي صار قريباً جداً منه. وعادت دموعه للظهور مرة أخرى وهو يشعر أن الدنيا كلها قد أطبقت عليه فجأة ليسقط منهاراً هو وقفصه، عند سلالم المسجد الكبير قرب أحد الأعمدة.



منذ كنت طفلا صغيرا نلت منزلـــــة ..... وهِمّتِى قد علت على سائر الهمم

القاهرة (٢٠١٤)

لم تدر (دنيا) إن كانت قد كذبت على (مي) أو على نفسها حين نفت أنها أحبت (صالح) من أول نظرة أم لا. فقد انتابها شعور غريب بالفعل حين رأته للمرة الأولى، شعور غريب لكنه ليس الحب ذاته بالطبع، فهي ليست بالطفلة وليست على أعتاب المراهقة كي تظنه حب الروايات والأفلام، لكنها تدرك جيداً في قلبها أنه شعور غامض مؤدٍّ إليه بطريقة لا تفهمها، لكنها تعرف أنها حتمية.

ورغم أنها ما تزال لا تعرف إحساسه ناحيتها بالضبط، إلا أنها استسلمت لذلك الشعور وتلك الحالة، لأنها تشعر أن قوة ما تحسه لا يمكن إلا أن يكون متبادلًا، وربما هي تتمنى ذلك فحسب، فهي حقًا منجذبة إلى (صالح)، مبهورة به، وراضية أن تبقى فقط بجواره، حتى لو لم تنل منه حبًا، راضية به حتى لو انكسر قلبها، وواثقة فيه لدرجة تشعر معها أنه حتمًا لن يكسره.

سرحتي في إيه؟



قطع عليها (صالح) شرودها وتأملاتها فيه بسؤاله لتجفل قليلًا وتسأله هي:

إنت .. إنت عرفت إزاي؟

إحساس

قالها بابتسامة فلم يبد عليها أنها اقتنعت واحمر وجهها وهي تضحك بخجل وتكرر:

لا بجد عرفت إزاي؟ دول كانوا ثانيتين يعني اللي سرحت فيهم

ما هو الثانيتين دول عينيكي شردت فيهم كده وكنتي بتردي بنص دماغ

ألهذا الحد يعرفها؟ لهذا الحد يلاحظها؟ لدرجة أن يلاحظ شرود عينيها لثانيتين فقط؟ هل ينظر في عينيها طويلًا؟ هل يسبر أغوارها من خلالهما؟

ما تتخضيش كده أنا بهزر.مش لازم تقولي أكيد

شعرت أنها أحرجت أكثر وكأن عبارته هذه كشفت أنه يعرف ما كانت شاردة فيه. وكأنها تحاول دفع تهمة عن نفسها، قالت بسرعة:



لا لا عادي، أنا سرحت في شخصية البنت اللي في الرواية واحنا بنتكلم عنها، أصلها فكرتني وأنا بقراها بواحدة كنت أعرفها

والرواية كلها .. إيه رأيك فيها؟

جميلة جداً، أنا بحب (إحسان عبد القدوس) قوي

أنا كمان، بس مش هو أحسن كاتب عندي

أمال مين؟

شرد ببصره قليلًا كأنه يفكر قبل أن يقول:

مش عارف، فيه كذا حد كويس قوي ..)يحيى حقي) و(الأسواني).بس ممكن نقول إن أقرب واحد لقلبي هو (يوسف إدريس)

بلهفة متحمسة قالت:

إيه ده! أنا كمان بحبه قوي

بصرة

بس ما قريتلوش كتير للأسف

قريت (العيب) أو (النداهة)؟



لأ بس قريت (قاع المدينة)، وعجبتني قوي

بدا وكأنه لم يسمعها وهو يلتقط حقيبته الأنيقة ويعبث بداخلها قليلًا قبل أن يخرج بكتابين مد يده إليها بهما. كانا رواية (العيب) ومجموعة (النداهة)، واللتين نظرت (دنيا) إلى أغلفتهما المصقولة ورزمتي أوراقهما المضغوطة بطريقة تشي بأنهما جديدان لم يمسا بعد، قائلة:

إيه ده إنت بتحبه قوي بقى على كده، معاك كتابين له في شنطتك بالصدفة

لسه شاريهم النهاردة، خدي بقى وقولي لي رأيك أما تخلصي

صمت قليلًا قبل أن يضيف ضاحكًا كطفل:

بس من غير ما تحرقي حاجة

بدهشة قالت:

أحرق إيه؟؟ هو أنا هقراهم قبلك؟!

أمال أنا باديهم لك ليه؟

بس إنت لسه جايبهم النهاردة



ما أنا عارف

وإنت نفسك لسه ما قريتهمش

طب وإيه المشكلة؟

إنك أكيد هتموت وتقراهم، وأنت أصلًا بتحب (يوسف إدريس)

طب ما إنتي كمان بتحبيه

أيوه بس دي كتبك إنت

شعرت في عينيه المثبتتين على عينيها بشيءٍ من العتاب وهو يقول لائمًا:

إيه كتبك إنت دي؟ إحنا فيه بيننا كده برضه؟؟

ندمت على تسرعها ولعنت في سرها لسانها الذي يتصرف أحيانًا، بل كثيرًا، قبل أن يفكر عقلها، لذا قالت بشيء من الحرج:

أنا مش قصدي واللّه، أنا بس حسيت إنه كتير قوي يعني، تبقى لسه جايب القصص، وما قريتهمش إنت نفسك، وتديهملي أنا أقراهم الأول، دا أنا حتى لسه مارجعتلكش اللي عندي



ولو ما رجعتيش حاجة خالص، ما يغلوش عليكي،
أنا وإنتي واحد يا (دنيا)

ابتسمت رغمًا عنها من كلماته الرقيقة وهي تتناول منه الكتابين بامتنان لترى معالم الارتياح تغزو وجهه وعينيه تبتسمان لها بـ .. بحب!

لو أحببت كما أحببنا، لفهمت كما فهمنا

(٤)

و غاب عنّي شهود ذاتي ....بالقرب حتّى نسيتُ اسمي

خلاء – تاريخ غير معروف

يا إلهي .. ماذا فعلت؟!

هل أبكي أم أصرخ؟ أندم أم أفرح؟ أهرب أم أعود؟ إن هربت فأين أذهب؟ وإن عدت فهل أعود به أم بدونه؟ وماذا لو اكتشف أحدهم .. جثته؟؟

تضاربت الأفكار والمشاعر بداخلي بطريقة شلتني تمامًا، أنظر إلى دمه الذي ما يزال يلوث يدي، وروحي، وكل شيء حولي. أريد لهذا السائل الأحمر المخيف أن يختفي، وحتى لو اختفى، ماذا أفعل بجسده؟ كيف أخفيه هو أيضًا؟ حاولت السيطرة على نفسي وأنفاسي وأنا أنهض ببطء محاولًا جمع شتات أفكاري ومشاعري.

وماذا سأفعل؟؟

في صمت انحنيت على جسده الساكن لأرفعه ببطء متحاشيًا النظر إلى وجهه. حملته على ظهري كي لا أنظر له، دون أن أدري غاية أو وجهة،



دون أن أدرك أي خطوة تالية، مضيت سائرًا بحملي الثقيل.

عدن (٢٠١٤)

فاهمة إيه؟؟

ورغم صراخها في ابنتها منذ دقائق كي لا تعطلها، فقد تشاغلت (ميادة) عن ضبط حجابها وهي تنظر لأمها في المرآة وتبتسم بزاوية فمها بخبث، وبطريقة العالم بأمور كل شيء، قالت:

يعني مانتيش عارفة؟!

زفرت (نجوى) بشيءٍ من الضيق ونفاذ الصبر وهي تقول:

يا بنتي قولي وخلصيني

هيكون إيه يعني يا ماما! أكيد فيه حد تاني

حد تاني يعني إيه؟؟

بنتك شكلها كده مرتبطة وللا تعرف حد بتحبه

بدا على (نجوى) فزع أكبر من اللازم وبطريقة غير مبررة وهي تقول:



حد مين؟؟؟!

أنا إيش عرفني؟؟!

(ميادة)! هي حاكية لك حاجة وإنتي مخبية عليا؟!

حاكية لي إيه بلا خيبة هو أنا بشوفها؟!

ما كانت لسه هنا من يومين وشفتكوا بتتودودوا في المطبخ، ما حكتلكيش حاجة معقول؟!

ما إحناش سر بعض قوي كده يا ماما وإنتي عارفة

أنا حاسة إنك عارفة حاجة ومخبياها

هخبي ليه مثلًا؟!

أختك بقى وبتداري عليها، ممكن تكون محلفاك ما تقوليش

إنتي عارفة إني كنت هاجي أقول لك برضه

ورغم أنها عطلت نفسها بنفسها منذ دقائق بإرادتها، وكانت هادئة بل وتبتسم بسخرية منذ قليل، إلا أن (ميادة) عادت لتصرخ في ابنتها التي لم ترتدِ حذاءها بعد وستعطلهم، لترتبك الصغيرة ولا تستطِع ربط الحذاء كما يجب، فتصرخ (ميادة)



للمرة الثالثة بنفاد صبر كأن أحدهم يضغط على أعصابها بشدة، وهي تمسك بذراع ابنتها وتدفعها نحو أمها قائلة:

خدي يا ماما والنبي البت اللي مش عارفة تربط حتة جزمة دي إحنا مش هنلحق حاجة كدة

لم يبدُ على (نجوى) أنها انزعجت كثيرًا من عصبية ابنتها وهي تساعد حفيدتها بذهن شارد عنها ومنشغل بالحوار وهي تقول:

يعني إنتي بتخلي الشك يلعب في دماغي وخلاص؟! مانتيش عارفة حاجة وبتفتي؟!!

أنا ما بفتيش أنا بستنتج، وهو الاستنتاج المنطقي الوحيد أصلًا، معرفش إنتي وبابا ما أخدتوش بالكوا إزاي الصراحة!

اكتسح القلق ملامح (نجوى) حتى أن لونها شحب وشفتيها جفتا وهي تقول كأنها تندب حظها على ما وقع فعلًا:

وده من جوه الطريقة وللا براها بقى إن شاء اللّه؟؟ أختك هتجيب لنا واحد غريب وتفضله على ابن الشيخ؟! هتصغرنا وتقصر رقبتنا قدام الراجل؟ لا حول ولا قوة إلا باللّه!

على اللّه بس مايطلعش وهابي زي) أسامة) اللّه يرحمه

الخلوة (١٩٧٨)

صمت الشيخ (آدم) وطال صمته، ربما لأنه لم يفهم السؤال الموجه إليه، وربما لأنه ما يزال يفكر في الإجابة.

ارفع عنك غطاء رأسك

عاجله ذلك الطلب، أو الأمر، وهو بعد لم يفهم ما سبقه، الأمر الذي قد يبدو مربكًا أو محيرًا. لم تكن لهجة الصوت الرخيم حادة أو عنيفة هذه المرة، لكنها كانت آمرة، وفيها شيء من اللين رغم ذلك، ربما لذلك امتثل الشيخ (آدم) للأمر بهدوء، لكنه شعر في قرارة نفسه أنه كان سيمتثل له رغم كل شيء، ومهما كانت لهجته. اضطر لترك مسبحته في حجره كي يحل عمامته من فوق رأسه، وهو بعد لم يفهم أي شيء تقريبًا، سوى أن عليه الصدوع بأي أمر يوجهه له الصوت الرخيم، مهما كان.

لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ



شعر بشيءٍ يلامس أعلى رأسه فأغلق عينيه تلقائيًا وهو يشعر بشيءٍ أقرب لكهرباء استاتكية تحيط بجمجمته وتضغط على رأسه وأذنيه بطريقة غريبة لكنها غير مؤلمة مع ذلك. ازداد ضغطه على جفنيه وهو يكرمشهما كأنه يريد إغلاق عينيه أكثر وهو يشعر بشيءٍ ينساب بنعومة ليحيط برأسه، كأنه عمامة لكنها أخف وزنًا بكثير، مصنوعة من غلالة رقيقة للغاية، كأن ما أحاط برأسه هو هالة من نوعٍ ما، على شكل عمامة.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

أتاه الصوت مرة أخرى فور اكتمال التفاف العمامة على رأسه، أو التحامها به، نعم التحامها، فقد شعر الشيخ (آدم) وكأن تلك العمامة جزء من رأسه أو هالته، كأنها تكمله ولا تثقله، وأن رأسه أخف وزنًا وأكثر راحة بكثير. فتح عينيه ببطء الترقب لا الخوف. لم يكن يعرف ولا يتوقع حتى ما يمكن أن يراه أو يسمعه، أو يشعر به عندما يفعل، لكنه يشعر أنه سيختلف عما كان قبل إغلاقهما. وقد كان، وتأكد له شعوره حين اكتمل تفتح عينيه، وراح جفناهما ينفرجان أكثر وأكثر، حتى وصلا لآخر مدى يمكن أن يصلا إليه، وهو يرى ما يراه الآن، وما لم يتوقعه على الإطلاق.

عدن (٢٠١٤)



في الطرف البعيد جداً عن مدخل (عدن) الرئيسي، والقريب إلى حدٍّ ما من مدخلها الجانبي، يقع ذلك المبنى متوسط الارتفاع، الذي يجمع بين البساطة والأناقة. في الطابق العلوي منه يقع مكتب الشيخ (مصطفى الشاذلي)، شيخ الطريقة.وعند ذلك المبنى، توقفت سيارة الشيخ السوداء التي يقودها بنفسه، ويجاوره فيها نائبه، الشيخ (عثمان عبد الملك).

هبطا من السيارة وصعدا سويًا إلى الغرفة الواسعة الأنيقة، والتي يتوسطها مكتب كبير فخم جلس الشيخ (مصطفى) خلفه وأخرج علبة فضية سحب منها سيجارين من الحجم الصغير، وضع أحدهما بين شفتيه، وقدم الآخر لـ (عثمان) الذي أخذه شاكرًا وأسرع بإخراج قداحته ليشعل سيجار الشيخ أولًا ثم سيجاره. لم يكن يحب السيجار كثيرًا، ولا يدخنه إلا فيما ندر، ربما في حضرة الشيخ (مصطفى) فقط، وحين يعزم عليه بواحد، حيث يفضل عليه السجائر العادية الخفيفة، لكنه رغم ذلك لا يرفض شيئًا يقدمه له الشيخ، أو يمد له يده به.

جلس صامتًا باحترام في أحد المقعدين أمام المكتب الذي استرخى خلفه الشيخ في مقعده الوثير، وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجاره قبل أن يقول:



لسه قلقان على (هشام) يا (عثمان)؟

ربنا يهديه

قالها مغمومًا فعاد الشيخ ليقول بهدوء:

معلش طيش شباب وهيعدي

شباب إيه بس ده داخل على التلاتين! وحالته من سيء لأسوأ

لو المشكلة في الأوراد والدروس وكده بس فدي بسيطة ومقدور عليها

لأ طبعًا مش أوراد ودروس بس..

قالها بضيق فصمت الشيخ وكأنه يستحثه دون كلام على إكمال حديثه شارحًا، مكتفيًا بالنظر إليه وهو ينفخ دخان سيجاره الذي كون هالة ضبابية خفيفة حول رأسه، ففهم (عثمان)، الذي لم يكن بحاجة لمن يستحثه على أي شيء، وعاد يسترسل في كلامه ناسيًا، أو متناسيًا السيجار في يده:

سقط تاني! لأنه ما بيروحش الجامعة وساعات كمان ما بيروحش الامتحانات! بيرجع كل يوم وش الفجر ولو حد اتكلم معاه يزعق ويقلب البيت حريقة كأن إحنا الغلطانين! وفى الآخر يخش أوضته ويرزع الباب



وراه وينام لحد الظهر عشان يصحى يعيد نفس السيناريو تاني، نفس السيناريو بيتكرر كل يوم وتقريبًا ما بقيناش نشوفه.أنا مش عارف حتى أربيه لأني أصلًا مش بشوفه!

له حق، إنتوا فعلًا غلطانين

لم يعلق لكن الدهشة قفزت من كل ركن من ملامحه وهو يتطلع للشيخ الذي عاد يقول بنفس الهدوء:

تربية إيه اللي عايز تربيها لواحد داخل على التلاتين زي ما انت بتقول؟ السن دي عايزة حوار، (هشام) محتاج حد يقعد معاه ويكلمه بهدوء مش يصرخ فيه كأنه مجرم، الزعيق هيخليه يعند أكتر، والتربية أوانها فات خلاص، وده برضه غلطكم أنتم

لم يدر ما يقول فتشاغل بسيجاره والشيخ يضيف:

هاته وأنا أقعد معاه وأكلمه

هو بيرضى ييجي أصلًا؟!

يا سيدي في أقرب فرصة، مش لازم بكرة يعني. وماتضغطش عليه، سيب الأمور تمشي سلسه هتلاقيه جه من نفسه



للمرة الثانية لم يجد ما يقوله فابتسم الشيخ وقال:

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ

هز رأسه وهو ينفث الدخان من فمه فعاد الشيخ يقول:

وزي ما قلت لك قبل كده، (هشام) قلبه أبيض ونيته صافية، كل اللي بيعمله ده حركات كده من بره، مفيش خوف منه ولا عليه

أراد أن يسأل إن كان هناك من يجب الخوف منه أو عليه، أو إن كان يقصد بذلك أحد أبنائه الآخرين، لكنه آثر الصمت احترامًا، وربما خشية من الإجابة. وبدت في عين الشيخ نظرة كاشفة كأنه يقرأ ما في قرارة نفسه قبل أن يقول:

عملت إيه في الموضوع إياه؟

ارتبك قليلًا كأنما باغته السؤال وهو يقول:

لسه واللّه..

لسه ما فتحتوش ولا لسه ما جالكش رد؟

أسرع يرد:



لأ فتحته طبعًا..

صمت كلاهما وكأن الشيخ ينتظر أن يكمل كلامه موضحًا إلا أنه لم يزد على أن قال:

ده شرف كبير لنا طبعًا، كلهم في البيت طايرين من الفرح

ابتسم الشيخ ابتسامة هادئة وقورة وظل على صمته الذي زاد من توتره، وظهرت نظرة غريبة في عينيه، وبضع حبات صغيرة من العرق على جبهته. أما الشيخ فقد اتسعت ابتسامته وهو يتأمله بنظراته الثاقبة قائلًا:

الحاجات دي محتاجة وقت وتفكير، أنا فاهم، ومقدر

أطلق نفسًا قصيرًا كان قد حبسه في صدره على شكل تنهيدة خافتة خففت قليلًا من توتره. وكأنما أراد الشيخ تغيير دفة الحديث عن عمد، قال:

و(أمجد)؟

ربنا يحميه، ياريت أخوه يتعلم منه واللّه، ما إنت عارفه طيب وهادي، ومش متعب زي الكبير

أطفأ الشيخ سيجاره في منفضة كريستالية كبيرة أمامه وهو يقول:



لقى شغل؟

لسه بيدور، مش لاقي حاجة مناسبة

قل له ما يشيلش هم شغله عندي، ولو حب ييجي يستلمه في أي وقت

انتبه في تلك اللحظة أن الشيخ قد أطفأ السيجار فأسرع هو الآخر يطفئ سيجاره وهو يقول:

ربنا يخليك، أنا مش عارف أقول لك إيه واللّه

ليرد الشيخ (مصطفى) بطيبة:

ما تقولش حاجة دول ولادي، كلهم ولادي، وأنا اللي مربيهم، دا أنا ليا فيهم أكتر منك يا راجل!

أنهى جملته بضحكة عالية صافية جاوبها (عثمان) بضحكة مماثلة، وإن حملت عينيه نظرة غريبة، وغير واضحة.

طنطا (١٩٧٩)

أسند الصبي رأسه إلى رخام أعمدة مدخل مسجد السيد (البدوي) الباردة، ودموعه الحارة تنهمر على وجهه دون تحكم. لم يعرف لمن يشكو أو بأي حضن يرتمي وقد ذهبت من كان يشكو لها



ويرتمي بحضنها، من كانت تذود بجسدها عنه وتتحمل نصف ما يتحمله من ضرب. يتعلق بثيابها وسط زحام اللاجئين لرحاب السيد (البدوي)، الباكين عند مقامه مثلها ومثله، حين تشتد عليهم الحياة وتكشر عن أنيابها بما يفوق احتمالهم. وها هو الآن عند باب ذلك الرحاب، وعاجز في الوقت نفسه عن الدخول إليه، فكيف يدخل ويترك حمله هذا هنا؟ وكيف يدخل بهيئته المتربة المغبرة هذه؟

علا نشيجه وارتجف جسده رغمًا عنه وهو يشعر أنه ضائع تمامًا، لكن خجله جعله ينهنه بصوتٍ خفيض جدًا، مسموع فقط لمن يمر بجواره، وقد مر الكثيرون دون أن يلتفت إليه أحد. شخص واحد فقط انتبه إليه واقترب، رجل طويل مهيب، أبيض يرتدي السواد، بدا للصبي بقامته المديدة كعملاق غامض، حتى أنه شعر بالقليل من الرهبة حين انحنى عليه مربتًا على كتفه، سائلًا عما يبكيه بهذه الطريقة.

لكن الصبي لم يجبه، فقط زاد بكاؤه أكثر، ربما لخوفه من هذا الغريب، أو لأن اهتمام أحدهم به قد هيج مشاعره بعد كل المدة التي لم يلق فيها سوى قسوة ومهانة. وأمام هذه النوبة من البكاء، لم يتمالك الرجل نفسه من الدهشة، ولم يدر إن كان الأصلح أن يترك الصبي وشأنه، لكن قلبه لم



يطاوعه حين تمعن في وجهه وعينيه، ورأى حزنًا غائرًا في وجهه البريء الذي غطاه الانكسار والألم.

اعتدل وابتعد ليغيب عن ناظري الصبي الذي لم يعرف أين ذهب، وهل سيعود أم لا، وجد نفسه رغمًا عنه يتمنى عودته رغم كل شيء، وكأنما وجد فيه نوع من الأنس الذي خفف القليل من جزعه، كأنه يريد أن يكون بجواره مخلوق بشري وحسب، حتى إن لم يدر كيف سيساعده ذلك في أي شيء.

لا يذكر آخر مرة طلب فيها شيء وحصل عليه، أو تمنى حتى أمنية وتحققت، لذلك، فحين رأى الرجل الطويل يعود إليه مرة أخرى حاملًا في يده زجاجة مياه صغيرة، لم يتمالك هو نفسه من الدهشة هذه المرة، اتسعت عيناه وانفرج فمه وقد خفت نحيبه قليلًا وكأنما أنسته الدهشة أن يبكي بنفس القوة. كان وجه الرجل يحمل ابتسامة طيبة، بدا مريحًا له هذه المرة، كأنه يعرفه من قبل، أو كأن تلك اللحظات الفائتة كونت بينهما معرفة سابقة، وتاريخًا من نوعٍ ما.

اقترب حتى وقف بحواره، ودون أي كلمة، فتح الرجل زجاجة المياه وسكب القليل منها على يده، ومسح بها وجه الصبي الصامت الذاهل، الذي لم يفته أن يلاحظ، رغم ذهوله، تلك الرائحة العطرية الخفيفة التي انسابت إلى أنفه حين مست كف الرجل



وجهه، رائحة يحبها ويعرفها لكنه لا يعرف اسمها، أو لا يذكره؟ ماذا كانت تدعى؟ مـ .. مسك؟

وعندما عاود الرجل سؤاله هذه المرة، وجد الصبي نفسه يحكي له كل شيء.

لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ

عدن (٢٠١٥)

بعد يومٍ طويل شاق من مساعدة زوجها (عبد اللّه)، الذي يعمل بالتناوب مع عامل آخر في محل البقالة الصغير، لم تكن (عائشة) تجد راحة أو متعة أكبر من السير ليلًا في طرقات (عدن) الواسعة، متنشقة هواءها الليلي الرطب المنعش، المشبع برائحة الزرع، مستمتعة بالسكينة الغريبة التي تغلف هذا المكان المريح، وتلمس كل من فيه بعصا سحرية حانية، تجعله ينسى كل همومه دفعة واحدة.

تخلع نعليها أحيانًا كي تسير حافية فوق الرمال الناعمة الباردة، التي تخفف من حرارة داء السكري الذي ألهب قدميها، والغريب أنها كانت تشعر براحتين حين تفعل ذلك، راحة حسية فورية، وراحة أخرى على المدى البعيد، يندهش لها طبيبها أكثر



مما تندهش هي، فهو يقسم أن حالة قدميها تتحسن مع الوقت!

ورغم لسعة البرد الخفيفة، وذلك الوقت المتأخر من الليل، فلم تشعر (عائشة) أنها وحيدة في خلاء، إذ كان هناك آخرون أيضًا يسيرون مثلها، الأمر الذي يشعر المريدين جميعًا دومًا بنوعٍ من الأنس، في أي وقت ومهما تأخر الوقت، ورغم ذلك وعلى كثرتهم، فإنك أبدًا لا تجد ازدحامًا أو اختناقًا في المكان، فاتساعه يبتلع أعداد الماشين، المتفرقين كأفراد أو جماعات صغيرة.

لكن تلك الليلة اختلفت قليلًا.

سارت (عائشة) في البداية بمفردها، متلفحة بشال خفيف، وقد لفت حول معصمها مسبحتها التي تؤدي عليها أورادها، ككثير من أولئك المتمشيين مثلها، الأساس اليومي بعد صلاتي الصبح والعصر، والذكر الممتد الذي يصل لسبعين ألف أو مائة، ويكون استغفارًا أو تهليلًا وما إلى ذلك، ويستخدم فيه ذلك العداد الإضافي.

وبما أن أغلبية المريدين في الطريقة يعرفون بعضهم البعض، لإنتمائهم جميعًا إلى نسيجها الموحد، فقد كان من الطبيعي أن يقابل المرء شخصين أو ثلاثة على الأقل، يلقي عليهم السلام

ويمضي كل في طريقه، أو ينضموا إلى بعضهم البعض ويكملوا المسير سوياً، إن كانت المعرفة وطيدة نوعاً.

في تلك الليلة تقابلت (عائشة) مع (ضحى)، التي تسكن مع والدتها في الشاليه المجاور لمسكن (عبد اللّه) و(عائشة) الصغير، وتتميز بوجهها القمحي الجذاب شديد الجمال، وابتسامتها المعدية. ورغم اختلاف المستوى المادي والاجتماعي للمرأتين الشابتين، إلا أن أشياء كتلك لم تكن عائقاً بين أبناء الطريقة في طريق إقامة العلاقات بينهم، وقد ساعد تقارب سنيهما في تكوين نوع من الصداقة بينهما.وبعد تبادل السلامات والقبلات، مضيتا تسيران جنباً إلى جنب، تتجاذبان أطراف الحديث.

أنا معطلاك عن الاستغفار يا (عائشة)؟

قالتها (ضحى) بمرح يشوبه بعض الحرج لطبيعتها الخجولة فأسرعت (عائشة) تقول:

لأ طبعاً ما تقوليش كدة، ده إنتي كنتي وحشاني واللّه، وأنا كده كنت قربت أخلص

حضرت الدرس النهاردة؟



آه الحمد للّه، كان جميل قوي

عم الشيخ دايمًا كلامه جميل، بينزل على قلب الواحد كده يغسله ويهديه

آه واللّه

على اللّه بس مايكونش الواد (حمزة) قعد يعيط ويعمل غاغة ويزعل عم الشيخ مننا

قالتها (ضحى) ضاحكة فقالت (عائشة) بجدية:

لأ وأنا أقدر! ستر ربنا إنه فضل نايم طول الوقت، بس الواد جه على آخر خمس دقايق يا (ضحى) وقام صاحي، لسه هيفتح جاعورته، قمت بيه جري على بره!

خسارة يعني فاتك الدعاء. دا عم الشيخ دعا النهاردة شوية دعاء يا (عائشة)!

لأ ما أنا سمعته من الشبابيك وأنا واقفة على الباب بره، والحمد للّه صوت الميكرفون عالي وبيوصل، وأمنت معاه وأنا بقول في سري منك للّه يا (حمزة)!

عادت الإثنتان تضحكان قبل أن تقول (ضحى):

أمال هو فين الواد الشقي ده؟ عايزة أشوفه

تنهدت ولوحت بيدها بملل وبشيء من نفاد الصبر وهي تقول:

مع أبوه، قاعدين مع الرجالة، خليه يشيل شوية بقى أنا تعبت

ضحكت (ضحى) مرة أخرى وهي تربت على كتفها برقة مشيرة بعينيها لقدميها الحافيتين وقائلة بإشفاق:

ورجليكي عاملة إيه؟

الحمد للّه أحسن. وإنتي؟ مفيش شعر جديد؟؟

ضحكت بخجل وتوردت وجنتاها وهي تقول:

لأ أصل أ ...

لكنها بترت عبارتها فجأة لتلتفت إليها (عائشة) متسائلة فتجدها تحدق أمامها بوجه جامد وعينين متسعتين.

بها بها بها.بهيا بهيا بهيا.بهيات بهيات بهيات. القديم الأزلي. يخضع لي جميع من يراني

القاهرة (٢٠١٥)



حلقت مشاعر (دنيا) بها في السماء وهي شبه متأكدة أن (صالح) يبادلها نفس الشعور. لم يتكلم، لم يقل شيئًا عن حب أو مشاعر، لكن الكلام العادي بشكل عام بينهما لا يكاد يتوقف، وهي لم تشعر في حياتها بمثل هذا التجاذب والتفاهم مع أي شخص في الدنيا سواه، لم تشعر بشيء كهذا في حياتها من قبل قط، وقد صرح كل منهما بهذا للآخر على استحياء، دون التطرق لموضوع الحب نفسه.

لم تعد اللقاءات بينهما تقتصر على الجامعة فقط، وتطورت تدريجيًا حتى خرجت عن أسوارها، فصارا يتقابلان في أحد المقاهي أو المطاعم القريبة. لقاءات ليست يومية، ولا حتى كثيرة متكررة، بل ومتباعدة أحيانًا، لكنها كانت تحس بعد كل لقاء بسعادة تكفيها عمرًا بحاله، ترى في عينيه سعادة مماثلة، وتشعر أنها ترى فيهما حبًا صامتًا، قتلت نفسها تفكيرًا وبحثًا عن سبب صمته.

ومع ذلك، ترتطم أحيانًا بأرض الواقع، وتتساءل في حيرة، إن كان يحبها حقًا، فلماذا لم يقل شيئًا حتى الآن؟ تكتشف أنهما يتحدثان في كل شيء تقريبًا، وأنه يقول الكثير، ويفصح لها عن طريقة تفكيره وما بداخل عقله، لكنه نادرًا ما يفصح عما بقلبه أو حياته الشخصية، فلا تكاد تعرف شيئًا مثلًا عن أسرته، رغم طول الأحاديث بينهما.



ورغم فضولها، ورغبتها في معرفة الكثير عنه هو بالذات، بغض النظر عن فضولها العام الذي يثيره غموضه بشدة، فهي لم تشأ أن تظهر أمامه بمظهر المتطفلة السخيفة، لذا كانت تحاول أن تجتذب منه الحديث في تلك الأمور بطريقة هادئة لا تزعجه أو تضغط عليه، فهي لا تدري بعد إن كان كتوماً هكذا لأنها طبيعته، أم لأنه يخفي شيئًا ما.

يضايقِك لو دخنت؟

إيه ده إنت بتدخن؟؟

قالتها (دنيا) بدهشة أكبر مما أرادت إظهاره فأطلق (صالح) ضحكة قصيرة خجلى واحمر وجهه قليلًا وهو يقول:

أكيد مادام بسأل

ظلت على دهشتها محدقة في وجهه بصمت فاحمر وجهه وهو أكثر وهو يقول محرجاً:

آسف لو كان السؤال ضايقك

شعرت بالندم لإحراجه فأسرعت تقول:

لأ لأ أنا ما إتضايقتش خالص .. أنا بس مستغربة، ما كنتش أعرف يعنى إنك بتدخن



أنا ممكن ما أدخنش على فكرة لو ده هيضايقك ..
أنا عشان كده بسأل

لم تكن من مشجعي التدخين، لا ترفضه قطعياً لكنها لا تحبذه، ولكنها أيضاً لم تشأ أن تضايقه بأي وسيلةٍ كانت، لذا وجدت نفسها تقول:

لأ أنا مش هتضايق! براحتك عادي

أكيد؟؟

قالها مبتسماً بتردد فهزت رأسها بقوة مبتسمة هي الأخرى، وراقبته وهو يخرج علبة سجائره وقداحته من جيبه ويخرج سيجارة من العلبة ليضعها بين شفتيه ثم يشعلها ويسحب نفساً طويلًا عميقًا.

كنت محتاجها قوي

ابتسمت لتعبير الارتياح والاسترخاء الذي بدا على وجهه وهي تقول:

وكنت هتعمل إيه لو كنت قلت لك إني هتضايق؟

شعرت بسخافة سؤالها وندمت عليه، إلا أنه هز كتفيه وهو يتعمد نفث الدخان بعيداً عنها قائلًا:



عادي ما كنتش هشربها

ضحكت قائلة:

إنت بتعمل كده مع أي حد يقول لك إنه متضايق من الدخان؟

لا مش أي حد

ورغم بساطة قوله للعبارة وكأنها أمر مفروغ منه، إلا أن وجنتيها اشتعلتا خجلًا، فتنحنحت لتسلك حلقها الذي انحشر الكلام فيه قبل أن تقول:

أمال كنت هتعمل إيه؟ مع حد تاني يعني

كنت هستأذن شوية وأروح أشربها بعيد أو في مكان مفتوح

إشمعنى؟ إيه الفرق؟ قصدي..

ارتبكت وهي تشعر باستحالة إلقاء ذلك السؤال بشكل غير محرج فقال هو:

الفرق إن فيه ناس ما أقدرش أقوم واسيبهم عشان سيجارة، لو واحد صاحبي ممكن أقوم وأسيبه شوية عشان أدخن عادي، لكن لو إنتي، لأ تولع السيجارة



لو أنا .. لو أنا بس؟!

انفلت السؤال منها رغمًا عنها وشعرت أنها أوقفت نفسها على خط في دقة الشعرة، كأنه الصراط المستقيم، لا تراجع الآن، فإما أن تهوي في أعماق جهنم وإما ..

آه إنتي بس

هل تبتلع خجلها ولسانها أم تمشي وراء قلبها الذي أوجع صدرها دقًا وتهمس سائلة:

ليه؟

ثبت عينيه في عينيها.

يعني إنتي مش عارفة؟

اتسعت عيناها قليلًا دون أن تشعر وهي تتطلع إليه ذاهلة، لا تدرك درجة الاحمرار التي وصل إليها وجهها، في حين أخرج هو نفسًا طويلًا من الدخان كان محبوسًا في صدره، ببطء، وهو يقول:

عشان أنا بحبك يا (دنيا)



(٥)

سكوتٌ ثم صمتٌ ثم خَرْسُ ..... و عِلْمٌ ثم وَجْدٌ ثم رَمْس

و طينٌ ثم نارٌ ثم نورٌ ..... و بردٌ ثم ظلٌّ ثم شمس

خلاء – تاريخ غير معروف

تعبت ولم أعرف كم مشيت. لفحات الهواء البارد التي كنت أحبها صارت الآن تؤلمني، كأنها تضربني. الرمال التي تنغرس فيها قدمي بدت وكأنها تود تقييدي بها أو سحبي إليها لمنعي من الهرب. حتى الطيور، بدت وكأنها جميعًا تهاجمني، وهي تحوم حولي. نعيق البوم لا يتوقف، وصيحات الغربان تصم أذني، أما الصقور فلا أعرف كيف تفاديت أذاها حتى الآن، ولا أعرف إن كنت قادرًا على المزيد من كل ذلك.

تهاوت مقاومتي عند مجموعة من الصخور، قريبة من بركة مياه تجمعت حولها غربان لا تتوقف لحظة واحدة عن الصياح بذلك الصوت المزعج. مددته بجواري وجلست ألهث في ذلك المكان الكئيب. شردت ببصري في مجموعة من الغربان بدت وكأنها تتعارك وأنا أفكر، يارب، هل لي أن أناديك أو أناجيك الآن؟ أتراه يحق لي أن أطلب منك عفواً مما

فعلت أو مخرجًا مما أنا فيه؟ هل تسعني رحمتك التي وسعت كل شيء؟ أم أنه لم يبق لي الآن سوى عدلك فقط؟

و حَزْنٌ ثم سهل ثم قَفْرٌ .....و نهر ثم بَحْرٌ ثم يَبْس

الخلوة (١٩٧٨)

ورغم أنه البشري الوحيد وسط كل من كل يحيطون به، إلا أن عيني الشيخ (آدم) أول ما طالعت، طالعته هو، وعندما تعلقت، تعلقت به هو، بعينيه على وجه التحديد، عينيه الواسعتين العميقتين، واللتين تجبرانك على النظر إليهما رغمًا عنك.

من أنت؟؟

قالها الشيخ (آدم) بهيبةٍ وصوتٍ خفيض، سمعه هو نفسه بصعوبة، ورغم ذلك فقد أتاه الصوت الرخيم، الذي رآه الآن يخرج من فم الرجل الواقف أمامه قائلًا:

أنا من يتولى الأولياء .. أتلقى حمولهم وأمددهم بما يعينهم على حمل المزيد منها



بدا مهيبًا رغم بساطة مظهره، قوي في حضوره رغم وداعة ملامحه، له بنية ضئيلة وقامة تميل إلى القصر، وجه وسيم حليق وشعر ناعم، صاحب الصوت الذي كان يحدثه طوال ذلك الوقت وسط نور لم يمكنه من النظر إلى وجهه مباشرة، إلا بعد ارتداء تلك العمامة. تأمله وهو يعود ليقول بنفس الصوت الرخيم:

أنا (المتولي)

شيال الحمول

قالها الشيخ (آدم) بأنفاس مبهورة كأنه يسأله، وكأنه يعرفه منذ زمن في ذات الوقت. ابتسم (المتولي) ابتسامة خفيفة أضفت على نور وجهه نورًا زائدًا، وهو يرفع أمام وجهه المسبحة السوداء الطويلة التي انتبه إليها الشيخ (آدم) الآن فقط، والتي لم يعرف متى ولا كيف انتقلت من حجره إلى يد (المتولي) الذي قال:

أما وقد حملت عنك حمولك، فأنت الآن مؤتمن على عمامة (البدوي)، والتي تمنحك من المدد ما لا تمنحه لغيرك، وتمكنك مما لا يتمكن منه سواك. أوله رؤيتك لي، فلا يراني إلا كل ذي عظيم من مدد، وآخره في علمه سبحانه، وما يحصيه من عد ولا عدد



جال الشيخ (آدم) ببصره حوله ليرى كل شيء بهيئته الطبيعية، كل من في الحضرة، قاماتهم القصيرة وتكوينهم الجسدي الشبيه بالبشر، والمختلف عنه في النسب كذلك، إذ كانت السيقان أقصر قليلًا، والأذرع أطول بكثير، وجوههم بيضاء ممسوحة وكأنها بلا ملامح، ويرتدون جميعًا ثيابًا بيضاء. عيني الشيخ مفتوحتان قويتان، قادرتان على رؤية كل هذا بأدق تفاصيله، تفاصيل لم يكن قادرًا على رؤيتها من قبل، بل إنه شعر أن حدة نظره قد ازدادت قوة ليرى الدنيا كلها وكأنها أكثر وضوحًا في كل شيء، وليس في الأشياء الظاهرية فقط.

عمامة (البدوي) تمنحك من القدرات ما لا يخطر على بالك، أكثر مما تظن أنها تمنحك الآن، لكنها أمانة، أمانتك أنت، فحتى وإن ارتداها غيرك، وإن منحته بعض المميزات، لن تكون بذات القدر الذي تكونه معك، فمدد الأولياء لا يتحمله إلا ولي

وهل لي أن أترك غيري يرتديها وهي أمانة؟

لك أن تفعل بها ما شئت، شرط أن تردها إليّ لأحملها عنك مرة أخرى قبل أن توافيك المنية، وإلا..

شعر الشيخ (آدم) أن عيني (المتولي) الواسعتين أصلًا قد ازدادتا اتساعًا بشكلٍ مخيف، أما صوته،



فلم يعلو على الإطلاق، ورغم ذلك فقد صارت له نبرة وعيد رنت في أذنيه كالرعد وهو يقول:

ستنقلب كل ذرة من مدد منحتها لك العمامة إلى جمرة من لهب تتقلب عليها في قبرك إلى يوم الدين

كد كد.كردد كردد.كرده كرده.ده ده.ده.ده ده

عدن (٢٠١٥)

نظرت (عائشة) لحيث تنظر (ضحى) ثم عادت تنظر لوجهها المتجمد بحيرة قبل أن تقول:

فيه إيه يا (ضحى) مالك؟

ظلت (ضحى) على صمتها لثوانٍ قبل أن ترفع إصبعًا مرتجفًا مشيرة إلى شيءٍ ما أمامهما، وتتساءل بصوتٍ خفيض كأنما تخشى أن يسمعها أحد:

ده ديب ده ولا إيه؟؟

ديب؟! هي المزرعة عاد فيها ديابة؟؟ مش كان زمان الكلام ده وهي صحراء قبل ما يبقى فيه سور وعمار؟

طب كلب يمكن؟

فين ده؟؟!

بدت وكأنها لم تسمعها وقد غزا صوتها شيء من الخوف وهي تقول كأنما ترد على نفسها:

بس كلب إيه اللي بالطول ده؟!

للمرة الثالثة تنظر (عائشة) للأفق المظلم مجيلة عينيها فيه فلا ترى شيئًا، وتحدثها نفسها أن (ضحى) تختلق كل هذا لتداعبها، لكنها تشعر أنها دعابة ثقيلة نوعًا لأن الخوف في وجهها وصوتها يبدو طبيعيًا إلى درجة تكاد تنقله إليها. راحت تنقل بصرها بين وجهها وما تنظر إليه منتظرة أن تراها تنفجر ضاحكة فجأة وقد دفعتها حيرتها إلى السؤال بعصبية:

يا بنتي إنتي شوفتي إيه بالضبط؟؟

..عينين

عينين؟؟ عينين مين؟!

عينين كبار وبيلمعوا جامد .. كأنهم بينوروا .. ظهروا بسرعة واختفوا تاني



فين؟؟

هناك .. عند النخلة المايلة دي

طب ما يمكن كلب زي ما بتقولي

لأ ده مش طول كلب .. ده طول بني آدم

شعرت (عائشة) ببرودة خفيفة تغزو أطرافها وقد بدأ خوف (ضحى) ينتقل إليها فعليًا لكنها حاولت نفضه عن نفسها بإطلاق ضحكة عصبية قصيرة وهي تقول:

يا شيخة! عينين إيه وبتاع إيه؟ أكيد بيتهيألك. قال يعني نظرك ستة على ستة قوي. إعدلي بس الشوافة دي كده وإنتي تلاقي إن مفيش عينين ولا حاجة

أنهت عبارتها بأن داعبت طرف نظارة (ضحى) التي ضحكت بدورها بعصبية وهي ترفع النظارة التي انزلقت قليلًا على قصبة أنفها قبل أن تقول فجأة كأنها اكتشفت أمرًا:

يكونش حد لابس نظارة والإضاءة انعكست عليها؟!

هو كده أكيد! شوفتي بقى خوفتيني وخوفتي روحك على الفاضي إزاي؟! كله من القصص العجيبة اللي بتقريها دي، ماله الشعرا ماهو حلو

قالتها ضاحكة بقليل من الارتياح هذه المرة فجاوبتها (ضحى) بضحكة قصيرة هي الأخرى وهي تقول:

والروايات دي حلوة برض، واللّه، لو قريتيها هتعرفي

لأ ياختي شكرًا مش عايزة أعرف. أنا ناقصة! ده أنا بخاف من خيالي

عادت تضحك لكن عينيها انزلقتا رغمًا عنها ثانية إلى موضع النخلة المائلة كأنها ترغب في التأكد أنه ما من شيءٍ هناك فعلًا، لتلكمها (عائشة) التي لاحظت ذلك مداعبة وضاحكة وهي تقول:

يا بت بطلي بقى خايفة من إيه؟! شيء للّه يا عم الشيخ! هو المكان ده تستجري حاجة وحشة تقرب له؟!

أطاحت ذكرى الشيخ (مصطفى) بمعظم الخوف بداخل (ضحى)، إن لم يكن كله. عجيب أمر هذا الرجل، الحديث عنه فقط يطمئنها بشكلٍ غريب، كأن ذكرها له يستحضر روحه التي تربت عليها



بثقة وإن لم يكن موجوداً بجسده معها. شعرت فعلًا أنها حمقاء كي تخاف وهي في رحاب أرض يمتلكها ولي من أولياء اللّه، سمعت الكثير عن كراماته وعجائبه.

لكن أفكارها تلك تجمدت فجأة مع كامل جسدها بطريقة جعلت كل شيء فيها يتوقف بغتة. عيناها توقفتا عن الرمش، أطرافها توقفت عن الحركة، حتى قلبها شعرت أنه توقف عن الدق. وجدت نفسها تبذل مجهوداً نفسيًا عنيفًا فقط لتدير رأسها نحو (عائشة)، التي لن تصدقها حتماً كما في المرة السابقة، كأنها ترغب في الاستنجاد بها. لكنها حين استدارت لها فعلًا، وحين التقت أعينهما أخيراً، وجدتها (ضحى) تحدق فيها بعينين متسعتين بشدة، وفيهما من الرعب ما يكاد يفوق رعبها هي.

أعوذ بكلمات اللّه التامة، من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون.

القاهرة (٢٠١٥)

تمر على الكثيرين لحظات يشعرون فيها بسعادة لم يحلموا بها، وأخرى لم يتخيلوا وجودها في الدنيا أصلًا. هذا بالضبط كان إحساس (دنيا)، في



كل لحظة من لحظات حياتها التي تلت اعتراف (صالح) بحبه لها.

لم تحسب نفسها يومًا من المحظوظات في هذه الدنيا، بل كثيرًا ما شعرت أن حظها قليل جدًا، أقل على الأقل من أغلبية أقرانها، لكنها الآن تشعر وأنها فهمت لما كان كل ذلك، لأن الحظ كان مختزنًا لها مع (صالح)، معه حصلت على نصيبها الكامل منه، وربما أكثر قليلًا.

لم تفهم كيف هو شبه كامل في عينيها هكذا، وكلما ألقت عليه عبارات الإطراء الخجلى متغنية به، تجده هو يحمر خجلًا أكثر منها، ويشيح بوجهه وهو ينفي الأمر عن نفسه بشدة كأنه تهمة، لتجد نفسها مجبرة على الانبهار أكثر بتواضعه.

يا (دنيا) ما من كامل سواه سبحانه

قالها مشيحًا بوجهه كعادته وهو ينفث دخان سيجارته فقالت هي بعناد طفولي:

وأنا ما قلتش كامل، أنا قلت شبه كامل

ضحك رغمًا عنه رغم ظهور القليل من الضيق في وجهه قبل أن ينظر لها مبتسمًا ويقول:



تسلم لي على المجاملة الرقيقة دي

بس دي مش مجاملة خالص على فكرة

قالتها بجدية لم يملك معها إلا أن يضحك ثانية وهو يقول:

خلاص بقى!!

أنا بقول اللي أنا شايفاه

أرخى عينيه وهو يطفئ سيجارته في المنفضة الصغيرة أمامه على طاولة المقهى الذي يجلسان فيه، واكتسى وجهه هو بالجدية هذه المرة وهو يقول:

واللي إنتي مش شايفاه؟

يعني إيه؟

يعني فيه حاجات كتير إنتي ما تعرفيهاش عني

مش هتأثر في رأيي فيك، لأن كل شيء نسبي، وبما إن مفيش حاجة أو حد كامل فعلًا زي ما إنت بتقول، يعني مفيش شيء مطلق، فلو أخدنا الحاجات اللي أعرفها عنك كعينة، وحسبنا نسبة



الحاجات الحلوة اللي فيها هي بس، هنلاقي النسبة دي عالية جداً، وتقترب فعلًا من الكمال

لم يتمالك نفسه من إعجابه بذكائها في الرد فانطلقت منه ضحكة خافتة وهو يقول:

إنتي متعبة قوي يا (دنيا)

زمت شفتيها في عنادها الطفولي الذي تحول رغمًا عنها كعادتها لابتسامة انتصار مرحة، حاولت إخفاءها مشيحة بوجهها عنه كي لا يراها، فهي تعرف أن جملته تعني أنها انتصرت، لكنها لا تعرف كيف يملك تلك القدرة الغريبة على تحويل أي شيء يقوله لها إلى إطراء يسعدها وإن بدا ذمًا في ظاهره. أما هو، فقد ثبت عينيه في عينيها وهو يقول بخفوت مبتسمًا:

لكن حلوة .. حتى وانتي متعبة حلوة

خفق قلبها بشدة ليضخ الدم في وجنتيها ويزيدهما احمرارًا، كأنها تعمدت أن تزداد جمالًا حين أثنى على جمالها. أما هو فقد عاد يقول:

بس أرجوكي، بلاش إنت كامل أو حتى شبه كامل دي، عشان بجد بتضايقني



لمست ضيقًا حقيقًا في صوته ووجهه حيرها وكاد يمزق قلبها خاصة وهي السبب فيه، ووجدت نفسها تتساءل بأسف:

ليه طيب؟

خيل لها أن عينيه التمعتا وهو يشيح بوجهه المتصلب بعيداً. نبض عرق في جانب وجهه وكأنه يضغط على فكه بقوة. قبضته المضمومة على الطاولة أمامه ارتجفت، وجعلتها ترغب في مد يدها كي تربت على يده. مرت ثوانٍ كالساعات، بدا خلالها وكأنه يحاول السيطرة على نفسه، وإن لم يتغير في وجهه الكثير، لكنها كانت تحفظه أكثر مما يظن، تعرف كل حركاته وسكانته، وتعرف أنه عانى حتى استعاد هدوءه وهو يقول:

عشان كلامك عن كمالي بيفكرني دايمًا بنقصي

اتسعت عيناها باستنكار وهي تهتف قائلة دون تفكير:

إنت! إنت مفيش فيك أي نقـــ ...

ابتلعت لسانها وباقي عبارتها وهي تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها هي كلها لأنها تركت ذلك اللسان كعادتها على حريته، دون أن تفكر فيما



سينطق به أولًا. ملأ الجزع وجهها وهي تراه يلتقط علبة سجائره بهدوء ليخرج منها واحدة دون أن ينبس ببنت شفة، ودون حتى أن يرفع لها عينيه التي تقطب حاجبيه قليلًا فوقهما. فهتفت وهي تكاد تبكي:

أنا آسفة، مش هقول لك كده تاني واللّه، بس والنبي .. والنبي يا (صالح) ما تزعل مني..

مر صمت بدا فيه وكأنه لم يسمعها أصلًا، دس السيجارة بين شفتيه وأشعلها ليسحب نفساً عميقاً حبسه في صدره طويلًا ثم نفثه في زفرة حارة، غير ناسٍ أن يوجهه بعيداً عنها. أخيراً قال وهو بعد لم يرفع عينيه لها:

ما تعتذريش عن حاجة إنتي ما غلطتيش. المشكلة مش فيكي إنتي خالص .. المشكلة فيا أنا

برفق كأنما تهدهد طفلًا قالت:

كلنا فينا مشاكل

التوى فمه بابتسامة حملت سخرية مريرة وهو يقول:



بس أنا مشاكلي كبيرة شوية .. وكتير

أنا عندي مصايب مش مشاكل، طب والمصحف لو عرفتها لترميني من هنا!

قالتها وهي تشير للشرفة الملحقة بالمقهى فنظر لحيث أشارت بطرف عينه ولم يبدُ على وجهه أي تغيير لثوانٍ قبل أن يبدأ في الانفراج بالتدريج في ابتسامة خفيفة أعادت الحياة لقلبها وهي ترى ابتسامته تتسع لتصبح ضحكة رقص معها قلبها، خاصة حين نظر لها أخيراً وهو يقول:

لأ ما تقوليش على نفسك كده إنتي زي الفل. فيكي بس مشكلة واحدة .. لأ إتنين

بفضول حقيقي سألت:

إيه هما؟؟

إنك بتحلفي بغير اللّه كتير، ومن حلف بغير اللّه فقد أشرك

لأ ما هو مـــــ...

قاطعها مبتسماً وهو يقول ببساطة:



أنا عارف إن نيتك سليمة وإنه مش قصدك، بس معلش بلاش أحسن

بدت وكأنها ستقول شيئًا ما لكن عقلها سبق لسانها تلك المرة لحسن الحظ فآثرت الابتعاد عما يمكن أن يعكر صفو اللحظة التي صفت بصعوبة أصلًا منذ قليل، وفضلت أن تسأل مبتسمة:

والتانية؟

إنك فاكرة إن فيه مشاكل، أو مصايب، أو أي حاجة في الدنيا، ممكن تغيرني من ناحيتك

أنت بين الشغاف والقلب تجري .....مثل جري الدموع من أجفاني

خلاء – تاريخ غير معروف

أهلت التراب عليه وأنا أراه يختلط بالدماء الجافة على وجهه الشاحب الذي راح يختفي تدريجيًا، وأنا أبكي. سويت سطح القبر وبحثت عن صخرة كبيرة أرشقها عند موضع الرأس. انتهيت لأجلس ذاهلًا والدموع تسيل على وجهي فلا أشعر بها. رفعت عيني للسماء وأنا أفكر، يا رب، كيف لم أدرك أنك تراقبني طوال الوقت؟ كيف أحسبني أخبئ ذنبي



عنك وإن دفنته تحت التراب؟ أو نفسي وإن دفنتها معه؟

و أيّ أرض تخلو منك حتّى .....تعالوا يطلبونك في السماء

عدن (٢٠١٥)

لم تدر أيّا من (ضحى) و(عائشة) كم مر عليهما من الوقت وهما صامتتان، متجمدتان في مكانهما، متجمدتان فعليًا لا معنويًا فقط، تنظر كل واحدة منهما للأخرى منتظرة أن تتكلم هي، فكلاهما لم تعرف ماذا تقول، وكيف ستقوله، وهل إن قالته تكون قد أثبتت وقوعه فعلًا. لكن ما الذي وقع، وما الذي حدث؟ كيف تشرح أي منهما للأخرى شيئًا هي نفسها لا تفهمه؟

إنتي شـ ..شوفتي؟ .. حسيتي؟؟

قالتها (عائشة) أخيرًا وقد كانت أول من أوتيت القدرة على الكلام، تسأل وكأن السؤال سيخفف من وطأة ما حدث بشكلٍ ما، كأنها لا تعرف إن كانت قد رأت ما رأته فعلًا، وتريد من (ضحى) أن تنفيه هي لها، لترد الأخيرة:

إنتي .. أنت شوفتي إيه؟؟!



ظل التساؤل المخيف معلقًا يتأرجح بينهما. أرادت (عائشة) أن تستمد أي قوة من أي كائن حي وإن كان من تشاركها فزعها، ولا تزيد عنها قوة في شيء، لتمد يدها وتلتقط كف (ضحى)، وتتساءل إن كان مثلجًا هكذا بفعل الخوف أم ..

هبة هوا .. بارد قوي و ...

لم تستطع أن تكمل ولا أن تقول أكثر من هذا وهي تشعر أنها تكاد تبكي وتفقد وعيها. نظرت إلى (ضحى) في توسل كي تكمل هي، كي تؤكد أو تنفي لها ما رأته وتخشى مواجهة نفسها به.

شفت .. شفتيه؟؟؟

هربت الدماء من وجهها حين سمعت السؤال الذي أكد لها كل مخاوفها، أن ما رأته لم يكن من تخيلها، وأنها فعلًا شعرت بمرور شخص، أو شيء، من بينهما، مصحوبًا بهبة ريح غريبة، مثلجة بطريقة لم تشعرا بها في حياتهما من قبل. ريح مفاجئة اختفت كما هبت فجأة، كأنما نفخها شيء عملاق في مواجهتهما تمامًا، كأن من مر من بينهما قد جلبها معه أثناء مروره فقط، أو كأنه هو تلك الريح نفسها.

لكن كل هذا، على غرابته وإفزاعه، لم يكن أسوأ ما في الأمر.

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا

طنطا (١٩٧٩)

حكى الصبي للرجل عن كل شيء تقريبًا. أفرغ ما بداخله على هيئة كلام حين جفت دموعه تمامًا. لا يدري لم انحلت عقدة لسانه معه هكذا. أهو الضغط الهائل الذي تعرض له وفاق قدرته الصغيرة على الاحتمال؟ أم شيء في الرجل نفسه، في عينيه، وطريقة إنصاته؟ لا يعرف لِمَ وثق به، لكنه قرر اتباعه لسببٍ ما.

حمل الرجل القفص عنه ليزيحه عن مدخل المسجد ويتركه على جانب الطريق، أخذ يده وقاده برفق إلى دورة مياه عمومية قريبة ليغتسل هو من أثر العراك، ويتوضأ كلاهما توطئة لأداء صلاة المغرب، التي عادا من أجلها إلى المسجد مرة أخرى.

لم يصدق الصبي نفسه وهو يخلع نعليه ويدخل أخيرًا إلى المكان الذي بكى على بابه منذ قليل. ولسبب ما لم يعد يذكر ما كان يبكيه ويمنعه من الدخول أصلًا، أو ربما لم يعد يهتم. القفص ملقى



على جانب الطريق يعبث به من يشاء إن وجد، وهو لا يجد نفسه مهتمًا أو حزينًا أو حتى خائفًا، لا يجد في نفسه ذرة تعب واحدة رغم إنهاكه الذي جعله ينهار حرفيًا منذ قليل.

لم يكن في تلك السن يعلم من هو (البدوي)، ولا حتى أن هذا ليس اسمه الحقيقي، بل لقب منح له لتلثمه الدائم كأهل البادية، أنه من نسب (الحسين) – رضي اللّه عنه، وأنه أحد أقطاب الولاية الأربعة، وربما ما كان ليهتم كثيرًا لو عرف وهو بعد صغير هكذا، لذلك لم يكن انبهاره وارتياحه بالمكان نابعًا من أي شيء سوى شعوره القلبي فقط.

انتهت الجماعة ليقوم الرجل مؤديًا بعدها ركعتين إضافيتين قدر الصبي أنهما سنة. ابتسم له بعد التسليم في صمت وشفتيه تتمتمان بشيءٍ ما، وشعر الصبي أن وجهه يكاد يضيء بشكلٍ ما مع ابتسامته تلك، وهو ينهض ببطء مشيرًا له أن يحذو حذوه، ويتبعه إلى المقام.

تضاعف شعور السكينة داخل الصبي مع كل خطوة نحو هيكل الضريح المذهب بأنواره الخضراء المريحة، شعر أن قدميه لا تكادان تمسان الأرض، بل يحملهما نسيم هادئ لا يدرك له مصدرًا محددًا، معبق برائحة حلوة ازدادت قوة مع اقترابه، حتى



وصلت لذروتها حين التصق بالضريح ومد يديه ليلمس معدنه البارد المصقول، يحمل على سطحه طبقة زيتية رقيقة قدر أنها مصدر الرائحة، شديدة الشبه بتلك التي فاحت من يد الرجل حين مست وجهه.

تذكر ما كانت تقوله له أمه في زياراتهما في السابق، أن يقرأ الفاتحة ويدعو اللّه بما شاء. ألصق رأسه بالمعدن البارد منفذاً الوصية، مالئًا صدره بعبق الرائحة الحلوة، لكنه حين انتهى من التمتمة بالفاتحة، تلجلج واحتار قليلًا وهو لا يعرف ماذا يقول أو يفعل بعدها. حانت منه التفاتة للرجل الطويل بجواره، كأنه يبحث عنده عما يزيل حيرته ليقلده ببراءة طفولية فيما يفعل، أو يردد معه ما يقول وإن لم يفهم معظمه، كما كان مع أمه.

لدهشته وجده صامتًا تمامًا، وشفتيه اللتين كانتا تتحركان بلا صوت بعد الصلاة قد انطبقتا على بعضهما البعض.زادت دهشته وهو يتساءل بداخله ان كان يشعر بنفس حيرته ولا يدري هو الآخر ما يقول، على عكس أمه التي كانت تبكي وتدعو بصوتٍ مسموع. لكن وجه الرجل لم يعكس أي نوع من الحيرة، بل بدت على وجهه نظرة غريبة كأنها نوع من الشرود، أو كأنه يتطلع إلى شيء أو شخص ما داخل المقام، يحدثه بلا صوت.



خرجا أخيرًا من المقام إلى هواء الليل الذي شعر الصبي أنه لم يرتطم بوجهه وجسده الخفيف أي شيء أفضل منه. دَسّ الرجل يده في جيبه وهو يسأله عن ثمن تقديري أو تقريبي لكل ما كان في القفص منذ خرج به، نظر له الصبي في البداية بدهشة ثم ما لبث أن أجاب بخجل وتردد، وشيء من التساؤل، لتخرج يد الرجل حاملة مبلغًا كبيرًا من المال، يفوق ما قدره بكثير و ..

قل لوالدك أنك بعت القفص بما فيه، وقابلني هنا وقتما تحب



(٦)

يا ويحَ روحي من روحي فوا أسفى .....عليَّ منّي فإنّي أصل بلوائـي

جبل قاسيون – تاريخ غير معروف

لم يتغير المشهد عما كان منذ وقت طويل مضى، كذا فكر وهو يدخل المغارة، لا يبدد ظلامها إلا قليل من أشعة الشمس الغاربة، ولا يكسر سكونها إلا صوت تقطر المياه الرتيب. مر على الجدران بيديه متذكراً، فشعر أنها تتذكره كذلك، وأن تحسسه لها يؤلمها أكثر مما يؤلمه، آثار ما حدث قديماً ما تزال عليها وعلى كل شيء حوله، وكل ما حوله بدا له وكأنه يصرخ متألماً غاضباً في صمت. مضى نحو الماء المتقطر من السقف كعين تبكي، اغتسل من مائها البارد العذب فشعر أن له طعم الدموع في جوفه. أنهى اغتساله ثم هبط بهدوء على ركبتيه على الأرض، ورفع يديه يناجي اللّه.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ

رؤيا – فيما يرى النائم



((في مقام البتول طير يغني .... وغناء الطيور يشجي الثمالى))

الليلة الكبيرة، المولد، الساحة الداخلية للمسجد خارج حجرة المقام، شدة الازدحام لا تكاد تترك موضعاً لقدم تمشي وقد اكتظ المكان عن آخره بالزائرين والمصلين والمريدين، والكثير ممن لا يمكننا ولا يعنينا كثيراً إحصاءهم، فبؤرة اهتمامك الآن هي الحضرة التي بدأت للتو أسفل المنبر و ..

((قال لى شيخنا قطب الوقت قولاً .....لذ بروض الحسين ترتاح بالا))

تزامن إنشاد القصيدة مع تصفيق منغم، مصحوب بكلمة (اللّه)، قوية كأنما تخرج من الأرواح لا الأفواه، تختلج بها الأصوات فيختلج بها قلبك رُغماً عنك وهي تختلط بدقاته، ولا تدري إن كان جسدك يتمايل هكذا بإرادتك، أم يهتز طرباً بالذكر رغماً عنك.

((وتذلل ولازم الذكر حتى .....تسمع الرد يا متيم تعالَ))

تشعر أنك تدريجياً تدخل إلى عالم آخر غريب، وتتركه يسحبك معه. جسدك كله الآن يذكر اللّه، لا لسانك فقط، يتفكك لذرات كالنمل فتشعر أنك



خفيف بلا وزن، وكأن روحك انفصلت عنه لترتفع بك إلى أعلى.

((وادخل الروض خاشعًا فى وقارٍ .....واجل الروح والفؤاد امتثالا))

لكنك لا تعرف لِمَ تشعر أن شيء ما خطأ، كأن صحن المسجد الكبير يبدو أضيق، والمريدين في الحضرة، كأن هالة من النور أحاطت بهم لتخفي ملامحهم، وتكسو ملابسهم جميعًا بلون أبيض.

((فدخلت المقام طوعًا لشيخي .....وارث المصطفى حقًا لا جدالا))

وما بين اللمحات التي تلتقطها وسط تزايد سطوع الضوء الذي كاد يعميك، تشعر وكأنك لا ترى لهم وجوهًا أصلًا، وترى أجسادهم غريبة وكأن في تكوينها أو نسبها خطأً ما.

((وسمعت النداء من سبط طه ..... فطلبت الوصال والقرب حالا))

تتعلق عينك فجأة بنقطة تجد نفسك تدقق فيها رغمًا عنك، واحد من الذاكرين وسط الحضرة، يرتدي سوادًا يظهره بشدة وسط بياضها، كهيئة عامة



لم تتبين ملامحها بعد، لكنها على الأقل، على عكس كل من يحيطون به، هيئة آدمية.

((وشربت المدام من كف شيخي ....أسكرتنى المدام سكراً حلالا))

يزداد تدقيقك في الرجل فتشعر كأنك تعرفه لكنك نسيته، كأن اسمه ينزلق من على طرف لسانك كلما حاولت تذكره، لكن هذا الرجل ليس..! فجأة يرفع كل من في الحضرة وجوههم نحوك فتشهق بلا صوت، تشعر أنك تختنق، تتسمر في مكانك وأنت تنظر لوجوههم الممسوحة الخالية من أي ملامح، بلا أي قدرة على الحركة أو التنفس.

((من له فى الرجال شيخ كشيخي .....منحة اللّه قد حاز الكمال))

صوت التصفيق يزداد سرعة وحدة، وكلمة (اللّه) يكاد ينخلع لها قلبك من قوة دقها فيه. عينا الرجل تحدقان فيك من على بعد لكنك تراهما بوضوح غريب كأنه يقف أمامك، وجهه يبدو هادئًا طبيعيًا وهو يسير متقدمًا نحوك ببطء، ليس في عينيه أي تخويف أو تهديد، ورغم ذلك، فهو آخر من ترغب في أن يقترب منك.



من له فى الرجال شيخ كشيخي .....سهمه فى العزول ينفذ حالا

القاهرة (٢٠١٥)

هو أنا ينفع أسأل سؤال رخم؟

ضحك (صالح) كعادته من أسئلة (دنيا) المضحكة التي تلقيها بطريقة تضحكه أكثر من الأسئلة نفسها أحيانًا، وتجعلها هي تحمر خجلًا بشدة، ولا تكف أو تحجم في نفس الوقت عن إلقائها.

يعني أنا لو قلت ما ينفعش هتعملي إيه؟

عادي مش هسأل

حاولت تمثيل عدم الاكتراث كعادتها وهي تعلم مسبقًا أن كل محاولاتها للتمثيل عليه تبوء دائمًا بالفشل، في حين قال هو بجدية:

عادي فعلًا، وشك بس هيفضل يحمر كدة لحد ما يبقى بنفسجي وتطلعي دخان من ودانك زي الكارتون

نظرت له بدهشة لثوانٍ وكأنها لم تفهمه قبل أن تضحك فجأة كالأطفال ليجاوب هو ضحكتها بأخرى مماثلة وهو يقول:



إسألي إسألي

هدأت من ضحكها قليلًا وارتسمت جدية حقيقية على وجهها وهي تقول:

من غير زعل؟

أجاب مبتسمًا بدبلوماسية:

لا ما أقدرش أوعدك بيها دي، لكن أوعدك إني هحاول

فتنحنحت قائلة:

هو والدك مش متضايق إنك بتدخن؟

في سرها لعنت (دنيا) سؤالها الذي جعل وجهه يتجهم قليلًا لكنها عادت وحمدت اللّه أنه عاد لطبيعته بعدها بثوانٍ وإن لم يبتسم وهو يجيب بجدية:

معرفش

ما تعرفش إزاي؟! هو إنت ما قلتلوش؟؟

لأ



ولا هو شافك قبل كده؟

برضو لأ

إنت مخبي عليه عشان عارف إنه هيتضايق يعني؟

لأ أنا مش مخبي حاجة

طب ووالدتك؟؟

نفس الكلام

إزاي وانت عايش معاهم في نفس البيت؟!

أنا مش عايش معاهم، أنا عايش لوحدي

لوحدك خالص؟! ليه؟؟

لأن أهلي كلهم ماتوا من زمان

زادنى سادتى وقوفى لديكم .....انكسارًا وذلة وانعزالا

خلاء – تاريخ غير معروف

كنت أعلم أن عقابي على ذنبي لا بد وأن يكون عظيمًا بقدره، وأعلم أنني أستحقه وإن كنت لا



أتحمله. لم أفرق بين عرقي ودموعي وهما يختلطان ليسيلا بغزارة على وجهي، والشمس تتبعني لتحرقني أشعتها أينما أدرته.

و عاقبوه على ما كان من زَلَل .....و أبدلوه مكان الأُنْس ايحاشا

طنطا (١٩٧٩)

لولا أنه خشي أن يخرجها من جيبه كي لا يسرقها منه أحدهم، لأخرج الصبي النقود التي أعطاها له الرجل ليعدها ويتطلع لها بذهول طوال رحلة عودته إلى البيت. سرح في عبارته الأخيرة الغريبة، التي بدا وكأنه اختفى بعدها. كيف سيعرف الوقت الذي سيختاره هو لمقابلته عند المقام؟ هل يقيم عنده أو بداخله مثلًا؟ هل هو أحد خدامه أو مجاذيبه؟ لكن لا يبدو من هيئته أنه هذا أو ذاك، فما هو سر ذلك الرجل الغريب؟

من أراد لنا سوءاً أهلكه اللّه، همسًا همسًا، لمسًا لمسًا، لموسًا لموسًا، مأمونًا مأمونًا

عدن (٢٠١٥)

أسوأ ما في الأمر كان ما تأكدتا منه الآن وقد رأته الإثنتان بأم أعينهما، (عائشة) للمرة الأولى،



و(ضحى) للمرة الثانية. هل كان خوف (عائشة) أكبر من خوف (ضحى) بحكم أنها رأت تلكما العينين للمرة الأولى دون أي تأهب نفسي لذلك سوى ما سمعته فحسب، ولم ترغب في تصديقه؟ أم أن ما حدث في المرة الثانية ما كان ليجدي معه أي تأهب كالذي حدث مع (ضحى)؟

ذلك لأن العينين لم تظهرا وتختفيا هذه المرة على بعد عند النخلة المائلة كالمرة السابقة، بل إنهما ظهرتا هناك بالفعل، لكنها ظلتا تقتربان، أو تتضخمان بسرعة، حتى احتلتا المساحة البصرية الكاملة لكل من المرأتين المذعورتين، لتختفيا بعدها فجأة، هما وهبة الهواء الباردة التي اختفت كما ظهرت بالتزامن معهما. وكل هذا لا يعني إلا شيئًا واحداً ..

أنه، بسم اللّه الرحمن الرحيم، كان هناك شيء بالفعل يقف عند النخلة المائلة .. وأن ذلك الشيء، والعياذ باللّه، قد مر من بينهما.

ودونما اتفاق، راح لسانا المرأتين يتلجلجان بما جاد به عقليهما في ذلك الوقت من أدعية وآيات، لا يعرفان أيرفعانِ صوتيهما بها لإخافة وإبعاد أي شيء عنهما، أم يخفضانه كي لا ينتبه شيء قد يكون غير منتبه لهما من الأساس.



لكنهما، وسط تمتماتهما تلك، فكرتا في نفس الشيء أيضاً دون اتفاق، وكأن الخوف وحد أفكارهما وأفعالهما بشكل ما، وإن كانت إحداهما أسرع قليلًا في التفكير في ذلك الاحتمال المخيف، فإن الفارق لم يكن كبيراً جداً على كل حال، ليطرق عقليهما نفس التساؤل في نفس الوقت تقريباً.

لو أن الشيء الذي كان واقفاً أمامهما، قد مر من بينهما .. فأين هو الآن؟؟!

طهُورٌ بِدْعَقٌ مَحْبَبَهٌ صُورَةٌ مَحْبَبَهْ سَقْفاطيسْ سقاطيمٌ أحُونٌ ق أدُمٌ حَمٌّ هاءٌ آمين

القاهرة (٢٠١٥)

من شدة وقع الصدمة عليها، لم تتمكن (دنيا) من الكلام ولا حتى البكاء، قهراً من غبائها على سؤالها الذي أوصلها لمعلومة كهذه بطريقة كتلك، وغيظًا من جهلها التام بالمعلومة نفسها أصلًا، والأهم من هذا كله، البكاء شفقة على محور الموضوع نفسه، (صالح)، الذي فقد أهله جميعاً و .. من زمان!

ظلت على صمتها وصدمتها مشلولة التفكير لبرهة تتطلع إليه وهو شارد ببصره نحو نافذة المقهى الكبيرة وقد تقطب جبينه قليلًا كأنه



حزين أو غاضب، أو يبعد عينيه عنها عمداً، إلى أن قال:

أنا عايز أقوم من هنا

وصلت دموعها إلى عينيها أخيراً وهي تقول:

..أنا آسفة

بدا على وجهه شيء من التعجب الذاهل وهو ينظر لها كأنه لا يفهم ما الذي تفعله بالضبط وهو يقول:

آسفة على إيه؟؟

إني فكرتك بالموضوع و .. خليتك عايز تقوم

إنتي بتعيطي ليه؟! وموضوع إيه؟؟ أنا عايز أقوم أغير مكاني عشان الشمس جاية في وشي مضايقاني وجايبة لي صداع

كان دورها هي هذه المرة كي تتعجب وتتتساءل بحيرة وهي تراقبه يغير موضعه:

أنا افتكرتك هتقوم تمشي خالص عشان .. عشان أنا جيبت سيرة الموضوع يعني و..



أمشي خالص إيه يا شيخة دا إحنا لسه قاعدين!

قالها مداعبًا وهو يستقر في جلسته لتضحك هي قليلًا رغمًا عنها وسط دموعها التي لم تتوقف بالكامل بعد، ثم أضاف:

وإيه يعني لو جيبتي سيرته؟ وإنتي كنت تعرفي أي حاجة عنه يعني؟ وحتى لو تعرفي، ده أمر واقع إنتي مالكيش أي ذنب فيه، وحصل من زمان جداً

تبع عبارته بأن أخرج عدة مناديل شديدة الترتيب والتطبيق من جيبه، ناولها إياها وهو يعود ليقول برقة:

إمسحي دموعك بقى وبطلي عياط

تناولتها شاكرة لتمسح وجهها وهي تقول:

أيوة بس .. كان لازم آخد بالي إنك ما بتجيبش سيرتهم خالص تقريبًا، وأنا بغبائي بقعد أحكي لك طول الوقت عن أهلي، وراحوا وجم وعملوا وسووا! من غير أي مراعاة ل..

قاطعها قائلًا:

(دنيا)، كفاية تأنيب في نفسك بقى إنتي ما غلطتيش. وبعدين من قال لك إن اللي بتحكيه عن



أهلك بيضايقني؟ بالعكس، أنا أحب أعرف عنهم كل حاجة .. مش هما أهلي برضه؟

قال الجزء الأخير من عبارته بطريقة جعلت قلبها يختلج بعنف وهي تتمنى أن تنهض فجأة وتندفع نحوه محتضنة إياه بعنف ومقسمة له أن:

طبعًا!

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيه وفي عينيه التي سرحت فيهما قبل أن تنتشل نفسها منهما خجلًا لتقول ضاحكة:

هو إنت خلاص عرفت عنهم وعني كل حاجة تقريبًا، تاريخنا كله .. الحاجات المهمة يعني

ضحك دون رد فعادت هي وتنحنحت قبل أن تستدرك:

ما عدا حاجة واحدة، أو .. كام حاجة كده صغيرين، بس مهمين .. بالنسبة لي على الأقل

ضيق عينيه قليلًا وهو ينظر لها بتساؤل مبتسم فأضافت:

هي حاجات .. خاصة، لأ يعني .. مش أي حد يفهمها .. أنا قصدي إنه..



ارتبكت وهي تشعر أنها لا تضف شيئًا بإضافتها، وربما تثير تساؤلاته أكثر، أو تهينه، ليقاطعها هو مبتسمًا بهدوء وهو يقول بتفهم:

كل عيلة فيها حاجات خاصة ما ينفعش أي حد يعرفها مهما كان قريب. ومادام الموضوع ما يخصنيش يبقى ده عادي وحقك

لأ هو مش سر، بالعكس، دي حاجة كويسة، وهقولها لك أكيد، عايزة أقولها لك يعني بس..

..مش دلوقت؟

هزت رأسها إيجابًا بامتنان لأنه فهمها، وبتردد قلق من ردة فعله التي لم تتوقعها:

حقك برضو. قولي اللي إنتي عايزاه في الوقت اللي إنتي عايزاه. أنا مفيش عندي أي مشكلة

في تلك الليلة، وبعد أن عادت (دنيا) إلى منزلها لتختلي بنفسها في غرفتها وعلى فراشها، وجدت يدها تمتد نحو مكتبها القريب لتسحب من فوقه حقيبة يدها التي فتحتها وأخرجت منها شيئًا صغيرًا أمسكته بحرص واشتمته بعمق قبل أن تقبله برقة وخجل ثم تدسه في درج المكتب



مبتسمة كطفلة صغيرة تخفي كنزًا عن أعين الآخرين.

ولم يكن ذلك الكنز سوى أحد المناديل شديدة الترتيب والتطبيق، التي أعطاها لها (صالح) في المقهى صباح ذلك اليوم.

أحبك حبين حب الهوى .....وحبا لأنك أهلٌ لذاك

غوث الزمان

لو أنك واحد من مريدي الشيخ (مصطفى)، وأبناء طريقته، فسترى أنه ليس رجلًا عاديًا بأي حالٍ من الأحول، رغم أنك عند مقابلته أو الحديث معه، أو حتى التطلع إليه من بعيد، تشعر أنه عادي جداً، بل وربما كان هذا أحد جوانب لا عاديته العديدة، أن نفسك لا تكاد تصدقك حين يتباسط رجل عظيم، دنيا ودين، معك أنت! لكن نفسك حين تهدأ قليلًا من فورة لطمها لخديها انبهارًا، تجدها تسألك مندهشة، هل يتباسط معك هكذا من فرط تواضعه هو، أم لعظمة، لا سمح اللّه، في شخصك أنت؟

لكنك لست سيء الأدب لتستخدم كلمة عظمة، فتستخدم أخرى بدلًا منها، كتمييز. فهل يعني هذا أنك مميز عند ولي من أولياء اللّه و..والقطب



الغوث نفسه؟! لأنك تعرف أن شيخك هو غوث هذا الزمان، لكن أشياء كهذه ليست مثار حديث أو تفاخر، فأي مريد في أي طريقة قد يحسب شيخه هو ذلك الغوث، لما يرى فيه من كرامات، وقد يكون بعضهم من أولياء اللّه الصالحين حقًا، وأشرف أهل الأرض وأنبلهم بالفعل، لكنك تفهم جيداً أن شيخك هذا رجل لا يجود الزمان باثنين من عينته أبداً. وشيء كهذا يجعلك تحمد اللّه ليل نهار على نعمه المغدقة عليك ولكن في صمت، فليس كل نعمة يحدث بها.

فأما لو نالك حظ من تميز عند شيخك، فلن يهمك أن تكون الميزة فيك أنت، بل يكفي جداً أن تكون محبة زائدة لك في قلبه فقط، وإن لم تفهم أنت نفسك سببًا واضحًا لها، فلا أنت تصلي ولا تذكر اللّه في وردك اليومي أكثر من غيرك، لكنك تفهم ضمنيًا أنه يرى فيك ما لا يراه غيره من البشر، ولا حتى أنت نفسك.سترفع عينيك لأعلى باكيًا خجلًا من كرم اللّه الزائد عليك، داعيًا إياه أن تكون على قدر إكرامه رغم أنفك لك، وبألا تنقطع محبة شيخك عنك أبداً.

ورغم المحبة التي يتمتع بها البعض عنده، إلا أنه شديد العدل مع مريديه كما مع أبنائه وأكثر، بل بلغ من حبه لأبناء طريقته أن اعتبرهم جميعًا أبناءه هو، حتى أنهم صاروا ينادونه كما ينادون آباءهم



بالفعل، ومن منهم بلا أب أو يجد من أبيه ما لا يرضيه من قول أو فعل، يعتبره أباه الحقيقي. الغريب أنك تشعر أن الرجل أبوك حقًا، يمت لك بصلة قربى فعلًا، وبأن لك ظهرًا قويًا، لن تضام بوجوده في حياتك أبدًا. وإذا بك تحبه مرتين، مرة لأنه شيخك، ومرة لأنه أبوك.

لا تَخَفْ إِنَّكَ أنتَ الأعْلَى

جبل قاسيون – تاريخ غير معروف

ربما لم يمر الكثيرون على ذلك الموضع، لكن من مروا رأوا، فأكدوا ما رأوه، في الليالي المقمرة حين يتبدى الطريق وبعض تضاريس الجبل، تظهر المغارة كأنها كوة يشع منها نور شديد الإبهار، كأنما تضيئها ألف ألف شمعة. ظن من ظن أن الأمر من فعل الجان، أو له علاقة بهم، ولم يعرفوا أنه منذ صعوده للمغارة ذلك اليوم، وهو يأتيها كل يوم، كي يناجي اللّه، حتى اتخذها محرابًا.

هل اختار لمحرابه موضعًا يستجاب فيه الدعاء، أم أن الدعاء صار مستجابًا في الموضع الذي اختاره محرابًا؟ منذ ذلك اليوم وهو لا يقطع عادته، يحضر كل يوم قبيل غروب الشمس فلا يغادر إلا مع شروق أول شعاع لها، لا يأخذ معه زاد ولا ماء، ولا حتى مشعلًا أو شمعًا أو أي مصدر للضوء، لتتساءل أنت



عمن يضيء المكان له كل ليلة. لا يريد من الدنيا شيئًا سوى أن يغفر اللّه ذنبه قبل أن يقبض روحه. ومهما أغدقت عليه الدنيا وأعطته من نعيمها علمًا وجاهًا، فلن يكون فيها سوى عبدًا صالحًا، وينساها.

و سكر ثم صَحْوٌ ثم شوقٌ .....و قرب ثم وفر ثم أنْــس

القاهرة (٢٠١٥)

إيه ده أنت مش أجازة النهاردة؟!

لكن وجود (صالح) أمامها قرب مدخل الجامعة يوم عطلته، لم يكن هو مبعث دهشة (دنيا) الوحيد ذلك اليوم، بل مظهره كذلك. لا تعرف كيف استطاع أن يضيف إلى وسامته الأصلية وسامة إضافية. ملابسه؟ تصفيفة شعره؟ هو أصلًا دائم الانتباه والاهتمام لكل ذلك بشدة، حتى أنها لا تذكر يومًا رأته فيه بملابس غير مهندمة أو شعر غير مصفف بعناية. لكنه بدا ذلك اليوم مختلفًا بشكلٍ ما، مبهرًا إن صح التعبير، كصفحة مصقولة في إحدى المجلات، خاصة مع العلبة الأنيقة التي يحملها بعناية، ولونها الأحمر القاني يتناقض بشدة مع خلفية ملابسه داكنة السواد.



لم يجب عن تساؤلها ولا علق حتى، فقط اقترب مبتسمًا وهو يقدم لها العلبة الحمراء قائلًا:

كل سنة وإنتي طيبة يا حبيبتي

انفرجت شفتاها قليلًا في ذهول وهي تنظر له غير مصدقة في صمتٍ لثوانٍ. أرادت أن تصرخ وتقفز سعادة لتتعلق بعنقه مقبلة إياه في حب، لكن كل ما تمكنت من قوله وهي ما تزال مندهشة:

بس .. بس أنا عيد ميلادي بكرة!

ما عشان كده كان لازم أشوفك النهاردة، عشان أشوف تأثير المفاجأة الجميل ده عليكي

صمت لحظة وهو يقترب منها أكثر حتى تغلغلت رائحة عطره المخدرة في أنفها، ونظر في عينيها مليًا قبل أن يقول بخفوت:

وعشان أبقى أول واحد هناكي بيه

شعرت كأنها ستغرق في بحر عينيه الواسعتين العميقتين وقد التمعت تلك اللمحة الزمردية الداكنة وسط لونهما البني الدافئ. انتبهت في تلك اللحظة أنها لم تتناول الهدية من يده الممدودة بها بعد لتتناولها بلهفة وهي تبتسم



وتفتحها بتأهب، فتشهق قليلًا بانبهار وهي ترمش بعينيها كأنها لا تصدق ما تراه، السوار الثمين ذي الفصوص الياقوتيه، الذي شاهداه في واجهة أحد المتاجر أثناء سيرهما معًا منذ مدة طويلة، وعلقت له هي عن إعجابها الشديد به، وغلو ثمنه الذي يجعلها تتردد كثيرًا قبل أن تفكر حتى في شراء مثله لنفسها.

ابتسم وهو يراقب وجهها يحمر وهي تحاول شكره بكلمات متعثرة تكسر أغلبها.قادها نحو سيارته السوداء الصغيرة التي يعبقها دائمًا مزيج من عطره الأخاذ الذي تحبه كثيرًا، وعبير المسك الذي يفوح من المعطر المعلق على فتحة جهاز التكييف. الأمان الذي تشعر به وهي معه وبقربه لا يكاد يعدله أي أمان آخر في الدنيا، أمان يحميها من أي شيء وأي شخص في هذه الدنيا، منه هو نفسه حتى. شعرت بعاطفة قوية لم تتخيل أنها لديها وهي تقول فجأة:

أنا بحبك قوي!

احمر وجهه قليلًا وارتسم ما يشبه دهشة خفيفة على ملامحه. لم يزح عينيه عن الطريق، لكنه ابتسم. وخيل لها أنها رأت عينه تنحرف سريعًا نحوها في نظرة خاطفة قبل أن يقول:



أنا بحبك أكتر

ضحكت بخجل وقالت:

ماشي بس أنا حبيتك الأول

لأ أنا برضو اللي حبيتك الأول

أنا حبيتك من ساعة ما شوفتك!

وأنا شوفتِك من قبل ما تشوفيني، وأعجبت بيكي، من ساعتها وأنا نفسي في أي فرصة أو طريقة أقدر أكلمك أو أقرب منك بها

يعني موضوع صاحبك العيان اللي بتدفع له ده كان علشان تكلمني؟

لأ واللّه كان عيان بجد وكنت بدفعله فعلًا، بس ما صدقتش نفسي لما لقيتك في الطابور اللي جنبي

إنت جدع قوي. مفيش حد بيقف لحد كل ده في عز الحر عشان يعمل له حاجة، حتى لو صاحبه، وحتى لو عيان

لأ فيه عادي

أنا ما شفتش غيرك بيعمل كده



ده مش معناه إن مفيش

أيوه بس الـــــ..

بترت عبارتها بغتة وهي تنظر لوجهه الذي تقلص فجأة في ألم لم يستطع إخفاءه بالكامل رغم محاولاته فهتفت بقلق:

فيه إيه يا (صالح) مالك؟؟

لم يكن تأخره في الرد ملحوظًا لكنها انتبهت له وهو يقول بصوت مرهق:

..مفيش

مفيش إزاي؟! إنت شكلك تعبان قوي!

مش تعبان ولا حاجة. ده صداع بس عشان الشمس جاية في عيني. ممكن .. ممكن تناوليني النظارة اللي قدامك هنا دي من فضلك؟

أسرعت تفتح صندوق السيارة الصغير أمامها وتخرج نظارته الشمسية الأنيقة من جرابها لتعطيها له. أخفت بحجمها الكبير الكثير من معالم الألم على وجهه لما ارتداها، لكن ليس عن (دنيا) التي تحفظ كل شبر فيه، وتعرف جيداً أن فمه لا يبدو طبيعياً هكذا بل متشنج في ألم.



طب وهي الشمس تعمل فيك كل ده؟؟

عندي حساسية منها. ما تقلقيش قوي كده مفيش حاجة

طب .. نروح لدكتور طيب؟

أطلق ضحكة قصيرة وهو يقول:

دكتور إيه بس على إيه كل ده؟! أنا خلاص بقيت كويس أهه

وكأنما بمس من عصا سحرية، عادت ملامحه كلها إلى هدوئها وهو يبتسم، كأنه لا يريدها أن تقلق، لكن محاولته لم تفلح وهي تعلم جيداً أنه ما زال يتألم، جداً على الأرجح، ويتعمد التظاهر بعكس ذلك من أجلها، لكنها صارت تعرفه أكثر مما يتخيل، فحركته تلك فقط جعلتها تقلق أكثر.

و قَبْضٌ ثم بسط ثم مَحْوٌ .....و فرق ثم جمع ثم طَمْس



(٧)

نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

رؤيا فيما يرى النائم

باب المقام مفتوح، والشمس على وشك المغيب. بوابة المقصورة الداخلية القصيرة ذات الضلفتين مفتوحة هي الأخرى، مواربة لسببٍ ما. لكنه لم يستغرب ذلك، بل مد يده يزيد من اتساع الفرجة ليعبر منها إلى الداخل. ببرودة غريبة ارتطمت به أول ما دخل. وحين هبطت عيناه لأسفل عند موطئ قدميه، وجد نفسه يرتدي حذاءه، ويتعجب كيف لم يخلعه في الخارج على الباب، ويدنس المقام هكذا، بل وكيف سمح له خادم المكان بذلك.

خادم؟ متى وضعوا خادمًا للمقام ولم يكن هناك واحد من قبل؟ التفت للخلف ينظر. ببصره ضبابي وعقله حائر. دقق نظره ما بين الزخرفة المعدنية المحيطة بزجاج المقصورة التي يقف بداخلها، وتساءل إن كان بصره يخدعه، أم أنه بالفعل يرى شخصًا يقف هناك في سكون كأنه تمثال.

ضيق عينيه لينظر مرة أخرى لنفس الموضع فلم يجد أحدًا، وتساءل بخوف وحيرة إن كان يتخيل،



لكنه انتبه فجأة أن الرجل لم يعد عند باب المقام لأنه الآن بداخله، يقف قريًبا من المقصورة، عيناه لا ترمشان ووجهه جامد ملتصق بزجاجها من الخارج، يتطلع إليه في صمت وثبات.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ

خلاء – تاريخ غير معروف

مازال عقابي مستمراً. الشمس ما تزال على وجهي تحرقني، وساقي المعلقة إلى فخذي تؤلمني بشدة. صرخت حتى بُحَّ صوتي فتوقفت. كززت على أسناني وبكيت حتى جفت دموعي. صمت تماماً وأنا أدعو اللّه بقلبي أن يعفو عني أو يقبض روحي، فأنا لا أستطيع تحمل ما أنا فيه، وإن كنت أستحقه.

إلهي شهدت أن لا إله إلاّ أنت فاجعل عليها مماتي ومحياي.

إلهى ثَوبُ جسْمِى دنّسَتْهُ ذُنوبٌ حَمْلُها أبداً ثَقِيلُ.

شهدت أن لا إله إلاّ أنت فاجعلها من قروح الذّنوب دواي.

وجُدْ بعفوكَ لى فإنّـى عَلى الأبوابِ مُنْكِسِرٌ ذَلِيلُ.

عدن (٢٠١٥)



(أمجد) خد نفحة بعد الدرس وللا لأ؟

قالتها (نجوى) وهي تخرج من المطبخ حاملة بعض أدوات الطعام، وابنها الشاب يجلس في الصالة على الأريكة الوثيرة منشغلًا بجهاز التليفيزيون الكبير على الحائط المواجه، يقلب بين قنواته عشوائيًا بالريموت في يده، ليبدو وكأنه لم يسمعها. مصمصت شفتيها بغضب خفيف واستنكار و(ميادة) تضحك وهي تجلس بتعب على مقعد قريب وتناولها علبة بلاستيكية صغيرة قائلة:

مناب العيال أهه

أخذت العلبة وفتحتها لتبدأ بإطعام طفلي (ميادة) الصغيرين، وتدور خلفهما محايلة وهي تعود لتقول:

عايزة أعرف عشان لو ما كانش أشيل له مناب هو كمان .. يا (هشام)!

أدار وجهه عن التليفيزيون في دهشة كأنه انتبه تلك اللحظة لها وهي تضيف:

ما ترد عليا يا ابني أنا مش بكلمك!



فيه إيه؟

أخوك خد نفحة وللا لأ؟

معرفش

هو فين طيب؟؟ ما بيردش على موبايله ليه؟!

أنا إيش عرفني!

أنتوا مش كنتوا مع بعض في الدرس؟

لأ أنا ما روحتش الدرس

سيبته يروح لوحده ليه؟؟!

اتسعت عينا (ميادة) من خلف ظهر أخيها في لومٍ وتأنيب لأمها التي بدت وكأنها لا تعرف علام كل هذا بالضبط. أما هو فقد حدق في عينيها قليلًا بذهول غاضب وبدا وكأنه سيقول شيئًا لكنه هب واقفًا بعصبية ليلقي الريموت على الأريكة بجواره ويندفع نحو باب الخروج ليفتحه ويخرج وهو يصفقه خلفه بعنف.

عدن (٢٠١٥)

أين هو الآن؟



رغم أنهما لا تريدانه أن يكون خلفهما، ولا أن ترياه إن كان كذلك، إلا أن (ضحى) و(عائشة) أداراتا رأسيهما ببطء للخلف طلبًا لوقوع بلاء ربما كان أخف وطأة من انتظاره. وربما كانت رؤيته، على صدمتها، أفضل من عدمها وهما تعرفان بوجوده. لم تعرف أيهما إن كان لسانها ينطق بالأدعية والآيات فعلًا أم لا، يقرأ الفاتحة طلبًا للمدد من الشيخ أم تتخيل فقط أنه يفعل، لكنهما كانتا متأكدتان من استحضاره في قلبيهما بقوة، وهما تدوران للخلف.

شيء للّه يا عم الشيخ!

قالتها (عائشة) بلهجة لا تعرف إن كانت نوع من تنهيدة الارتياح المصحوبة بشكر للشيخ لعدم وجود شيء خلفهما، أم استنجاداً به مما قد يكون موجوداً ولا تريانه. أما (ضحى) فقد راحت تمسح المنطقة خلفهما بدقة وصمت وهي تكاد تقلب كل حجر وتدور حول كل شجرة ونخلة بنظرها. تحولت بعدها لليمين، ثم اليسار، وكل اتجاه، حتى صارت تتلفت حول نفسها في خوفٍ كالمجانين.

لمقفنجل يا أرض خذيهم

طنطا (١٩٧٩)



حين اقترب موعد خروج الصبي التالي في رحلة بيعه المعتادة، لم يكن عقله منشغلًا بشيء أكثر من الرجل الطويل، متى وكيف وأين سيقابله. شَكَّ في الأمر رغم وصوله في نفس موعد الأمس، واندهش قليلًا وهو يرى الرجل يسير مبتسماً مقترباً من مجلسه عند سلالم المسجد الكبير.

سار الأمر كما في المرة السابقة تماماً، ولاحظ الصبي أن الرجل شديد الهدوء، لا يتكلم ولا حتى يبتسم كثيراً، لكنه لا يقطب كذلك، بل يرتسم على وجهه تعبير مريح أقرب للشرود. لم يسأله عما برأسه أو قدميه، لم يقرف أو يتأفف، ولا خرجت من عينيه نظرة واحدة نافرة حتى، وربما كان ذلك هو السبب الذي قرر من أجله أن يحكي له عن مرضه بنفسه.

في اليوم الثالث، ذهب في موعد أبكر بكثير من اليومين السابقين، ودونما اتفاق، كأنه يمتحن صدق الرجل فيما قال، ليسقط فكه في ذهول وهو يراه يقترب منه بنفس الابتسامة، ونفس الهدوء، وكأن بينهما موعد مسبق.

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

القاهرة (٢٠١٥)



أنا مبسوطة بجد!

ضحك وهو يقول:

أنا اللي مبسوط إنك مبسوطة

المكان ده كان عاجبني جداً ونفسي آجيه من زمان قوي

عارف

قالها مبتسماً ليحمر وجهها وهي تضحك قائلة بدهشة:

إنت بتعرف كل ده إزاي؟؟

هز كتفيه بحركة مرحة كأنه لا يدري وهو يضحك وهي تقول:

يا ترى أنا برض، عارفاك كويس كده؟

إنتي أدرى بقى

ساعات بحس إني عارفاك قوي، وساعات تانية بحس إني .. مش عارفاك خالص، و..



بترت عبارتها حين رآته وهو يغمض عينيه فجأة كأنه يتألم قبل أن يعود ليسيطر على نفسه مرة أخرى لتسأله بقلق:

مالك يا (صالح)؟؟

مفيش عادي

قالها محاولًا رسم ابتسامة باهتة على وجهه لم تخدعها ولا يمكنها أصلًا أن تخدع طفلًا فعادت تقول بإصرار:

لأ فيه! والموضوع مش حساسية وشمس زي ما بتقول

ارتجف فمه قليلًا عند الزاوية كأنه يحاول الابتسام ويفشل، وارتسمت على جبينه تقطيبة خفيفة صامتة لتعود هي وتقول:

لأن مفيش أي شمس جاية عليك دلوقت

رؤيا – فيما يرى النائم

عند باب المقام وقف، والشمس على وشك المغيب. حانت منه التفاتة إلى داخل المكان المظلم، لا تبدد ظلمته إلا تلك الإضاءة الخضراء الخفيفة، المنبعثة من المقصورة الداخلية. نفس



الإضاءة العادية التي طالما عرف بها المكان، لكنها تتصرف اليوم بشكل غريب، تبدو وكأنها تنبعث من المقصورة نفسها، لنفسها، فقط، دون أن يكون هناك أي مصدر حقيقي أو مرئي لها، ودون أن تضيء أي شيء حولها، تاركة فراغ المقام المحيط نفسه في سواد تام.

خيل له أنه يرى بزاوية عينه بوابة المقصورة القصيرة تتحرك، تنفرج قليلًا، فالتفت لها، ليجدها مفتوحة بالفعل، فتعجب، لكنه تعجب أكثر حين وجد الفرجة تتسع بما يكفي لعبور شخص من خلالها، لكن المقام خال .. فمن هذا؟ من الذي عبر من الباب؟ وهل كان بالخارج ودخل؟ أم أنه كان بالداخل .. وخرج؟؟

ليس من ساكن تَحَرَّك إلّا .....أنت حَرَّكْتَهُ خَفَّي المكان

عدن (٢٠١٥)

خِفّي على الواد شوية يا ماما إحنا ما بنصدق ييجي

وأنا عملت له إيه؟!

قالتها (نجوى) بعصبية متخاذلة وهي تتشاغل بإطعام الطفلين في حين عادت (ميادة) تقول:



زعلانة إنه ما راحش الدرس بس عشان ساب (أمجد) لوحده؟! ليه هو (أمجد) ده طفل صغير هيتوه؟ مش بدل ما نقطع رجله من هنا خالص؟ أهو ييجي حتى يسلم على الشيخ وياخد منه نظرة وللا شوية مدد

إسكتي يا (ميادة) والنبي عشان أنا غلبت مع الواد ده، إنتي قاعدة هنا بعيدة عنه مش حاسة بحاجة، وأنا وأبوكي اللي شاربين قرفه، واد صايع وقليل الأدب مفيش فايدة منه!

تعرفي الصايع ده بابا بيقول عليه إيه؟

انشغلت قليلًا عن إطعام الطفلين لتنظر لها باهتمام قائلة:

بابا الشيخ؟

هزت رأسها لها إيجابًا فعادت تسأل:

بيقول إيه؟

ابتسمت (ميادة) بخبث صامت متعمدة إثارة فضول أمها التي أعادت عليها سؤالها فلم تفعل سوى أن رفعت أحد حاجبيها في خبث زائد لتشيح الأم بوجهها بنفاد صبر وهي تقول بضيق:



أكيد بيقول عليه صايع برضه ومفيش فايدة فيه

اتسعت ابتسامتها حين شعرت أنها تمكنت من إثارة فضولها واهتمامها الكامل لتقول أخيرًا:

بالعكس بقى، عشان تعرفي إنك ظالماه

بجد والنبي؟!

آه واللّه

إمتى؟ قال إيه بالضبط؟؟

قالتها بلهفة لتشرد (ميادة) قليلًا كأنها تتذكر وتبتسم كأنها تستمتع وهي تقول:

على العشا إمبارح، وكنا قاعدين كلنا وهو بياكل يا حبيبي، ولسه هيحط اللقمة في بقه، راح قايل لي كده فجأة، من غير ما يبص لي .. تعرفي يا بت يا (ميادة)؟ الواد (هشام) ده غالي عندي قوي، أغلي منك إنتي والواد ده شخصيًا، بعيالكوا، سلمي لي عليه.وراح ضاحك قوي وباصص لي أنا و(ياسين) والعيال، وحط اللقمة في بقه

صمتت (نجوى) قليلًا ودمعت عيناها تأثرًا قبل أن تتمتم بحرارة:



اللّه يسلمه يا رب!! اللهم صل على النبي!

شوفي بقى يا ستي لما يبقى الصايع اللي مش عاجبك ده أغلى عند بابا من أخوه ومراته وعياله، أخوه اللي رباه وبيعتبره زي ابنه

شردت كلاهما في ملكوتها الخاص قليلًا، حتى أن (نجوى) وضعت علبة الطعام، التي كانت قد شارفت على الانتهاء على كل حال، على الطاولة الصغيرة أمامها وقد خانتها دمعة سالت على خدها فمسحتها بسرعة وهي تسأل:

هو كان عارف يا بت إن أخوكي جاي النهاردة عشان كده بيجيب سيرته ويبعت له السلام؟

رمشت (ميادة) بعينيها رمشة طويلة وشردت قليلًا وهي تقول مبتسمة:

طبعًا كان عارف

إنتي كنتي قايلة له؟؟

لأ أنا ما قلتلوش .. بس هو كان عارف

اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ اللَّطِيفَةِ الْأَحَدِيَّةِ، شَمْسِ سَمَاءِ الْأَسْرَارِ، وَمَظْهَرِ الْأَنْوَارِ، وَمَرْكَزِ مَدَارِ



الْجَلَالِ، وَقُطْبِ فَلَكِ الْجَمَالِ

عدن (٢٠١٥)

إركزي شوية بقى يا (ضحى)! إهدي واشحتي المدد من بابا بدل ما إنتي قاعدة تلفي حوالين نفسك كده!!

هتفت بالعبارة بانفعال وقد دمعت عيناها وارتسم التأثر والهيبة واضحين على وجهها قبل أن تعود لتتمتم بحرارة:

شيء للّه يا عم الشيخ .. شكلنا مش مستحملين أنوارك ..!

لم يبد على (ضحى) أنها فهمت ما تقوله (عائشة) التي ظلت على تهيبها وقد شردت قليلًا في الأفق، وراحت تضم أطراف شالها على جسدها المرتجف.لم تكف عيناها عن سكب الدموع كأنما يحدث الأمر رغمًا عنها، ولا كف لسانها عن التمتمة بالذكر وهي شاردة في الأفق كأنما انجذبت أو دخلت في حالٍ روحانيةٍ غريبة، لم تشأ إخراجها منها وإن لم تفهم لذلك سببًا.تركتها حتى هدأت قليلًا وعاودتها القدرة على الكلام كي تقول بصوتٍ متحشرج:



الحاجة (عايدة) اللّه يمسيها بالخير، كانت حكت لي زمان عن حاجة كده، أول مرة في حياتي أفهمها النهاردة

ماما؟!

قالتها (ضحى) باهتمام ودهشة أنسياها قليلًا من خوفها في حين مسحت (عائشة) وجهها وعينيها بكفها وتعود لتقول:

أول مرة تشوف فيها الشيخ (مصطفى)، كان معاها الحاجة (منى). الحاجة (منى) في الطريقة قبل مامتك من زمان طبعًا إنتي عارفة، وهي اللي قرت معاها الفاتحة وخدت عليها العهد، بس مامتك ما كانتش لسه قابلت عم الشيخ بنفسها. اليوم ده أخدتها عشان تقابله في الدار القديمة في سيدنا (الحسين)، والحاجة (منى) أكدت لي كلام مامتك لأنها كانت معاها وشافته بيحصل قدام عينها

شافت إيه؟؟

أول ما شافت عم الشيخ قاعد قدامها على كرسيه، ما إتكلمتش، مانطقتش بحرف واحد، لدرجة إن الحاجة (منى) استغربتها وقعدت تنغزها عشان تتكلم وتقول أي حاجة وللا تسلم عليه حتى، ومامتك ساكتة خالص وبتبص له بس. هو كمان



كان ساكت وبيبص لها، وبيهز دماغه كده هزة خفيفة وهو مبتسم ابتسامته الهادية اللي إنتي عارفاها دي .. فجأة! لقت دموع بتنزل من عينيها، بتقول ما كانتش بتعيط بس الدموع عمالة تنزل من غير ما تحس ولا تفهم ليه، كأنها باصة في طاقة نور جامدة قوي ومش مستحملاها

اتسعت عينا (ضحى) قليلًا وقد بدأت تشعر أنها تفهم ما تعنيه وهي تتابع:

حلفت لي إنها شافت نور حواليه، خارج منه، من كل حاجة فيه، والنور ده فضل يزيد لدرجة إنها ما بقتش فعلًا قادرة تستحمل تبص له. نزلت عينيها ووطت على إيده باستها وبعدين بتقول لك ما شافاتش حاجة خالص، لدرجة إنها افتكرت فعلًا إنها اتعمت! لدرجة إن الحاجة (منى) كانت شبه ساحباها من إيدها وهما خارجين من الدار، وماماتك حاطة إيدها التانية على عينيها اللي فضلت مدمعة ومش شايفة بها لحد ما نزلوا الشارع

وأسألك الوصول بالسر الذى تدهش منه العقول فهو من قربه ذاهل ايتنوخ ياملوخ باى وامن اى وامن مهباش الذى له ملك السموات والارض

طنطا (١٩٧٩)



أتى الرجل ذلك اليوم حاملًا عمامة، ربطها على رأس الصبي، وطلب منه أن يعتمرها ثلاثة أيام بلياليها، لن يقابله خلالها، وسيقابله بعدها في اليوم الرابع، لا يخلعها عن رأسه أبدًا، في أي وقت ومهما كانت الظروف، فينام ويغتسل بها كذلك، ولا يزحزحها من مكانها قبل الموعد المحدد.



(٨)

حَمَّلْتَ بالقلب ما لا يحمل البَدَنَ .....والقلب يحمل ما لا تحمل البُدُن

خلاء – تاريخ غير معروف

ظل الألم يزداد قوة حتى اختفى فجأة، أو ربما لم أعد أنا أشعر به، كأنه يقع على جسدي فقط فلا تشعر به روحي، كأنها انفصلت وارتفعت عنه، وعاد الدعاء يرتفع مرة أخرى من أعماقي، لكني لم أطلب من اللّه عفواً أو رحمة تلك المرة، فقط طلبت المغفرة.

قضيتُ فيهِ إلى حين انقضى أجلي .....شهري ودهري وساعاتي وأعوامي.

القاهرة (٢٠١٥)

لم تعرف إن كان صمته موافقة على ما تقوله، أم عدم قدرة على الكلام من شدة الألم. لم يزد فيه سوى تلك النقاط الدقيقة من العرق، نبتت على جبينه وتلألأت فوق بياضه الشاحب. أما هي، فقد عادت تسأله في إصرار وقلق زاده ذلك الصمت:

فيك إيه يا (صالح)؟؟



هل خف الألم أم أنه هو الذي بذل مجهوداً كي يظهر ذلك؟ هل ازدادت حبات العرق على جبينه بسبب ذلك المجهود؟ أم لطفرة ارتياح ارتخت معها جميع غدد جسده؟ المهم في النهاية أنه تكلم قائلًا:

مفيش يا (دنيا) واللّه

تأملت ملامحه التي بدت وكأن الإرهاق قد أضاف لها عشر سنين دفعة واحدة، إرهاق شعرت أنه موجود على الدوام في وجهه لكنه فقط زاد الآن، كأن عمره قد زاد فعلًا. تبينت عينيه الواسعتين العميقتين، والهالات الداكنة تحتهما لا تنقص من وسامته شيئًا، لكنها تشف عن تعب وحزن شديدين، تشعر (دنيا) أنها لم تر مثلهما في حياتها من قبل، لكنهما يجعلاه أكثر قوة بشكل ما، وفي نفس الوقت أكثر رقة، كأنه رأى ما لم يره أحد سواه.

حمل صوته بحة خفيفة وهو يقول:

عندي صداع خفيف بس، ما تقلقيش

خفيف؟ كل ده خفيف؟!

ضحك قليلًا بإرهاق قبل أن يقول:



ماشي يا ستي، تقيل شوية

وده ليه؟ يعني بيجيلك من إيه؟؟

..لما ما أنامش كويس

طب، وإنت ما نمتش كويس ليه خير؟ إوعى يكون عشان تعبت نفسك بالتجهيز للعيد ميلاد وكده!

ضحك ثانية:

أهو ده اللي كنت عامل حسابه، عشان كده ما قلتلكيش، عشان ما تقوليش كده، والحكاية مش كده خالص واللّه

أمال الحكاية إيه؟

بدا على وجهها تصميم وشى بأنها لن تتنازل حتى تتلقى إجابة تقنعها، فزفر بعمق وقال:

الحكاية إني .. ساعات بحلم أحلام ما بتخلينيش أعرف أنام

انعقد حاجبيها وهي تتساءل:

أحلام؟ أحلام إيه؟؟



أحلام وحشة .. كوابيس..

شاب التساؤل على وجهها شيء من التأثر والقلق وهي تعود لتسأل:

والكوابيس دي عن إيه؟ بتشوف فيها إيه يعني؟

ضحك بعصبية:

لأ ما تفكرينيش بقى!

بدا وكأنه لن يقول أكثر من ذلك فصمت وصمتت هي كذلك، وقد ارتسم التأثر والقلق على كامل وجهها، فعاد يضيف من تلقاء نفسه كأنه يطمئنها:

كوابيس زي اللي بتيجي لأي حد

فجأة قالت كأنها تذكرت أمرًا هامًا:

أنا معايا مسكن في شنطتي! ثواني أجيبه لك

رفع يده ووضعها على يدها برقة ليثبتها وهو يقول بضحكة مرهقة:

لأ ما تتعبيش نفسك، المسكنات ما بتعملش حاجة



اتسعت عيناها في دهشة متسائلة:

أمال إيه الحل؟؟ إنك تنام كويس؟

ضحك مرة أخرى بسخرية:

ده لو عرفت أنام بقى

نظرت له بأسف وعطف، وترددت قليلًا قبل أن تقول:

(صالح) .. تحب نقوم؟ أنا ما عنديش مشكلة لو..

تصلبت ملامحه وهو يقاطعها بجدية:

إنتي هتخليني أندم إني قلت لِك ولا إيه؟!

لأ أنا مش قصدي! أنا بس عايزاك ترتاح واللّه

زفر في ضيق:

يا ستي أنا مرتاح كده. اللي بتعمليه ده هو اللي بيتعبني

حاضر، حاضر واللّه خلاص بس ما تزعلش



مش حكاية زعل، بس إنتي كده هتخليني أحرم أقول لك أي حاجة تاني عني

اتسعت عيناها خوفًا من الفكرة فأسرعت تقول:

لأ والنبي، قل كل اللي أنت عايزه وأنا أوعدك إني مش هعمل أو أقول أي حاجة تضايقك بعد كده، بجد!

خفض عينيه وارتسمت ابتسامة خفيفة على جانب فمه قبل أن يقول:

إنتي عملتي حاجة تضايقني دلوقت على فكرة

تسمر وجهها متسع العينين وهي تراجع ما بدر منها وسرعان ما أدركت ما يقصده لتقول بابتسامة مرتبكة:

أصل أنا واخدة عليها و .. إنما الأعمال بالنيات .. فربنا أكيد عارف إني مش قصدي أحلف بغيره

اختفت الابتسامة من على وجهه وارتفع أحد حاجبيه قليلًا دون أن ينظر لها وهو يسحب سيجارة ليشعلها قائلًا:

إعملي اللي إنتي عايزاه



ورغم رغبتها في إثارة النقاش معه حول تلك النقطة، إلا أنها شعرت أن هذا ليس وقته، ولتقول بلهجة لينة:

معلش طيب ما تزعلش

ما زعلش من إيه يا بنتي! ده عشانك أنت، وأنا هخسر إيه يعني وللا هستفيد إيه لو قلتيها أو ما قلتيهاش؟

مدت يداً خجلى مرتبكة تربت بها على كفه الموضوعة على المنضدة برفق، رفع إليها عينيه، لم تقل شيئًا تلك المرة لكن عينيها ويدها قالوا الكثير، وكذلك هو، ظل صامتًا يحدثها بعينيه، لينهي الحوار بابتسامة خفيفة وهزة مطمئنة من رأسه وهو يرفع كفه الأخرى يربت بها على كفها هي، محتضنًا يدها الصغيرة التي تثلجت خجلًا بين كفيه القويتين الدافئتين. تعجبت كيف استطاع كل ذلك وهو في حال من الألم قد تجعل أي شخص ثائر مستشيط الأعصاب، حتى لو كان هادئًا بطبيعته. وكارهة كسرت حاجز الصمت الجميل بينهما وهي تسأله بحنان:

الصداع عامل إيه دلوقت؟

سيبك منه، هو لما يزهق هيمشي لوحده



ضحكت رغم قلقها عليه في حين أضاف هو:

أي وجع بيبقى عامل زي العيل الزنان اللي مصر تركزي معاه، فلو ركزت فعلًا وحاولت تسكتيه، هيعند ويقرفك أكثر، ولو تجاهلتيه، هتلاقيه تعب وزهق من الصريخ في وشك من نفسه .. أو هتكوني خلاص خدت على صوته واعتبرتيه موسيقى تصويرية لحياتك

ضحكت رغمًا عنها من طريقة كلامه المرحة التي لا تشي بأدنى قدر مما يعتمل في داخله، ورغم كم ما تحمله الكوميديا في عبارته من سوادٍ حزين. أما هو فقد ظل على مرحه وابتسامته وهو يلقي بعضًا من رماد سيجارته في المنفضة الصغيرة أمامه ويقول:

ويللا بقى شوفي هناكل إيه عشان أنا جعان!

وسِرْتُ فيهِ ولم أبْرَحْ بِدَوْلَتِهِ .....حتى وَجَدْتُ مُلوكَ العِشقِ خُدّامي

عدن (٢٠١٥)

اللّه! حمد للّه على السلامة أنت جيت امتى؟

لسه داخل أهو من شوية. الولاد هنا؟



كذا رد (عثمان) بإرهاق خفيف على زوجته التي خرجت لتوها من المطبخ وهي تجفف يديها في منشفة صغيرة في حين انشغل هو بإرخاء ربطة عنقه قليلًا وقد جلس على أحد مقاعد الصالة في الفيللا الصغيرة الخاصة بهم في (عدن).

(ميادة) بس اللي هنا هي والولاد

طب كويس عشان أسلم عليهم. أمال فين (أمجد)؟

(أمجد)! ده أنا كنت لسه هسألك عنه. أنا قلقانة عليه قوي

ليه خير فيه إيه؟

بطلبه على موبايله من ساعة ما الدرس خلص وما بيردش

بدا القليل من القلق على وجهه سرعان ما حاول نفضه وهو ينحني ليخلع حذاءه ويتنهد بارتياح قائلًا:

تلاقيه قاعد مع أصحابه وللا حاجة ما تقلقيش، هيروح فين يعني؟ الدنيا هنا أمان



أما (نجوى) فلم يبد أن أي قدر من القلق المتوتر على وجهها قد انزاح وهي تعود لتقول:

طب وما بيردش على موبايله ليه بس؟

عشان ممكن جداً يكون عامله صامت من ساعة الدرس ونسي يرجعه تاني لأنه مسطول، بتحصل على فكرة، وحصلت معاه كتير هو بالذات وإنتي عارفه

كانت تلك من (ميادة) التي خرجت من الداخل ومعها (وعد) ابنتها التي ما أن رأت جدها حتى ركضت متقافزة نحوه هاتفة بسعادة:

جدووووو

تلقفها بين ذراعيه بحنانٍ وسعادة أكبر وهو يقول:

حبيبة جدوو!

تلقت (ميادة) نظرة جانبية حانقة من أمها تجاهلتها وهي تتقدم بدورها نحو والدها وتنحني عليه لتقبله محاولة في نفس الوقت إبعاد (وعد) عنه وهي تقول:

يا بت سيبي جدك في حاله حرام عليك ده تعبان!



مالكيش دعوة إنتي وخشي هات لنا الواد (طيفة) من جوه

قالها بهلجة مداعبة فضحكت وهي تجلس بالقرب منه قائلة:

(مصطفى) نايم يا بابا معلش، لو صحيته دلوقت هيعمل لنا غاغا ويقلب لك دماغك

إنت كنت بتسأل على (أمجد) ليه خير؟

كانت تلك من (نجوى) التي رد عليها وهو منشغل بمداعبة حفيدته:

عايزين نروح للناس بقى نكلمهم رسمي. أنا خلاص اتكملت مع الشيخ (مصطفى)

وقال لك إيه؟؟

قالتها بلهفة فأجابها:

موافق ومبارك الموضوع طبعًا، ما هو عارف كل حاجة وهو اللي اختارها له من الأول

ربنا يهديك يا (هشام) يا ابني زي ما هو هادي أخوك كده يا رب



لم تكد تنهي عبارتها حتى سمعوا صوت تكة مفتاح في الباب، رأوه بعدها ينفتح ليظهر على عتبته كل من (أمجد) و(هشام). أخوان قد تجد صعوبة بالغة في تصديق أنهما كذلك حتى لو أقسموا لك عليه، لأنه رغم وسامة ملامح الأول بوضوح عن الثاني، إلا أنك قد تجد عينك مشدودة للثاني رغماً عنك أكثر، بمظهره الشبابي الأنيق الذي يهتم بكل جزء فيه بطريقة قد تجعل البعض يصمه بشيء من الرقاعة، على عكس أخيه الذي تشعر أحياناً بمبالغة في قلة اهتمامه بنفسه كأنه يتعمد ذلك لسبب ما، بالإضافة إلى التباعد في الشكل بين ملامحهما الأصلية، فقد كان (هشام) يشبه أمه أكثر، في حين بدا (أمجد) كنسخة أصغر سناً وأكثر وسامة من أبيه.

هما بيطلعوا إمتى دول؟ إنتوا بتيجوا على السيرة!

قالتها (ميادة) ضاحكة فضحك معها أبوها و(وعد) التي شاركتهما بضحكة طفولية هي الأخرى وإن لم تفهم معنى ما يقال بالضبط. أما (نجوى)، فقد انصب جُلّ اهتمامها على (أمجد) الذي سألته بلهفة:

إنتوا جيتوا مع بعض ولا إتقابلتوا صدفة على الباب ولا إيه؟ ما بتردش على موبايلك ليه يا (أمجد)؟؟ عمالة بكلمك من الصبح!



إيه ده إنتي كلمتيني؟

قالها وهو يبحث عن هاتفه بين جيوبه بكسل ويدخل مع أخيه الذي أغلق الباب خلفهما متبادلًا نظرة ملل مع (ميادة) التي كتمت ضحكتها في حين عادت (نجوى) تقول:

كلمتك بس! دا أنا طلبتك ييجي ستين مرة!!

نظر في هاتفه بهدوءٍ لا مبال وهو يقول:

آه صح كلمتيني

لم يضف شيئًا وهو يلقي بنفسه على الأريكة في حين ظلت هي تمطره بالأسئلة:

كلت يا بابا؟ أخدت نفحتك؟؟ أنا شايلة لك منابك كده كده جوه، أقوم أجيبه لك ولا شوية كده؟

كلت آه باين .. مش فاكر

إيه مالك؟ إنت تعبان ولا إيه؟؟

رغم اللكنة الساخرة قليلًا التي نطق بها عبارته إلا أن أمه لم تلتقط طعم النكتة التي ألقاها في مياه الحديث. ربما لطغيان قلقها عليه ورغبتها في الاهتمام به على أي شيء آخر، حتى إن كان ذلك



إيه ده إنتي كلمتيني؟

قالها وهو يبحث عن هاتفه بين جيوبه بكسل ويدخل مع أخيه الذي أغلق الباب خلفهما متبادلًا نظرة ملل مع (ميادة) التي كتمت ضحكتها في حين عادت (نجوى) تقول:

كلمتك بس! دا أنا طلبتك ييجي ستين مرة!!

نظر في هاتفه بهدوءٍ لا مبال وهو يقول:

آه صح كلمتيني

لم يضف شيئًا وهو يلقي بنفسه على الأريكة في حين ظلت هي تمطره بالأسئلة:

كلت يا بابا؟ أخدت نفحتك؟؟ أنا شايلة لك منابك كده كده جوه، أقوم أجيبه لك وللا شوية كده؟

كلت آه باين .. مش فاكر

إيه مالك؟ إنت تعبان وللا إيه؟؟

رغم اللكنة الساخرة قليلًا التي نطق بها عبارته إلا أن أمه لم تلتقط طعم النكتة التي ألقاها في مياه الحديث. ربما لطغيان قلقها عليه ورغبتها في الاهتمام به على أي شيء آخر، حتى إن كان ذلك



الشيء هو مجرد اهتمام من نوع آخر، كالتركيز حقًا فيما يقول ومحاولة فهمه. وربما لبرود وجه (أمجد) الطبيعي والذي لا تفهم معه إن كان يمزح أم لا، مختلطًا بسوء النكتة نفسها، والذي لا تفهم معه إن كانت نكتة أم لا.

كانت (وعد) قد نهضت من مجلسها على حجر جدها لتسلم على (أمجد) وتتبعه بـ (هشام) الذي استقرت بجواره واستغرقت معه في الكلام وهو يضع في حجرها أطنانًا من الحلوى جعلت (ميادة) تقول مداعبة:

هتبوظ لي أخلاق البت وسنانها كده على فكرة بكل اللي إنت جايبه ده

لا هو أنا جايبه لها لوحدها! ده بعدها!! هي وعدتني إن كل حاجة هتتقسم بالنص مع (مصطفى)، صح يا (دودو)؟

أومأت له الصغيرة برأسها مبتسمة بخجل في حين لم تحل (نجوى) انتباهها عن (أمجد) الذي عادت تسأله:

إنت كويس يا حبيبي؟ أقوم أجيب لك تاكل؟

مش جعان

كان جُلّ اهتمامه منصبًا على التليفيزيون الذي التقط ريموته من على الطاولة الصغيرة أمامهم وأشعله وهو يجيبها باقتضاب في حين ظلت هي تتكلم وكأن شيئًا لن يوقفها:

ليه إنت كلت إمتى؟

أما (عثمان)، الذي ظل صامتًا أغلب الوقت، فقد سحب نفسًا عميقًا أطلقه في زفرة تنحنح بعدها قبل أن يرفع صوته قليلًا فوق أصواتهم جميعًا لينتبهوا له وهو يقول:

ياريت بس نسيبنا من مين أكل ومين ما أكلش دلوقت ونتكلم في المهم .. إحنا باذن اللّه هنروح بكره للشيخ (علي) عشان نطلب منه إيد (نهلة) لـ (أمجد) رسمي

طنطا (١٩٧٩)

صدع الصغير بالأمر بحرفية فاغتسل بالعمامة ونام بها فعلًا، ولم يزحزحها عن رأسه قيد أنملة رغم انتهاء المدة المفروضة عليه في ارتدائها، بل ظل بها حتى قابل الرجل الطويل في الموعد المحدد بعد الأيام الثلاثة ولياليها. كان هو من ينتظره عند مدخل المقام ذلك اليوم مبتسماً، ينظر له من بعيد وكأنه يعلم من أي طريق سيأتي، وحين



اقترب منه أخيراً ووقف أمامه، فاحت رائحة الطيب منه ككل مرة حين رفع يده نحو العمامة وبدأ في رفعها من فوق رأسه ببطء.

رؤيا – فيما يرى النائم

الآن يراه .. ذلك الذي عبر البوابة إلى داخل هيكل المقصورة الداخلية، يتابعه بعينيه من خلال تغبيشة زجاجها، كأنه جزء ميت من جماداتها وقد نهض يتحرك.

لا يدري كيف ولا متى وجد هو نفسه عند المقصورة، كيف وجد طريقه في الظلام الدامس المحيط بها، أو كيف رأى موطئًا لقدمه فيه. وجد نفسه يقف ملتصقاً بسطحها البارد من الخارج، يتطلع إلى الرجل الذي جلس أمام هيكل المدفن الخشبي على ركبتيه محني الرأس، وقد اختفى رأسه حتى العنق داخل القبر.

يدا الرجل على سطح الهيكل من الخارج، لا تعرف إن كان يسندهما عليه، أم يريد دفع نفسه للخلف ليخرج رأسه، لا تعرف إن كان رأسه داخل القبر بإرادته، أم أن القبر هو الذي سحبه إليه.

صوت يأتي من مكانٍ ما، كعويلٍ مكتوم، هل هو من الرجل الذي اختفت رأسه داخل القبر، أم ذلك



المدفون فيه؟

فجأة وجد نفسه ينظر لوجه الرجل، كأنه جذب رأسه للخارج أو لفته بزاوية غريبة لينظر له. عيناه متسعتان وملامحه ثابتة كأنه تمثال، وما يزال ملتصقًا بالمدفن. التقت أعينهما ببعضها البعض، وأقسم كل منهما لنفسه أنه لم يرى من يراه هذا في حياته من قبل، لكنه بشكل ما يعرفه، لسبب ما يعرف اسمه، وشكله، وكل شيء عنه.

ارتفع صوت العويل لتتسع عينا الرجل بالداخل أكثر، وبشكل بدا غريبًا مخيفًا مع جمود بقية وجهه كالأصنام. فجأة بدأ هيكل المدفن ينكمش على نفسه متحطمًا، كأنه ينهار ببطء إلى الداخل، أو يذوب، والرجل الملتصق به يذوب فيه، وينجذب معه إلى أسفل.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

عدن (٢٠١٥)

أنوار الشيخ مش دايمًا كلنا بنستحملها، والملايكة اللي بتحف المكان ساعات بتظهر لنا، لكن إحنا مش دايمًا بنكون قد إننا نشوفها



كذا قالت (عائشة) التي زال الخوف وجُلّ آثار البكاء من ملامحها وإن أبقيا فيها شيئًا كرهبة روحانية مرهفة انتقلت عدواها إلى (ضحى)، وربما أثرت فيها أكثر وإن لم يبد الأمر واضحًا عليها كـ (عائشة)، فالقصة التي سمعتها الآن عن أمها، أقرب مخلوق في الدنيا لها، ورغم ذلك فهي لم تسمع بها في حياتها قط، ولم تتخيل حتى حدوثها، رغم سماعها للكثير عن كرامات الشيخ (مصطفى) وأنواره، كما سمعته عن مشاهير ذوي كبرياء عال وكاريزما قوية، جاءوا لينضموا للطريقة كمريدين عاديين فسقطوا في بحار نور الشيخ ووقعوا فيما يشبه الانجذاب الغريب له، وآخرين حتى قابلوه وهم غير مقتنعين تقريبًا بالطريقة، ولا بالصوفية كلها ربما، لكنهم عندما رأوه، جلسوا بين يديه ينصتون له كأنهم مسحورون.

(ضحى) من أولئك الذين ولدوا داخل الطريقة، أو كبروا بمعنى أصح ليجدوا أنفسهم وأهليهم بداخلها بشكلٍ ما. وقد مثلت دومًا بالنسبة لها أفضل مجتمع تواجدت في نسيجه، أفضل من مجتمع أصدقائها ودراستها وكل شيءٍ آخر. ورغم أن الحاجة (عايدة) والدتها، قد انضمت للطريقة وقت أن كانت هي صغيرة جدًا، إلا أن أخاها، خال (ضحى)، كان منضمًا لها قبل ذلك بكثير، وظلت (عايدة) لمدة طويلة لا تعرف أصلًا أن أخاها صوفي،



أو منضم لأي طريقة، لا هي ولا أي أحدٍ من العائلة ربما، بعدها بدأوا يعرفون بالأمر تدريجيًا، وقد صار ذلك الأخ عضواً قديماً من أعضاء الطريقة، ومن أهم رجالها.

ظلت (عايدة) على حالها من عدم الانخراط، أو الاهتمام ربما، بأي شيء يخص الطريقة، رغم محاولات أخيها معها، ربما للموقف شديد العدائية الذي اتخذه زوجها من أي شيء صوفي، الموقف الذي ظل ثابتًا عليه حتى مات، وكان سببًا في العديد من الخلافات بينهما، حين دخلت (عايدة) الطريقة وانخرطت فيها بالفعل رغم ممانعته. خلافات أثرت بشدة على حياة ابنتهما الوحيدة، التي تمنت يومًا ببراءة أن تختفي تلك الخلافات مهما كانت النتيجة والثمن، وعندما اختفت تلك الخلافات بالفعل، بموت أبيها واختفائه من حياتها، ندمت على أمنيتها، وظلت تدعو له بالرحمة من وقتها، وتبكيه كلما تذكرته رغم قسوته، مشفقة عليه مما أصابه من فقد لبصره قبيل موته، وما قد يصيبه بعده لكل ما قاله، بغير قصد أو حتى بقصد، في حق كبار المشايخ والأولياء، والشيخ (مصطفى) بالذات، وهي لا تملك الآن إلا الدمع تأثرًا بما أكرمها به الله رغم أنفها، وفضلها على كثيرٍ ممن خلق، كأبيها، تفضيلًا.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ



٢٠١٥

إيه ده؟ إيه صوت الهواء الجامد عندك ده؟ إنتي بره ولا إيه؟

آه..

..آه؟! الساعة تلاتة بالليل يا (دنيا) ...

جاءتها العبارة بصوت (صالح) الهادئ كعادته وإن شابه استنكار ودهشة لتطلق هي ضحكة قصيرة وهي تقول:

هو مش بره بالضبط يعني، هو مكان مفتوح بس أمان، كأني مش بره أصلًا

ما تقولي واقفة في البلكونة وتخلصي

ضحكت ثانية:

لأ ما أنا مش في البلكونة

بدا صوتها مستمتعًا كأنها تملي عليه لغزًا، على عكس صوته الذي جاءها جاداً يحمل بعض الصرامة وهو يسأل:

أمال إنتي فين؟



فاكر الموضوع اللي قلت لك هبقى أحكي لك عنه؟

آه

أهو المكان اللي أنا فيه ده دلوقت له علاقة كبيرة بالموضوع ده

مش فاهم

هتفهم لما أشوفك

(دنيا) ما تقلقينيش! لو مش هينفع دلوقتي تقولي إنتي فين فعلى الأقل طب فهميني إنتي كويسة؟؟

أنا كويسة جداً ما تقلقش

أهلك كويسين؟ والدك ووالدتك بخير؟

آه واللّه

طب هما عارفين يعني إنتي فين؟

طبعًا يا (صالح) دول معايا أصلًا! هو أنا هروح في حتة لوحدي يعني في وقت زي ده؟!

قالتها ضاحكة باستنكار ليقول هو:



خرجتوا تسهروا في حتة يعني؟

لأ ماخرجناش. إحنا سافرنا

بتصيفوا دلوقت؟؟

لأ

رحتوا بلدكم مثلًا؟

.. حاجة زي كده

أخذ نفسًا عميقًا وهو يقول:

بصي .. أنا محترم رغبتك في إنك ما تقوليش إنتي فين دلوقت لو مش عايزة بـــــ..

قاطعته بلهفة:

مش مش عايزة! أنا عايزة بدليل إني هقول لك بس لما أشوفك. لو ما كنتش عايزة أقول لك أنا فين ما كنتش قلت لك إني بره أصلًا

صمت تمامًا للحظات لم تفهم ما يفعله خلالها وتساءلت:

(صالح)؟؟



مرت فترة أقصر من الصمت قبل أن تسمعه يزفر ببطء ويقول:

أولًا، من فضلك ما تقاطعينيش كده تاني، ثانيًا، إيه لو ما كنتش عايزة أقول لك دي؟ هو إنتي ممكن ما تقوليليش إنتي فين بعد الجواز مثلًا؟؟

(٩)

عدن (٢٠١٥)

(نهلة)؟ (نهلة) مين؟!

كذا هتف (هشام) بعد عبارة أبيه لترد عليه أمه قائلة:

(نهلة) بنت الشيخ (علي)، مش عارف الشيخ (علي)؟؟

حملت عبارتها قدرًا طفيفًا من الاستنكار كأنها تتعجب كيف لا يعرف هذا أمرًا بديهيًا فارتسم الضيق على وجهه وهو يقول:

عارفه طبعًا!

(نهلة) دي تبقى بنته الكبيرة

أيوه أنا بسأل هي مين، يعني .. إنتي تعرفيها؟ حد فيكوا يعرفها كويس؟ إنت تعرفها يابني؟؟

توالت الإجابات عليه من كل الجهات حيث قالت كل من (ميادة) و(نجوى) بالترتيب:



بشوفها واقفة مع البنات في الساحة، قمورة كده وشكلها هادي

رفيعة وطويلة، وبتقعد دايمًا في الصفوف الأولى في الدرس حانية ظهرها من كتر ما هي مركزة مع عم الشيخ

أما صاحب الشأن فقد كان آخر من أجاب وهو يقول بتخاذل:

شوفتها في الدار مع أختها ومامتها ساعة كتب كتاب (أحمد) ابن الشيخ (عوض)

إتكلمت معاها يعني؟

بدت عبارته وكأنها قنبلة ألقاها وسط أهله الذين راحوا ينظرون إليه مؤنبين ومطلقين لعبارات استنكار سمع من بينها أمه وهي تقول:

يتكلم معاها؟! عايز أخوك يقف يتكلم مع واحدة قدام الدار؟! عشان يقولوا ابن الشيخ (عثمان) بيكلم بنات الطريقة! دول ولاد ناس محترمين مش زي اللي تعرفهم!!

هو أنا قلت يقول لها كلام عيب؟! بقول يتكلم معاها، يتعرف عليها!



رد عليه أبوه هذه المرة بعينين متسعتين قليلًا وشيء من الغضب:

الأمور هنا ما بتمشيش كده يابني

هيروح يتقدم لها وهو ما يعرفهاش ولا عمره اتكلم معاها؟!

عارفها يابني بيقول لك شافها

شافها مرة واحدة! وهتجوزوها له!! وهو موافق عادي؟؟ هو فيه حد بيتجوز كده؟!

كان دور أمه هذه المرة لترد قائلة بشمم كأنها تترفع عنه:

ولاد الناس المحترمين بيتجوزوا كده

لأ معلش بقى الكلام ده كله غلط و ....!

إحترم نفسك إنت واوعي تغلط!!

كذا قاطعه أبوه بصوتٍ قويّ أجفل له كل من في المكان، خاصة (وعد) التي قالت لها أمها بصوتٍ خفيض:



خشي كده يا (وعد) شوفي (مصطفى) صحي وللا لأ عشان نمشي

ترددت الطفلة قليلًا ثم أسرعت للداخل، وما إن فعلت حتى هتفت (ميادة):

ما تصلوا على النبي يا جماعة.البت بتلقط وممكن تروح تكرر الكلام قدام أبوها .. وللا عمها!

بنت أخو الشيخ قاعدة يا متخلف!

كذا ألقى (أمجد) ما بدلوه ببرود ولم يزد في حين أشاحت (نجوى) بوجهها بعيداً ومصمصت شفتيها بغضب وهي تقول:

مش مكفيه اللي بيعمله فينا أنا وأبوه، ويمسينا ويصبحنا به! كمان عايز يسمع البت قلة الأدب والوساخة اللي بيتعلمها لي في الشوارع مع الصيع والشمحطجية اللي شبهه!!

هو أنا قلت إيه؟! أنا هريحكوا خالص وأقوم من هنا، إعملوا اللي إنتوا عايزينه، أنا غلطان!!

قالها (هشام) بضيق وهو ينهض متجهًا للشرفة القريبة ويفتحها بعصبية جعلت الضلفة تنصفق



بشيءٍ من العنف ليدخل وهو يسمع صوت أمه من فرجة الباب الموارب وهي ما تزال تصيح:

ربنا يريحنا منك قادر يا كريم .. أيوه كسر لنا البيت زي المجانين كسرا!

خلاص بقى وخلينا في المهم شوية!!

كذا هتف (عثمان) بغضب وضيق قبل أن يتنحنح ليسلك حلقه من أثر الصياح ويقول:

أنا هقوم أكلم الراجل دلوقت واتفق معاه على ميعاد، تمانية ونص كويس؟

هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا

طنطا (١٩٧٩)

لم يقل الرجل شيئًا وهو يخلع العمامة عن رأس الصبي، ولا حتى بعدها. فقط ظل ينظر له مبتسمًا قبل أن يمد كفه الكبير ليهبط به على رأسه ثم يغمض عينيه وشفتيه تهمهمان بخفة كأنه يتكلم بلا صوت. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يفتح عينيه مرة أخرى ويعود ليبتسم وهو يسحب يده بجانبه.



أما الصبي، فقد ظل صامتًا بذهول لفترة ليست بالقصيرة هو الآخر، رفع بعدها يدًا مرتجفة نحو رأسه وأنفاسه تتلاحق بتأهب بلل ما فوق شفته العليا بحبات صغيرة من العرق، وحين وصلت يده أخيرًا إلى رأسه، هاله في البداية الملمس الذي لم تمسه يده من قبل، لم تكتس البقع الصلعاء في رأسه بالشعر فحسب، بل بدا وكأن رأسه كله قد اكتسى بطبقتين أو ثلاث زائدات منه.

ذلك اليوم وهو في طريق عودته إلى المنزل، لم يكف عن تحسس رأسه بسعادة وذهول، وسؤال واحد يدور في رأسه بلا انقطاع.

هل السر في الرجل، أم العمامة، أم الاثنين معًا؟

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

خلاء – تاريخ غير معروف

لم يعد احتكاك شفتي المتشققتين ببعضهما البعض يؤلمني، ربما لأنني كففت عن ذكر اللّه بهما بعد أن تعلمت كيف أذكره بقلبي، كيف أناجيه بروحي، وربما لأنني ما عدت أشعر بهما ولا بجسدي كله لأنني مت. الغريب أن فكرة الموت لم تخفني أو تضايقني في حد ذاتها، فقط خفت أن أموت قبل أن يغفر اللّه لي، أن ألقاه وأطلب رؤية



وجهه الكريم فيشيح به عني. لكنني لم أمت، وما زال أمامي الكثير جداً من التكفير عما فات، والصبر على ما هو آت.

أبداً تَسحُّ، وما تَشِحُّ جُفونُهُ، ...لِجَفَا الأحِبّة ، وَابلًا وَرَذاذا

هل سينتهي إلى الجنة التي طالما حلم بها أم يهوي معها إلى جهنم؟ هل كونه شريك في الأمر الذي هو مقدم عليه الآن، يرفع عنه شيئًا من حمله الأخلاقي الثقيل، وربما القانوني كذلك؟ ارتجفت مع الفكرة يده الممسكة بالصينية ليصطك كوب الشاي الزجاجي القصير عليها بالطبق الصيني الصغير أسفله. سيطر على نفسه لأنه يعرف جيداً كيف يفعل ذلك، ولأنه إن لم يفعل فسينتهي أمره وينتهي معه كل شيء هنا والآن.

طرق باب المكتب ودخل. اقترب من المكتب الأرابيسك الصغير الذي يجلس خلفه سيده، بين مكتبتين متوسطتين من نفس الطراز، ممتلئتين لآخرهما بالكتب. تنحنح ليسلك حلقه فلم يسمع أي صوت يخرج منه. دارت عيناه في الغرفة فبدت إضاءتها الضعيفة أقل مما يراها عليه دومًا بكثير. ورغم صغر حجم الغرفة، فقد بدت له المسافة ما بين الباب والمكتب طويلة للغاية، كأنه لا يقترب



منه أبداً مهما تقدم للأمام، أو يقترب ولكن ببطء شديد غريب.

لكن الأغرب من ذلك كله، كان سيده الذي ظل ثابتًا في موضعه خلف المكتب، لا يتحرك على الإطلاق، لا يرفع عينيه نحوه حتى، ولا يعتدل أو يتململ في جلسته كأنه تمثال، كأنه نائم، أو كأنه مات.

أدنو فيبعدني خوفٌ فيقلقني .....شوقٌ تمكّن في مكنون أحشائي

٢٠١٥

خيل لـ (دنيا) أنها لم تسمع شيئًا قاله (صالح) كهذا قط من قبل. صوته الهادئ جداً أخافها على عكس ما هو متوقع، لكنه نوع غير مرعب من الخوف، لم تدرك قبلًا أنه قد .. يعجبها؟ كأنه صار مخيفًا هكذا لغيرته أو مهيبًا لخوفه عليها؟ تراكب المشاعر بداخلها ألجم لسانها قليلًا لتتلجلج وهي تقول:

لأ أنا مش .. مش هقول لك ليه يعني؟ ما إنت مش .. ما إنت أكيد مش هتمنعني عن حاجة يعني، مش كده؟؟ فـ..

طبعًا مش همنعك عن حاجة



لم تعرف ما تقول فتركت له دفة الحديث ليسحب نفسًا عميقًا زفره بتنهيدة حارة وهو يضيف:

الفكرة كلها إني ببقى قلقان عليكي قوي، إنتي مش متخيلة يا (دنيا) أنا بقلق عليك قد إيه

اختلج قلبها مع نبرته اللينة وصوته الوديع الذي لم تخفت نبرة القلق فيه وهو يكمل:

كل اللي يهمني إنك تفضلي بخير عشان .. عشان بحبك

تمنت وقتها لو أنه يقف أمامها كي تمسك رأسه وتقبل جبينه بحب، لكنها أفاقت من سكرتها به على صوته وهو يقول:

إنتي معايا؟

..آه آه معاك

صمت قليلًا كأنه يستجمع أفكاره أو مشاعره قبل أن يقول:

آسف إني إتعصبت عليكي

آسف على إيه؟؟ أنا ما إتضايقتش أصلًا، بالعكس، دا أنا ..!!



انبسطتي إني اتعصبت؟!

قالها ضاحكًا فضحكت هي الأخرى وهي تقول:

لأ مش إنك..! يعني .. طريقتك في الـــ .. اللي هو الـــ .. فاهم قصدي؟؟

ظهرت ابتسامته في صوته وهو يقول برفق:

فاهم واللّه

طب إنت إزاي فاهمني دايمًا كده؟!

امتزجت الدهشة بالإعجاب في صوتها وهي تقول عبارتها التي اتسعت ابتسامته لها وبدت في صوته، وإن لم يبد شروده وخفضة عينيه قليلاً لأسفل وهو يقول:

عارفك بس كويس، أكتر ما إنتي متخيلة

وليس يَعلَم ما لاقيت من أحدٍ .....إلا الذي حلّ منّي في سويدائي

عدن (٢٠١٥)

تمطت (ميادة) وشدت جسدها بإرهاق وهي تقول:



يللا يا ماما والنبي هاتي العيال عشان نمشي أحسن أنا إتأخرت قوي

في غضون دقائق كان الصغيران يجلسان على الأريكة بملامح ناعسة يتثاءبان بقوة في تأهبٍ للرحيل، أمهما تضبط مظهرها أمام المرآة الكبيرة في المدخل، و(نجوى) تبحث عن حقيبتها ومفاتيحها قائلة:

ماتنسيش تسيبي لي الإزازة قبل ما تمشي

عندك في الشنطة الكبيرة طلعيها

قالتها (ميادة) فأسرعت أمها نحو الحقيبة المقصودة لتفتحها بلهفة وتخرج منها زجاجة مياه كبيرة امتلأت بالماء حتى نصفها، أو أكثر قليلًا، وابتسمت في سعادة كأنها تمسك كنزًا وهي تقول:

هي دي؟؟

أومأت (ميادة) برأسها مبتسمة هي الأخرى فأمسكت (نجوى) الزجاجة بحرص وفتحتها وهي تقول وقد اتسعت ابتسامتها:



يللا! كل واحد ياخد له بق بس ما يحفش ويسيب لغيره. خد يا (أمجد) اشرب واسقي أبوك، واسقي أخوك هو كمان، ولو إنه ما يستاهلش، بس بعد أختك والعيال ما يشربوا

قالتها مشيرة بقرف نحو الشرفة فالتقط (أمجد) الزجاجة وعَبَّ منها لتهتف:

يا واد إستنى سيب شوية لغيرك!

عطشان!

قالها ببروده الذي لا تعرف معه هزله من جده، مع بعض الدهشة أو الاستنكار كأنه لم يسمع ما قيل للتو. مصمصت أمه شفتيها بتخاذل في حين نهض هو ليفعل ما طلبته ثم عاد لها بالزجاجة التي شربوا منها جميعًا ولم يبق فيها إلا شربتين أو ثلاث على الأكثر. كانت (نجوى) نفسها آخر من شرب من الزجاجة قبل أن تعيد غلقها على ما تبقى فيها وهي تقول:

محدش بقى يقرب من دول عشان أبقى أسقيهم لأختكوا بكره أما ترجع

شبطت برضه تبات مع (ضحى) زي عادتها؟



ياختي خليها أهي تريحنا من جنانها شوية

قالتها (نجوى) ملوحة بيدها بلامبالاة وهي تلتقط يدي الطفلين الناعسين وتتجه معهما نحو الباب هي و(ميادة) التي لوحت لأخيها المسترخي على الأريكة بمرح قائلة:

سلام يا عريس!

جاوبها برفعة متخاذلة من يده وابتسامة خفيفة لم يدر معها رأسه عن التليفيزيون الذي تابعه بعينين ناعستين، في حين تمتمت هي بدهشة هامسة وهم يخرجون ويغلقون الباب خلفهم:

الواد ولا كأنه هو اللي هيتجوز!

اتجهوا جميعًا نحو السيارة البيضاء الأنيقة القابعة أمام الفيللا بجوار أخرى فضية أكبر حجمًا، لتفتح (نجوى) الأبواب ويركبوا جميعًا وهي تقول بشيءٍ من التذمر:

عايزاه يعمل إيه يعني يا (ميادة)؟ يقوم يرقص؟!

تنهدت قبل أن تشير نحو الطريق قائلة لأمها التي بدأت في إشعال المحرك:



خدي الطريق اللي ورا أسرع عشان ألحق أروح قبل ما بابا ييجي، مش عايزاه يرجع البيت ما يلاقينيش

من عيني .. هو عامل إيه صحيح والنبي؟ صحته عاملة إيه؟ مالحقناش نكمل كلامنا قبل ما أبوكي والعيال ييجوا وأخوكي ينكد علينا زي عادته

قالتها بلهفة التفتت لها (ميادة) بدهشة وهي تقول:

..إيه ده! إنت حد من العيال قال لك حاجة؟!

حاجة إيه؟ لا واللّه ما حد قال حاجة.هو تعبان وللا إيه؟؟

تجاهلتها (ميادة) وهي تلفت رأسها للوراء إلى حيث يجلس الطفلين شبه النائمين واتسعت عيناها مؤنبة وهي تقول بنبرة وعيد:

قلتوا إيه لجدتكم إنت وهي؟؟

نظرت لها (نجوى) ودفعتها قليلًا لتدير رأسها عنهما وهي تقول بإصرار:

يا بت محدش قال حاجة قلنا! سيبي العيال نايمة وفهميني إنتي فيه إيه!! بابا ماله؟؟!



عادت لوضعها الأول ثانية وصمتت قليلًا كأنها تفكر قبل أن تقول:

أقول لك الجد يا ماما؟

أيوه قولي في إيه!!

قالتها بصوت غمره القلق حتى أنها لفتت رأسها عن الطريق بسرعة مستفهمة في محاولة لقراءة وجه ابنتها التي عادت تقول:

بس الكلام ده ما يطلعش بره!

أكيد طبعًا! أنا مجنونة؟!

صمتت للحظة أخرى وقد شردت في الطريق شبه المظلم أمامها قبل أن تقول بصوت رن فيه الحزن:

بابا تعبان فعلًا اليومين دول

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مدامةً .....سَكِرْنا بها، من قبلِ أن يُخلق الكَرمُ

رؤيا – فيما يرى النائم

لماذا يشعر وكأنه رأى هذا المشهد من قبل؟ لم يره هو بالضبط بحذافيره ولكن .. كأنه رأى شبيهًا



له في وقت سابق من حياته. رأى سيده يجلس خلف مكتبه هكذا، وإضاءة الغرفة كانت شبيهة جداً بهذه، وإن لم تكن بهذا الضعف. كان يمسك وقتها أيضًا بنفس بصينية الشاي، لكن قدميه لم تنغرسا في سجاد الأرضية السميك الذي شعر كأنه نوع من الرمال المتحركة، لا تسحبه لأسفل وإنما تقيد حركته بشكل غريب، كأنما تريد تثبيته في مكانه، لذلك يسير بهذا البطء، أو أن ساقيه قد لانتا بطريقةٍ ما، فما عاد قادرًا على المشي عليهما بشكلٍ طبيعيّ.

وصل إلى المكتب أخيرًا وتنحنح بلا صوت ثانية وهو ينحنى ليضع الصينية عليه. رفع عينيه ليشعر أن إضاءة الغرفة خفتت أكثر منذ دخل، كأنها مضاءة بشموعٍ أوشكت على لفظ آخر لهب لها. كل شيء يبدو غريبًا الآن، غريبًا عما كان عليه منذ دخل، منذ دقائق. اللوحات المعلقة على الجدران تبدو وكأنها مسودة أو كأن أحبارها تذوب ببطء. الصور بمن فيها من أناس يبدون وكأنهم يتطلعون إليه، بعيون تلمع كأنهم أحياء، يشعر أنهم يتحركون في أماكنهم ببطء، حركة طفيفة كأنهم يتنفسون، أو يتململون في أماكنهم.

هل يتخيل كل هذا؟ أهي الإضاءة الضعيفة الباهتة التي لا تكف عن الذبول منذ دخل، حتى صار شبه عاجز عن رؤية ما حوله جيدًا؟ شعر فجأة أنه يريد



الهروب، الخروج من هنا. استدار ليفعل لكنه لم يجد الباب، أو لم يره، أما سيده الذي ظن أنه نام فلم يكن نائمًا على الإطلاق، بل رآه يجلس منتصبًا خلف مكتبه، ينظر إليه بجمود وثبات.

وقالوا شربتَ الإثمَ كلاَّ وإنّما .....شَرِبتُ التي، في تَرْكِها، عندي الإثمُ

القاهرة (٢٠١٥)

منطقة (الحسين)

في الساحة الواسعة تناثر الباعة الجائلون وبعض المارة. وحول مئذنة المسجد الكبير المدببة تطايرت الحمائم والعصافير. ورغم القيظ المتوقع ما بين الظهر والعصر، فقد سبح المكان في نسائم هواء باردة تنعش كل واقف وسائر في المكان، من بينهم ثلاث فتيات تحملن بعض الأكياس الصغيرة، وتخرجن من أحد الممرات العتيقة المحيطة بالساحة، والمؤدية إليها.

طب نبص بصة على محل الفضة اللي (شذى) قالت عليه يا (دنيا) وبعدين نقعد؟

إحنا درنا في المنطقة كلها على كعوبنا يا (مي)، وأنا خلاص تعبت بجد ومش قادرة



ممكن نقعد شوية نشرب حاجة وبعدين نقوم نكمل

كذا قالت صديقتهما (شذى)، التي اصطحبتهما في تلك الرحلة الممتعة رغم إرهاقها، بين حوانيت (خان الخليلي) القديمة، و ما يحيط به من شوارع صغيرة متفرعة.وصلن لطرف الساحة المطلة على مسجد الإمام (الحسين)، عند محلات الطعام والشراب الكثيرة التي تنافس العاملون بها على الترحيب المداهن بكل مار من أمامهم، مصريين وأجانب، حتى كاد الواحد منهم يجذب زبونه المحتمل من ملابسه ليجبره على الجلوس عنده.

أما (دنيا) فقد ألقت بنفسها على كرسي أول مقهى صادفها مثيرة غل كل المقاهي الأخرى وهي تقول:

أنا حاسه إني لو قعدت دلوقتي مش هقوم تاني، وهتشيلوني شيل على البيت

ضحكت (مي) وهي تجلس بدورها قائلة:

خليكي جدعة معايا عشان أتجدعن معاكي إنتي كمان لما تتجوزي



ضحكت (شذى) وهي تجلس كذلك في حين نظرت (دنيا) شذرًا وهي تقول:

أخليني جدعة؟! بعد كل ده؟؟ ماشي يا (مي)، شوفي بقى من هيقوم وللا يروح معاكي في حتة تاني!

لتسرع (مي) وتقول مداهنة بطريقة مضحكة:

بهزر معاكي يا (دندن)! أنا أقدر برضو؟!

علت ضحكة (شذى) على منظر (دنيا) وهي تقول ببرود:

أيوه ياختي كليني بالكلام كليني

حنة!

كذا هتفت (شذى) فجأة لتنظر لها صديقتاها بتساؤل، فتجداها تشير لامرأة سمراء في عباءة سوداء وحجاب مطرز من نفس اللون، تقترب منهما مبتسمة وهي تحمل في يدها حقيبة وبضع أدوات بدا من منظرها أنها مخصصة لرسم الحنة.

أنا كمان عايزة أرسم!



كانت تلك من (مي) التي شاركت (شذى) لهفتها على الحنة، كأنها نسيت لهفتها السابقة على الفضة. أشارت (دنيا) للنادل كي يأخذ طلباتهن في حين انشغلت صديقتاها بتشمير كميهما، والمرأة بالرسم على ذراعيهما، وحين انتهت أخيرًا وجدت (دنيا) تطلب منها بهدوء أن ترسم لها هي الأخرى شيئًا رقيقًا على كفها. بدأت المرأة ترسم بالفعل لتترك (دنيا) يدها لها، في حين راحت كل من (مي) و(شذى) تهفان على ذراعيهما ليجف الرسم بسرعة، و(مي) تقول بخبث عابث:

ما إنتي بترسمي إنتي كمان أهو. أمال كنتي عاملة نفسك عاقلة وبتبصي لنا أكننا مجانين ليه؟ ده أنا إفتكرتك ما بتحبيش الحنة ومش هترسمي حاجة

لأ أنا بحبها جدًا طبعًا، بس لازم أصرخ يعني زي المهافيف عشان أثبت لها إني بحبها؟!

احمر وجه (شذى) وهي تضحك فعادت (مي) تقول:

شوفتي؟ آديكي أحرجتي البنت أهو، عاجبك كده؟!

وتتحرج ليه؟ هي عارفة إني لما قلت مهافيف كان قصدي عليكي إنتي مش هي. بلاش شغل تهدية النفوس ده والنبي، هه! بلاش



ضحك الثلاثة والنادل يأتي بطلباتهن التي شرعن في تناولها بلهفة العطش والإرهاق. وحين انتهت المرأة أخيراً من الرسم على كف (دنيا)، كان أذان العصر يرتفع من مسجد (الحسين) الذي لا يبعد عنهن سوى خطوات قليلة. وحين أوشكت (دنيا) على الفراغ من مشروبها، نظرت إلى صديقتيها قائلة:

نخلص اللي في إيدنا ونقوم نصلي ونقرا الفاتحة؟

أومأت (شذى) برأسها إيجابًا في صمت في حين قالت (مي) مستفسرة:

نقرا الفاتحة فين؟

في سيدنا (الحسين)

إنتي عايزة تصلي في (الحسين)؟؟

آه

بس ده حرام!

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا



(١٠)

إني لأرمقه و القلب يعرفه .....فما يترجم عنه غير إيمائي

عدن (٢٠١٥)

في وسط (عدن)، توجد الساحة الواسعة المفتوحة، المخصصة لكل ما خصصت له الدار، ولكن عند سماح الطقس بذلك، كأن الدار مكان شتوي والساحة صيفية. درس، حضرة، احتفال بمولد أو ما شابه، حتى أن بعض حفلات الزفاف أو عقد القران تقام هناك.

ورغم رحابة المكان واتساعه، إلا أن أعداد المنضمين دوريًا للطريقة كانت تصنع تضخمًا، يجعل الساحة في بعض الليالي تضج بالمريدين حتى تمتلئ عن آخرها بهم، وحين تنتهي الأماكن المفروشة بالسجاد، يلجأون للجلوس على بلاط الأرضية العاري، أو الحاجز القصير الذي يحيط بالمكان، بل وربما مكثوا في سياراتهم وسط السيارات الكثيرة المحيطة بالساحة، والتي يبلغ من كثرتها أحيانًا ألا يراعي أصحابها ركنها على جانب الطريق الذي لم يعد مرئيًا أصلًا، ليصبح المكان كله أشبه بساحة جراج مفتوحة، تتناثر فيها السيارات بلا نظام



وكيفما اتفق، وبشكلٍ يجعله من المستحيل قليلًا مغادرة المكان قبل انتهاء الحدث المقام من أجله كل هذا.

ورغم دورية مواعيد الدروس الأسبوعية، إلا أن حضرات الذكر التي تتبعها أحيانًا لم تكن كذلك. لكن تلك الليلة، من حسن حظ (ضحى)، كانت واحدة من الليالي التي تقام فيها الحضرات، و(ضحى) تحب الحضرات كثيراً، لا تشارك فيها كبقية نساء الطريقة، لكنها تجلس معهن بالقرب منها تتطلع إليها، تذوب فيها، وتهتز طربًا معها.

لم تكن هي وأمها من المقيمين في (عدن)، ورغم ذلك فقد كان لهما شاليهًا صغيرًا مريحًا تبيتان فيه حين تتمكنان من الفرار قليلًا من مشاغل الحياة ومتاعبها من دراسة أو عمل، لذا، فقد كان اتفاق واحد من تلك الأيام مع ليلة تقام فيها حضرة، يعد حدثًا رائعًا جللًا بالنسبة لـ (ضحى).

نسيم الليل، أضواء المكان التي تخفض وقت الحضرة، والهدوء الذي يعم كل شيء، حتى تكاد تشعر أن صرصور الليل كف عن زقزقته الرتيبة كي لا يؤثر على أصوات الذكر، حتى الأشجار الصغيرة المحيطة بالساحة، تبدو وكأنها تكف عن الحفيف حين يحتك الهواء بها بشكل ما.



جلست على الحاجز القصير المحيط بالساحة، بجوارها (ابتسام)، امرأة أنيقة على قدر من الجمال، لا تعرف عنها (ضحى) الكثير، لا شيء تقريبًا سوى أنها مطلقة لها ولدين من طليق لم تره في حياتها ولا تعرف عنه شيئًا، لكنها لم تر منها سوى تهذيب ورقي، وبصمة مميزة يعرفها الجميع بها، وعندما يرونها في أي مكان يهمون بالدخول إليه، ويعرفون أن الشيخ (مصطفى) بداخله، يعرفون أيضًا أن (ابتسام) قد سبقتهم، كالعادة، إليه، وهي سيارتها الشبابية الزرقاء التي لا تجد مثلها كثيرًا مع أبناء الطريقة، خاصة من هم في سنها من النساء، وإن دلت على شيء فهي تدل على حال ميسور وقليل من الجرأة.

لكن المرأة لا يظهر منها أي فعل أو مظهر يشي بأي جرأة زائدة، لا في ملبسها ولا في طريقة كلامها، بالعكس، فقد كانت ثيابها كلاسيكية ومحتشمة جدًا، ورغم ذلك فإنت تلمح جرأة ما في صفاتها، أو تشعر أن هالة ما تحيط بها، تميزها عن قريناتها في الجوهر، رغم عدم اختلافها عنهن كثيرًا في المظهر.

عند انتهاء الحضرة، بدأ المكان يعود لحاله الأولى تدريجيًا، الأضواء تعلو، محركات السيارات تشتعل لتنهض من سباتها وتتحرك، والكل ينهض من مكانه ببطء. وقفت (ضحى) في مكانها في طرف



الساحة تنتظر أمها التي وصلت للدرس قبلها، وبالتالي جلست في صف متقدم من صفوف النصف الخاص بالنساء، ريثما تخرج إليها من بين زحام المتسامرات وملقيات السلام على بعضهن البعض. لم تتأخر (عايدة) كثيراً، ولم تتغير ابتسامة وجهها البشوش كذلك، إلا أن (ضحى) شعرت على الفور بتغير في وجه أمها، حين وجدتها تقف بالقرب من (ابتسام).

حبّي لمولاي أضناني و أسقمني .....فكيف أشكو إلى مولاي مولائي

عدن (٢٠١٥)

تعبان إزاي خير؟ ماله؟؟

وطي صوتك بس لا العيال تصحى، هما عارفين إنه تعبان بس ما يعرفوش التفاصيل، ومحدش بره البيت يعرف حاجة عن الموضوع ده خالص!

خفضت (نجوى) صوتها بالفعل وإن لم تنخفض رنة القلق فيه وهي تقول:

أنا هسكت خالص أهو بس احكي!



أخذت (ميادة) نفسًا عميقًا وصمتت قليلًا قبل أن تقول:

بقى له كام يوم مش عارف ينام، الرؤى اللي بيشوفها زادت، والظاهر كده إن أنوارها تقيلة حبتين

بسم اللّه الرحمن الرحيم! هو بيشوف إيه؟؟

رفعت كتفيها وقلبت كفيها بحيرة وهي تقول:

اللّه أعلم! هو ما حكاش حاجة لأي حد، بس بيقوم كل يوم تعبان قوي، أنا بشوفه يا ماما، تحت عينيه أسود كأنه ما نامش طول الليل، ووشه منفخ كأنه كان بيتخانق مش نايم!!

بدا الهلع على وجه (نجوى) وهي تقول همسًا بخوف مشفق:

هو فيه حد عايز يأذيه يا (ميادة) وللا إيه؟؟!

برعب مماثل قالت وقد شحب وجهها قليلًا من الفكرة:

مش عارفة يا ماما .. الظاهر كده!



طوعًا لقاضٍ أتى في حُكمِهِ عَجَبًا، ....أفتى بسفكِ دمي في الحلّ والحرمِ

القاهرة (٢٠١٥)

منطقة (الحسين)

حرام؟ هو إيه اللي حرام؟

الصلاة في (الحسين) طبعًا!

ليه بقى إن شاء اللّه؟؟

لأن فيه قبرا!!

قالتها (مي) باستنكار كأنه أمر بديهي، أما (دنيا)، فقد تملكها نوع من الاشمئزاز الغاضب كأنها ترى طفلًا يبصق على رجل ناضج، لكنها حاولت أن تخفف قليلًا من الشمم الذي تحدثت به وهي تقول:

أولًا اسمه سيدنا (الحسين)، مش (الحسين)، لأنه مش بيلعب معانا، ده حفيد الرسول

بدا التململ على وجه (مي) رغم صمتها كأنها معترضة ولا تعرف كيف ترد، لتكمل (دنيا):



ومادام حفيد الرسول يبقى المكان اللي مدفون فيه ماسموش قبر كده وخلاص، اسمه مقام، لأن المدفون فيه مش شخص عادي. والصلاة فيه مش حرام

بدا وكأنها تنتظر الجملة الأخيرة كي تهتف:

لأ طبعًا حرام!

مين قال؟

ما بتقريش الكتب الصغيرة اللي بيوزعوها دي؟ إبقي دوري فيها على حكم الصلاة عند القبور

كتب صغيرة إيه؟

قالتها ببرود لم تلتقط (مي) ما فيه من سخرية فشرعت تشرح بحماس:

الكتيبات يا بنتي اللي بيبقى فيها أحكام الـــ...

قاطعتها:

عارفاهم يا (مي)، بس أنا باخد معلوماتي من شيوخ حقيقيين، مش شوية كتب محدش عارف من اللي كاتبها



والشيوخ دول بقى بيقولوا إن الصلاة عند القبور حلال كده عادي خالص؟ دول شيوخ إيه دول؟!

قالتها بسخرية ضاحكة أثارت غيظ (دنيا) حتى احمر وجهها وهي تقول بتحدي:

صليتي على ميت قبل كده يا (مي)؟؟

بدت وكأنما باغتها السؤال لكنها ردت بتحدٍّ مماثل:

صلاة الجنازة دي حاجة تانية!

مش قبل صلاة الجنازة بيبقى فيه صلاة الفرض الجماعة عادي، وبعد كده الناس بتصلي صلاة الجنازة على الميت؟

.. ما يمكن المساجد اللي بيعملوا كده غلطانين

المسجد الحرام غلطان؟

مين بقى اللي قال إن في المسجد الحرام بيعملوا كده؟!

أنا كنت هناك وشوفت، وصليت معاهم بنفسي، وأظن مامتك كانت هناك السنة اللي فاتت، تقدري تسأليها لو عايزة



قالتها بتحدٍّ واثق ليرتسم غضب حقيقي مكتوم على وجه (مي) وهي تقول:

أيوه بس ده مش قبر فيه حد مدفون، ده واحد ميت وهيشيلوه

والحرم النبوي؟

إنتي عايزة تقارني قبر الرسول بأي حد تاني؟!!

إنتي ما تعرفيش إن قبر سيدنا (أبو بكر) وسيدنا (عمر) موجودين هناك كمان معاه؟

الـ .. الحرم النبوي برضو مش زي أي مكان تاني

اتسعت ابتسامة (دنيا) وهي تقول فجأة:

لو ساكنة في مكان عادي، مش الحرم النبوي، وجارك واحد مش مسلم، هندوسي مثلًا، والقبلة عندك في البيت في اتجاه الحيط اللي بينك وبين جارك ده، صلاتك صحيحة ولا لأ؟

.. معرفش

صحيحة طبعًا



كانت تلك من (شذى) التي دخلت أخيرًا في الحوار ملقية بما في دلوها مما تعرفه، والذي جعل (مي) تحدجها بنظرة جانبية سريعة في حين أكملت (دنيا) بابتسامة ظفر خفيفة:

لو الراجل الهندوسي ده مربي كلب عنده في البيت مثلًا؟

عادت (مي) لتململها الضائق في حين أومأت (شذى) برأسها ثانية و(دنيا) تعود تقول:

ولو الكلب ده مات، والراجل دفنه في بيته؟

نفس ردود الأفعال.

لو الراجل بقى نفسه مات، ووصى إنه يندفن هو كمان في بيته، فبقيتي بتصلي وإنتي متوجهة لحيطة وراها واحد هندوسي مدفون هو والكلب بتاعه؟

صمتتا وصمتت هي كذلك لثوانٍ كأنما لتلتقط أنفساها قبل أن تختتم شرح مثالها قائلة:

طب معقول تبقى الصلاة في مكان، مدفون فيه كلب وواحد مش مسلم، صحيحة، لكن في مكان، مدفون فيه ولي أو واحد من آل بيت النبي، حرام؟!



يا رجل لو كان مثلك كافرًا فما على ظهر الأرض مؤمن واحد

رؤيا – فيما يرى النائم

ظل سيده ينظر له من خلف المكتب بثبات مخيف، وغير مفهوم، وجهه شاحب بشكل غريب، عيناه الواسعتان تبدوان أوسع ولا ترمشان، صامت تماماً، فقط شفتيه تهمهمان بشيءٍ لا يفهمه ولا يسمعه.

هل .. هل عرف؟؟ هل عرف بالأمر؟!

كان ذلك حين شعر بالضغط على عنقه، كأن أحدهم يخنقه، نظر بسرعة لسيده ليجده جالساً كما هو في مكانه كأنه تمثال، لا يتحرك فيه سوى شفتيه اللتين تهمهمان بلا انقطاع، وهاله أن يديه كانتا مرتخيتان إلى جانبه في استسلام.

دارت عيناه حوله بذعر يبحث عما يخنقه، فتح فمه ليشهق بلا صوت وهو يرى عشرات العيون الكبيرة جداً، وبشكل غير طبيعي، تحيط به من كل جانب.عيون كل من في الصور وقد بدوا وكأنهم مدوا منها وجوههم فقط ليحيطوا به وقد انضغطت تلك الوجوه عن آخرها حتى انتفخت أعينها وتضخمت بشكل غريب غير آدمي. أما



أياديهم، فقد التفّت جميعًا فوق بعضها البعض حول عنقه فيما يشبه رباطًا متلاحمًا لا يخترق، فكلما فك زوج من الأيدي، لف عليه واحد آخر.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ

عدن (٢٠١٥)

نظرات غريبة، جمل مبتورة، وشيء غامض يبقى معلقًا في سقف المكان والحلوق، هذا ما رأته (ضحى) دومًا من أهلها عند ذكر (ابتسام)، خاصة بين أمها وزوجة خالها، ومعهما بالطبع، (ميادة) ابنة خالها، كل هذا دار في رأسها بسرعة، وهي ترى تغير وجه أمها عند رؤيتها لـها مع (ابتسام).

سلمت المرأتان على بعضهما البعض بشكل عادي جدًا، بل وودود كذلك. لكن (ضحى) بعدها، وفور انتهاء السلام المقتضب، شعرت بأمها تضغط ذراعها خفية وهي تستأذن مبتسمة بدبلوماسية، لتسحب (ضحى) معها مبتعدة بسرعة شعرت معها وكأنها على وشك الركض إن كان في مقدورها.

نظرت متسائلة لتجدها تنظر باتجاه مجموعة من النسوة تحلقن حول امرأتين ورحن يسلمن عليهن



بحرارة واحترام، وهما الحاجة زوجة الشيخ (مصطفى)، و(بتول) ابنتهما، واللتان بدا عليهما التواضع والبساطة في التعامل وحتى في المظهر، وهما تتبادلان أحاديثًا قصيرة ودية مع من تحطن بهما من النساء، وقد وقفت (عايدة) ومعها (ضحى) قريبًا كأنهما تنتظران فجوة بين تلك الحلقة كي تدخلا وتسلما هما كذلك. وحين سلمتا أخيرًا وتأهبتا للرحيل، انتظرت (ضحى) قليلًا كي يبتعدا بمسافة كافية، لتسأل:

إنتي ليه مشيتي بسرعة كده واحنا واقفين مع (ابتسام)؟

عشان نلحق نسلم على الحاجة و(بتول) قبل ما يمشوا

بس إنتي وشك اتغير أما شوفتيها، وغمزتيني جامد كده وشديتيني .. إنتي عمرك ما عملتي كده وأنا واقفة مع أي حد تاني

لأ بس كنت خايفة لا ترغي بقى ونتعطل..

إحنا علاقتنا بيها مش قوية قوي كده عشان تقف ترغي معانا، وكان ممكن ناخدها تيجي تسلم معانا حتى عادي، زي ما بنعمل مع أي حد، إنتي



كأنك ما كنتيش عايزاها تعرف إننا رايحين نسلم عليهم

كان من الواضح أن (عايدة) تخفي شيئًا أو لا ترغب في التحدث عن شيء بشكل مباشر إلا أنها قالت بسرعة:

لأ طبعًا، ده العكس..

يعني إيه؟؟

صمتت لثوان كأنها تفكر بتردد قبل أن تقول:

يعني أنا ما كنتش عايزة الحاجة هي اللي تعرف إننا كنا واقفين مع (ابتسام).

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ

عدن

كان يعرف ما يحكى عنه من أقاويل.

حكى من حكى عن رجل طويل عريض الكتفين، يرتدي ملابسًا داكنة، ويسير وحده في الظلام. دائمًا وحده، ودائمًا في الظلام.خطواته واسعة ثابتة، وفيها شيء غريب. وجهه لا يظهر بالكامل أبدًا، وكأنه يحمل ظلاله معه أينما سار، أحيانًا في



الطرقات كأنه هائم بلا هدف، لا يعرفون من أين يأتي، ولا لأين يذهب، وأحيانًا أخرى قرب المقابر، أو عند المقام. بعضهم رأى عينيه تلمع من بعيد، وبعض آخر سمع صوت بكاء خفيض يأتي من ناحيته.

لكنهم جميعًا لم يعرفوا من هو، لا يسمعون ما يسمعه، ولا يرون ما يراه، من صاحبه المدفون هناك، ومن الظلم الذي وقع عليهما معًا. كلاهما يعرف الظالم، وكلاهما كذلك لا يملك من أمره شيئًا، ولا يقدر على شيء. يتشاركان في العذاب بسبب ذلك الظلم، واحد فوق الأرض والآخر تحتها. لا يملكان إلا الدعاء لمن لا إله إلا هو، والصبر حتى يقضي سبحانه أمرًا كان مفعولًا.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ

القاهرة (٢٠١٥)

منطقة (الحسين)

ها؟ هنقوم وللا إيه؟

..أنا مش هاروح معاكوا

كذا قالت (مي)، لتتساءل (شذى):



مش هتصلي؟

لأ هصلي طبعًا! بس مش في (الحسين)

أمال فين؟ هنا على الترابيزة؟!

قالتها (دنيا) بضحكة ساخرة وهن تنهض، في حين قالت (مي) ببرود:

لأ في الأزهر

هتاخدي النفق عشان تعدي الشارع وتروحي تصلي في مسجد بعيد وإنتي جنبك واحد على بعد خطوتين؟!

آه عادي

بس المسجد القريب هيخليكي تلحقي صلاة الجماعة من أولها والبعيد لأ

زفرت بشيء من الضيق وأشاحت بوجهها وهي تقول:

ما أنا الصراحة لسه مش مقتنعة إن الصلاة عند القبور حلال



تعجبت (دنيا) بداخلها لكنها هزت كتفيها بمعنىأنتِ وشأنك قبل أن تنقسما لتبتعد عنهما (مي) في طريقها لـ (الأزهر)، في حين تسرع هي و(شذى) نحو مدخل النساء الجانبي في مسجد (الحسين).

بعد الصلاة نهضت (دنيا) وهي تتمتم همساً ببضعة أذكار وأدعية مشيرة لـ (شذى) كي تلحق بها عند المقام. سارتا وسط الزحام الخفيف ودخلتا إلى القاعة المجاورة الأقل اتساعاً من سابقتها، والتي يقع المقام في مقابلة الداخل من أحد بابيها الكبيرين، خلف حاجز معدني قصير مبصم مزيت قليلًا، لكنه رغم ذلك حلو الرائحة إلى حدٍّ لا يصدق.

بدا تعامل (دنيا) مع المكان روحانياً، في حين تعاملت (شذى) معه كنوع من المزار السياحي، وإن نتج عن ذلك أن ظهر عليهما معاً نفس الاهتمام والانبهار، إلا أن اهتمام الأولى كان جله بالضريح نفسه، أما الثانية فبكل تفاصيل المكان. (دنيا) لا يتوقف فمها عن الهمهمة فيما يشبه الدعاء، في حين قرأت (شذى) الفاتحة ولم تعرف بعدها ماذا تزيد، عيناها شبه مبهورتان تدوران في كل اتجاه، وتتعلقان أحياناً بالسقف لتتوه في زخارفه، وتشعر أن ألوانه تنومها مغناطسياً.

المسجد من جوه حلو قوي!



قالتها (شذى) بحرارة وهما تخرجان من المسجد، لتقول (دنيا):

إنتي أول مرة تشوفيه؟

لأ شوفته كتير طبعًا وعارفة شكله من بره، بس عمري ما دخلته قبل كده

ارتسمت على وجه (دنيا) ابتسامة واسعة وهي تقول:

يعني أنا السبب في إنك تدخليه! شوفتي حلو إزاي؟

لأ الزخارف اللي على الحيطان والسقف .. والمعمار بتاعه .. لأ تحفه، كله تحفة!

هو تحفة معمارية طبعًا وأثر مهم مش مجرد مقام. بس إيه رأيك في الإحساس؟ مش حاسة كده بنوع من الهدوء والسلام النفسي؟ كأنك بقيت أخف أو اتغسلت من جوه؟

هو المكان جميل جداً الصراحة، وحتى قاعة الضريح مش هي قاعة الصلاة ولا في اتجاه القبلة، يعني مفيهاش شبهة شرك والعياذ بالله. المشكلة بس



في الناس اللي بيعملوا بدع بقى وحاجات شركية وموالد و..

مالها الموالد؟

لأ الموالد بقى أكيد حرام يا (دنيا)!

ابتسمت وهي تعود لتسأل:

أيوه حرام ليه؟

اتسعت عينا (شذى) في دهشة وهي تقول:

بيعملوا حاجات عجيبة وياخدوا مخدرات ويقطعوا نفسهم بالأمواس .. أنا واللّه لما شفتهم م..

مين دول اللي بيقطعوا نفسهم بالأمواس؟؟!

قاطعتها بدهشة أكبر واستنكار، فصمتت قليلًا قبل أن تجيب ببطء كأنها تتذكر:

..الصوفيين دول



(١١)

مريدو الدنيا فيهم كثرة، ومريدو الآخرة فيهم قلة، ومريدو الحق عز وجل الصادقون في إرادته أقل من كل قليل. هم في القلة والعدم كالكبريت الأحمر. هُم آحاد أفراد في الشُّذوذِ والندور. وكذلك المشايخ الكمل قلة من قِلة من قِلة – عبد القادر الجيلاني.

القاهرة (٢٠١٥)

حرمًا

جمعًا إن شاء اللّه

كذا رد (صالح) مبتسمًا على (دنيا) وهو يجلس على الكرسي المقابل لها في إحدى كافيتريات الجامعة، على طاولة في مكان هادئ منها.

آسف إني إتأخرت عليك

قالها مضيفًا فأسرعت هي تقول:

إنت ما إتأخرتش أصلًا

تورد وجهه قليلًا وهو يقول بابتسامة شبه خجلى:



لا هو أنا إتأخرت شوية لازم أعترف، بس شكرًا إنك مستحملاني كده وبتجامليني

في الخيال فقط يعتذر الرجل لحبيبته بتهذيب حين يتأخر عن موعده معها أربعة دقائق فحسب. كذا فكرت وهي تراقبه يستأذن منها لينهض ويأتي بطلباتهما، لكنها حين رأته وهو يجيء، خيل لها أنها لمحت شيئًا غريبًا في مشيته.

مال رجلك يا (صالح)؟

مالها؟

قالها وهو يضع ما أتى به على الطاولة ويجلس فقالت:

مش عارفة حاسة كأنك .. بتعرج بها، على خفيف قوي. هي واجعاك؟

رد ببساطة وهو منشغل بتقليب قهوته:

لا مش واجعاني ولا حاجة

قطبت جبينها قليلًا كأنها تفكر أو تتذكر قبل أن تهز رأسها قائلة:

شكلي كان بيتهيألي



ثم تنحنحت قليلًا وقالت:

فاكر لما اتكلمنا وقلت لك إني أنا مسافرة مع أهلي؟

هز رأسه إيجابًا في صمت فعادت تقول:

أنا هفهمك بقى أنا كنت فين

يقولونَ لي صفها فإنت بوصفها .....خَبيرٌ، أجَلْ! عِندي بأوصافِها عِلْمُ

القاهرة (٢٠١٥)

منطقة (الحسين)

مخدرات إيه وأمواس إيه؟ من قال إن الصوفية بيعملوا كده؟! إنتي شوفتي مولد وكان فيه الحاجات دي؟؟

كذا قالت (دنيا) باندهاش وهي تقف في الساحة مستندة إلى سور قصير بجوار (شذى) التي قالت:

شوفت فيديوهات وكان فيه ناس عليها دم و ...

لأ أقصد حضرتي مولد بنفسك وشوفتيه على الطبيعة؟



الصراحة لأ

طيب أنا شوفت موالد على الطبيعة وبقول لك، مفيش أي حاجة من الكلام ده

إنتي روحتي مولد ؟؟!

قالتها كأنها ترى مخلوقًا فضائيًا فأجابتها مبتسمة:

كتير، وعارفة الصوفية كويس كمان

رفعت حاجبيها باهتمام مندهش، فتابعت (دنيا):

عشان أنا نفسي صوفية

صفاءٌ، ولا ماءٌ، ولُطْفٌ، ولاهَوَاً، ....ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

عدن (٢٠١٥)

أغلقت باب الشاليه خلفها بحرص وسعلت قليلًا حين ارتطمت بها لفحة من هواء الصباح البارد. المشهد في ذلك الوقت شبه خال، وشديد البياض، وكأن الشمس ما تزال تتمطى في كسل ولم تفق أو تشحن قواها بعد بما يكفي لإضفاء حرارتها ولونها الأصفر على المكان. الهواء البارد يملأ



صدرها تاركًا رائحة العشب المنعش في أنفها، وأصوات رشاشات المياه المتلاحقة كموسيقى تصويرية تحفز على النشاط، تدفعها للسير أسرع وبخطوات أخف.

لم تكن من محبي الصباح، وتفضل عليه أي فترة من الليل، إلا الصباح في (عدن)، يختلف عنه في أي مكان آخر، هنا نفسها دومًا هادئة، وبشكل غير مفهوم، متاعبها تبدو صغيرة شديدة التفاهة، أو على الأقل مقدور عليها، كأنها مرتاحة فوق سحابة لينة، تمكنها في نفس الوقت من رؤية العالم كله بمشاكله ومشاكلها كشيء صغير جداً، تستطيع احتواءه في راحة يدها لو أرادت.

لم يخرق الهدوء البكر سوى صوت الغربان المزعج التي تكره سوادها الكئيب رغم حبها لسواد الليل، ولتتساءل في نفسها إن كانت شؤمًا في حد ذاتها، أم أن شيوع الاقتناع بأنها كذلك جعلها كذلك بالفعل. وصلت أخيرًا إلى الفيللا وصعدت السلالم القليلة المؤدية إلى مدخلها لتتجه إلى الباب وتفتحه، فتجد الصالة خالية إلا من أمها التي جلست على الأريكة بملابس البيت وآثار النوم ما تزال على وجهها، لتقول بشيءٍ من الدهشة:

صباح الخير .. إيه يا ماما إنتوا لسه ما جهزتوش؟ إنتوا مش راجعين القاهرة والا إيه؟!



اصطبحنا واصطبح الملك للّه .. إنتي داخلة متسربعة على إيه؟

أنا مش متسربعة، إنتوا اللي قلتوا لي آجي بدري عشان هنمشي على طول، دا إنتوا أكدتوا علي وأنا صحيت بدري مخصوص .. وإنتوا لسه نايمين!

نهضت متجهة للداخل وهي تتثاءب وتلوح بيدها بملل قائلة:

بقول لك إيه ما توجعيش دماغي، الفطار عندك في البلكونة روحي افطري لحد ما أصحي أبوكي وأخوكي، البيه الكبير المفروض صحي بس شكله راح نام تاني جنب الأكل

أنا صاحي ما نمتش على فكرة

أتت العبارة من الشرفة بصوت مشروخ شبه نائم لتتجه إليها وتدخل وهي تبتسم قائلة:

صباح الخير يا (هشام)

(دنيا) باشا .. صباح الفل

هُوَ الحُبّ فاسلمْ بالحشا ما الهَوَى سَهْلُ .....فَما اختارَهُ مُضْنًى بهِ، ولهُ عَقْلُ

القاهرة (٢٠١٥)

الصوفية هي عبادة المحبين، إنك تعبدي ربنا عشان بتحبيه، مش طمع في ثوابه زي التجار، ولا خوف من عقابه زي العبيد

بدا الاهتمام في وجه (شذى) وهي تسمع(دنيا) تكمل قائلة:

والمتصوفين مش زي ما هو مشاع عنهم إنهم عالم تايهة ومجذوبة، أو لابسين خيش ومبهدلين وماشيين في الشارع يتطوحوا ويقولوا (حي!) بطريقة كوميدية زي الأفلام، لأن الصوفية زهد مش فقر، مش إن ما يكونش عندك أي حاجة، بالعكس، ده يبقى عندك كل حاجة، وإنتي اللي زاهدة فيها. زهد يعني الحاجة تبقى موجودة قدامك وإنتي اللي مش عايزاها، مش مش قادرة تمتلكيها

أومأت (شذى) برأسها ببطء كأنها تفكر أو تستوعب و(دنيا) تتابع:

يعني مثلًا شيخ الطريقة اللي أنا فيها، رجل أعمال ناجح وشيك، وما شاء اللّه عليه غني جداً، بس قمة في التواضع، راجل بجد أنا ما شوفتش زيه قبل كده! عالم حقيقي بس في نفس الوقت بسيط ودمه خفيف، ويوصل لك المعلومة بالراحة،



تحسيها دخلت قلبك قبل ما تدخل عقلك، يحسسك قد إيه الدين فعلًا يسر مش عسر أبداً

نصحتُكَ علمًا بالهوى والّذي أرَى ..... مُخالفتي فاخترْ لنفسكَ ما يحلو

..شيعة؟

كان ذلك أول ما نطق به (صالح) بعد فترة صمته الطويلة أثناء حديث (دنيا) وبعده كذلك. أما هي فقد خيل لها أنها لم تسمع أو لم تفهم ما قاله لتسأله بتردد:

إيه؟

إنتوا شيعة؟؟

فإنْ شيءتَ أنْ تحيا سَعيداً، فَمُتْ بهِ .....شَهيداً، وإلاّ فالغرامُ لَهُ أهْلُ

بيفسر القرآن والحديث بطريقة تخليك تقولي (أنا إزاي فعلًا مافكرتش إن الآية دي معناها كده!) لأنك بتلاقي المعنى ده بسيط جداً ومنطقي، كأنه سهل ممتنع، وإنت اللي ما فهمتيهوش عشان أخدتي على التفكير بطريقة صعبة ومعقدة، من كتر ما بتسمعي كلام الشيوخ المتشددين اللي



بيقعدوا يصرخوا في الواحد كأنهم قاصدين يسرعوه!

ضحكت (شذى) رغمًا عنها ورغم جدية الموضوع وهي تقول:

بصراحة فيه شيوخ ما يتسمعوش فعلًا

لو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك

قالتها (دنيا) فأومأت برأسها مؤمنة وهي تقول:

صح واللّه

الشيخ بقى اللي بكلمك عنه ده، هو اسمه (مصطفى)، عكس الناس دي كلها، لا بيصرخ ولا بيتعصب، ولا بيحسسك إنك رايحة النار ورايحة في داهية ومفيش منك أمل، بالعكس، ده بيشرح لك كل حاجة بأمثلة بسيطة جداً، ويضحكك كمان ساعات، تقومي من الدرس بتاعه حاسة إنك مرتاحة نفسيًا قوي، وفي نفس الوقت فاهمة الدين صح بجد، وكما يجب أن يكون

تعرّضَ قومٌ للغرامِ، وأعرضوا .... بجانبهمْ عنْ صحّتي فيهِ واعتلّوا

مين دول اللي شيعة؟!



إنتي وعيلتك

لأ لأ! الشيعة حاجة والصوفية حاجة تانية خالص، إحنا سنة مش شيعة

مش إنتوا بتروحوا أضرحة وتتوسلوا بأوليا وتعملوا موالد .. والكلام ده؟

بالنسبة للموالد بقى، فأكبر دليل على إنها مش حرام، ولا تأليه لحد لا سمح اللّه، هو طبيعتها نفسها، اسمها.مولد يعني إيه؟ جاي من اسمه. احتفال بميلاد شخص. وربنا سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد. إذن الاحتفال بمولد شخص معناه معرفة ضمنية إن الشخص ده أكيد مش إله، لأنه ولد!

والتوسل مش حرام

لأ يا (دنيا) ما ينفعش، لا يجوز التوسل ببشر

قالها (صالح) وقد تقطب جبينه قليلًا لترد شارحة بهدوء:

أمال سيدنا (محمد) هيشفع لنا إزاي؟ مش شفاعة يعني وساطة؟ والدعاء بنيل شفاعة الرسول يعني طلب لتوسطه لنا عند اللّه؟ طلب للمغفرة من ربنا عشان خاطره؟ يبقى توسل به



أحبّـــــــةَ قلبي والمحبّــــــــةُ شافعي ..... لدَيكُمْ، إذا شيءتُمْ بها اتّصَل الحبلُ

هو الكلام منطقي إلى حد كبير، يعني أنا الصراحة بعترف إن معلوماتي الدينية مش قوية كفاية عشان أقدر أناقشك في اللي بتقوليه، يعني في الموالد والتوسل والحاجات دي، بس أنا طول عمري ضد أسلوب بعض المتشددين، وشايفة إنه أكيد الدين مش كده، وإنه أسهل وأجمل من كده بكتير، وأقرب للي بتقوليه فعلًا

هو إيه ده اللي منطقي؟؟

كذا سألت (مي)، التي وصلت في تلك اللحظة خلفهما، تعليقاً على عبارة (شذى) التي أجابتها قائلة:

كنا بنتكلم عن الدين وأساليب بعض الشيوخ وكده

رفعت حاجبيها في اندهاش تمثيلي قائلة:

ما شاء اللّه، دا إنتي بقيتي شيخة بقى!

كانت العبارة موجهة لـ (دنيا) طبعًا التي قالت:

من دي اللي شيخة؟



إنتي! مش قاعدة تطلعي في فتاوى وأحكام شرعية على كيفك أهه؟!

بدت ضحكتها مستفزة قليلًا لـ (دنيا) التي ضحكت هي الأخرى وهي تقول:

إنتي بتحاولي تداري على تأخيرك علينا بأي كلام يعني وإنتي مش فاهمة أصلًا إحنا كنا بنقول إيه؟ طب لو تحبي نقعد وأشرح لك كل اللي قلناه، ونتناقش، على الأقل تبقي فاهمة إنتي بتعترضي وتتريقي على إيه

آ.. أنا آسفة عامة إني إتأخرت، أصل (علاء) كلمني عشان كان عايز ننزل نبص على السيراميك بكره و..

ضحكت ثانية وهي تقول:

أيوه توهي واهربي من المناقشة، توهي

لأ أنا مش بتوّه! الفكرة إن معلوماتي في الدين مش قوية قوي كده عشان أقدر أناقشك، وده غلط أنا عارفة، المفروض أبقى أحسن من كده و..

ولما إنت عارفة إن معلوماتك في الدين مش قوية بتفتي وتعاندي فيه ليه؟



عشان إنتي كمان معلوماتك الدينية مش قوية يا (دنيا)! لا إنتي لابسة نقاب، ولا خمار مثلًا عش..

هي دي فكرتك عن الدين؟ نقاب وخمار؟ طب إنتي مش لابساهم ليه لما هو ده الدين من وجهة نظرك؟

أضافت (شذى):

الدين مش مظاهر بس يا (مي)

لتعود (مي) وتقول:

أنا ماقلتلش إن أنا كويسة! أنا زفت برضه وبلبس ضيق وبعمل حواجبي وكل حاجة، رغم إني المفروض محجبة، زي ما المفروض إن إنتوا كمان محجبين، يعني إحنا زي بعض من الآخر، مفيش فيك حاجة زيادة عننا عشان تعملي علينا شيخة!!

سحبت (دنيا) نفسًا طويلًا زفرته قبل أن تقول:

أنا ماعملتش شيخة على حد، عشان مش أنا اللي بدأت أحلل وأحرم الحاجات على كيفي، ده كان إنت لو تفتكري، ولا أنا اللي قعدت أتريق على الناس واتهمهم إنهم مش أحسن مني لأنهم مش



لابسين خمار، وأنا محجبة ولسه مشمرة دراعي كله في الشارع عشان أرسم عليه حنة

وصبري صبرٌ عنكمْ وعليكمْ .....أرى أبداً عندي مرارتهُ تحلو

ورغم صمته التام بعد كل ما قالته (دنيا)، إلا أن تلك التقطيبة الضائقة على وجه (صالح) المحمر أنبأتها باعتراضه عليه، أما هي نفسها، فقد وضعت أكبر قدر استطاعته من اللين في صوتها وهي تقول:

الصوفية حاجة والشيعة حاجة تانية يا (صالح)، والصوفية مش حاجة وحشة زي ما إنت فاكر واللّه، بالعكس

أنا اللي أعرفه إن فيها حاجات كتير غلط، وبدع و...

عشان ماتعرفهاش بجد، جرب تعرفها وشوف بنفسك

أجرب يعني إيه؟؟

يعني تقابل بابا، تقعد معاه وتسمع كلامه، وإنت مش بس هتقتنع بالصوفية، ده إنت هتدخل الطريقة كمان



هو باباكي شيخ الطريقة؟ إنتي مش قلتي إنه النائب؟

أيوه بابا النائب فعلًا، بس الشيخ (مصطفى) ده عندي زي أبويا بالضبط، ويمكن أكتر كمان

بتقولي كده ووالدك لسه عايش يا (دنيا)؟!

هو أصلًا بيحبه زي ما أنا بحبه وصاحبه جدًا. إنت مش متخيل الراجل ده عامل إزاي يا (صالح). لما تشوفه هتعرف، صدقني

وأنا أشوفه أو أقابله ليه أصلًا؟ أنا هتقدم له ولا هتقدم لوالدك؟

لأ دي حاجة ودي حاجة

بس أنا مش عايز أقابله

حتى لو قلت لك عشان خاطري والموضوع ده يهمني أكتر من أي حاجة تانية؟؟

ثبتت عيناه في عينيها وخيل لها أنها رأت فيهما دهشة امتزجت بشيءٍ من الألم وهو يقول:

أكتر من علاقتنا مثلًا؟



دي برضو حاجة ودي حاجة تانية!

خفض عينيه وصمت قليلًا قبل أن يرفعهما ثانية لترى هي فيهما لمعة، كأنها حزن أو غضب خفيف، وهو يقول:

يعني لو دي قصاد دي .. هتفضلي الطريقة بتاعتكوا عليا؟

القاهرة (٢٠٠٢)

منطقة (الحسين)

طرق باب المكتب ودخل. اقترب من المكتب الأرابيسك الصغير الذي يجلس خلفه سيده منشغلًا بمطالعة كتاب بانهماك جعله لا يتحرك ولا يرفع عينيه حتى، كأنه لم ينتبه لدخول أحد من الأساس، بين مكتبتين متوسطتين من نفس الطراز، ممتلئتين لآخرهما بالكتب. إضاءة الغرفة هادئة كالعادة. ارتجفت يده الممسكة بالصينية قليلًا ليصطك كوب الشاي الزجاجي القصير بالطبق الصيني الصغير أسفله وهو يتقدم نحو المكتب ببطء. تنحنح ليسلك حلقه باحترام وهو ينحني ليضع الصينية على المكتب قائلًا:

الشاي يا مولانا



هنا رفع عينيه إليه وثبتها في عينيه قليلًا وهو يبتسم بهدوء، قبل أن يشير له ببساطة أن يجلس ففعل. يجب ألا ينظر إليه وهو يمد يده للكوب، ولا وهو يرفعه لفمه ليشرب، لكنه أيضًا يجب ألا يظهر وكأنه يبعد عينيه عامداً عنه.

ورغم تأكده من صعوبة الأمر، إلا أنه لم يحسبه حقًا بهذا الصعوبة، لكن لا مجال للتراجع الآن، فها هو ذا قد رفع الكوب إلى فمه وارتشف منه القليل بالفعل. قريبًا سينتهي كل شيء. أصعب مرحلة هي التي تمر الآن. لكنه لا يدري كيف لم يدرك من البداية أن القتل برمته صعب إلى هذا الحد.

قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ



(١٢)

القاهرة (٢٠١٥)

وانا إيه اللي يخليني أختار ما بينكم؟!

أنا..! لو قلت لك إني مش مقتنع بالصوفية ومش عايزك تحضري موالد ولا حضرات، ولا كل الكلام ده؟

بس إنت قلت لي إنك مش هتمنعني عن حاجة!

وده مش منع، ده سؤال، لو خيرتك بين الطريق بتاعك وبيني، هتختاري إيه؟

ينفع أنا طيب أخيرك بين إيدك اليمين وإيدك الشمال؟!

ياه..! هو مهم عندك قوي كده؟؟!

قالها (صالح) بدهشة شعرت (دنيا) بما فيها من ألم، فتحت فمها لتشرح أو لتقول أي شيء، إلا أنها وجدته يقول بسرعة وبوجه هادئ تماماً:

ماشي يا (دنيا) .. أنا موافق

عدن (٢٠١٥)



تكاتف الدوار مع ألم قدميها المزعج لانحشارهما في الحذاء الضيق عالي الكعب، كي يجعلاها غير قادرة على الوقوف أكثر. ورغم معرفتها لأهمية وجودها في حفل خطبة أخيها، إلا أنها فكرت أن وجودها ذلك سيكون أسوأ من غيابها إن انتهى بها الأمر طريحة الأرض فجأة وسط كل هذا الزحام. لذا فقد اتخذت قرارها باستغلال ذلك الزحام لصالحها والانسحاب ببطء وهدوء من الساحة لتخرج من أرضها المبلطة المستوية نوعًا، إلى طرق المزرعة الشبه ممهدة، والرملية في بعض أجزائها بطريقة جعلت المشي بذلك الكعب المدبب، خاصة مع ترنحها، صعب بشكل لا يصدق.

وصلت أخيرًا إلى الفيللا، التي لم تكن لحسن الحظ بعيدة جداً عن الساحة، لكن المسافة كانت كافية رغم ذلك كي تقضي على ما تبقى من مقاومتها وهي تفتح الباب، وتدخل مسرعة لتلقي بنفسها على أقرب كرسي قابلها بتهالك وهي تلهث. وحين سمعت صوت حركة يأتي من الشرفة، اتسعت عيناها قليلًا وهي تظن أنها بمفردها، بما أن الجميع الآن في حفل الخطبة كما هو مفترض. انتابها خوف خفيف وهي تمد عينيها نحو الضلفة المواربة لترى ما هناك، وفجأة:

مين اللي بره؟؟



انتفضت في مكانها لثوان في البداية حين أتتها العبارة من الشرفة بصوت عال، لتتبين بعدها أنه صوت (هشام) الذي رأته يظهر هناك لتتنفس هي الصعداء، ويهتف هو بدهشة:

(دنيا)! هي الخطوبة خلصت وللا إيه؟

لأ أنا اللي تعبت .. ما قدرتش أستنى أكتر من كده

بصرة

واللّه! إنتي كمان رجلك وجعتك من الكعب؟!

قالتها مداعبة بسخرية عابثة فرد عليها بالمثل وهو يتحسس رقبته بحركة كوميدية قائلًا:

لأ اتخنقت من الكرافتة، ومن اللطافة!

انتبهت وهي تضحك في تلك اللحظة أن رباط عنقه مرخي بالفعل فوق أزرار قميصه العلوية المفتوحة قبل أن تقول:

إيه اللي رجعك بجد؟

بدا على وجهه الضيق وهو يقول:

ما تيجي نقعد في البلكونة طيب بدل الخنقة دي



أنا دايخة مش قادرة أقوم، وما تغيرش الموضوع

يبقى تقعدي في الهواء عشان تفوقي، ولا عايزة تترمي هنا في الكتمة لحد ما يغمى عليكي؟

ضحكت وهي تخلع حذاءها وتلقيه بعيداً بغل بشكل مضحك قبل أن تستند على يده كي تنهض ويذهبا سوياً إلى الشرفة وهما يضحكان، ليجلسا وتبدأ هي الحديث بفضول جاد:

رجعت ليه بقى؟

لأ دا إنتي مصرة بقى!

ابتسمت في تَحَدٍّ صامت فزفر باستسلام قبل أن يقول:

اتخنقت فعلًا بس مش من الكرافتة أكيد

أمال؟

بدا وكأنه لا يعرف كيف يجيب وهو يبعد عينيه عنها كأنما لا يريد مواجهتها، وهو يقول:

الجو كله .. الحكاية كلها تخنق

حكاية إيه؟؟



جوازة أخوك دي مش مريحة بصراحة

تسمرت قليلًا وهي تقول بحذر:

ليه؟ دول حتى ناس طيبين قوي، و(نهلة) بنت هادية و..

أنا ما بتكلمش عليهم كناس، أنا بتكلم على المبدأ، طريقة الجواز نفسها، يعني إيه يختاروا له عروسة ما يعرفهاش وهو يوافق كده عادي! جعلوه فانجعل! هما لو ناويين يجوزونا كلنا كده، يبقى واللّه ما أنا متجوز أصلًا

شردت قليلًا كأنها تفكر قبل أن تقول بحذر أكبر:

هو ده أصلًا كان اختيار عم الشيخ .. هو اللي فتح الموضوع مع بابا ورشح (نهلة) لـ (أمجد)

رشحها له وللا قال له يتجوزها؟

ما هو أكيد عم الشيخ عارف إيه الأصلح .. عشان كده اختار له اللي يناسبه

يعني هو كان يقدر يرفض؟

معرفش بس هو وافق، يعني هي مناسبة له فعلًا



(أمجد) كان هيوافق لو جابوا له سحلية ميتة يتجوزها

ضحكت في حين عاد هو يكمل بجدية تخللها بعض الحيرة والتردد:

هو عم الشيخ على عيني وراسي يعني بس .. أنا ما ينفعش أي حد مهما كان يجبرني على الست اللي هعيش معاها بقية عمري .. لازم أكون حبيتها، عارفها .. كلمتها على الأقل!

إنت متصور إن عم الشيخ هيجبر حد على حاجة يعني يا (هشام)؟!

ولا حتى يختارها لي

يا سيدي لما يختار لك واحدة وما تعجبكش إبقى قول لأ

قالتها ضاحكة بتخاذل فظهرت في عينيه نظرة غريبة وهو يقول:

(دنيا) .. كل جوازة هنا في الطريقة، بيبقى عم الشيخ هو اللي (اختارها)، بيقول لفلان روح اخطب فلانة، فبيروح يخطبها فعلًا، وخطوبة هنا يعني كتب كتاب وش زي ما إنتي شايفة، ممكن يكون



بيقول من باب (الترشيح) زي ما بتقولي، بس كل ترشيحة بتنتهي بجوازة، محدش بيقول لأ

بدت في عينيها الزائغة نظرة غريبة هي الأخرى وهي تقول بتردد:

هو ما بيجبرهمش على حاجة أكيد، هم اللي بيسمعوا كلامه عشان واثقين إنه اختار لهم أحسن ما كانوا هيختاروا لنفسهم

أفهم من كده إنك موافقة تتجوزي (محمد)؟

أختك هتجيب لنا واحد غريب وتفضله على ابن الشيخ؟!..

القاهرة (٢٠١٥)

شيخ الطريقة بتاعتكوا طلع رجل أعمال غني، وواصل كمان

مش بقول لك؟ راجل ناجح ومحترم و..

لأ مش شرط..

كذا قال (صالح) بهدوء مقاطعاً حماسة (دنيا) التي هدأت بشيء من خيبة الأمل الصامت وهي تسمعه يكمل:



غني وواصل مش لازم يكون معناهم ناجح ومحترم، لأنه اغتنى قوي، وفي وقت قصير جداً، بطريقة ما تخليش الواحد يقول له برافو، يقول له من أين لك هذا؟! خاصة إنه كان فقير جداً زمان

مين اللي..؟ إنت جبت الكلام ده منين؟؟

مش ده المهم، المهم إن اللي عرفته عنه، أكد لي وجهة نظري أكتر

إنت عرفت إيه بالضبط أنا مش فاهمة؟؟!

عرفت مثلًا إنه بيدخن!

طب وفيها إيه؟ التدخين مش حرام

لأ هو على الأقل مكروه، وده أكيد، لأن العلماء لما اختلفوا، كان على إنه حرام وللا مكروه، محدش أبداً قال إنه حلال أو مستحب

طب ما إنت بتدخن

وهو أنا شيخ وبَدّي الناس دروس في الدين؟!

إحنا زي بعض من الآخر، مفيش فيك حاجة زيادة عننا عشان تعملي علينا شيخة



فيه حاجات كتير عن شيخك إنتي شكلك ما تعرفيهاش، أو مش عايزة تعرفيها، أو يمكن محدش عايزك تعرفيها، بس كل القريبين منه قوي عارفينها كويس، زي والدك مثلًا، والدك يعرف عن الشيخ (مصطفى) حاجات إنتي لا يمكن تتخيليها

حاجات إيه؟؟ إنت مش فاهم! عم الشيخ له أعداء وناس كتير مش بتحبه، فبيحاولوا دايمًا يشوهوا صورت ...

(دنيا) أنا واثق من اللي بقوله، صدقيني، فيه حاجات لو عرفتيها عن الشيخ (مصطفى)، إنتي نفسك اللي هتتخضي

من فضلك يا (صالح) ما تتكلمش عنه كده! عشانك إنت مش عشاني، الشيخ (مصطفى) مش مجرد ولي!!

قطب جبينه وهو يقول:

قصدك إيه؟؟ إنه واصل ومهم كمان؟ فممكن يوصي عليا حد يأذيني مثلًا؟؟

عم الشيخ..! لأ طبعًا!!



أمال إيه (عشانك إنت) دي؟

أنا خايفة عليك .. عمو (أسامة) إتكلم كتير عن المشايخ والأوليا .. وغلط فيهم جامد يا (صالح)

اتسعت عيناه وهو يقول كأنه لا يصدق:

(أسامة) قريبك اللي حكيتي لي عنه؟؟ جوز عمتك (عايدة)، وأبو (ضحى) اللي بتباتي عندها؟!

على اللّه بس ما يطلعش وهابي زي (أسامة اللّه يرحمه

..وعندما اختفت تلك الخلافات بالفعل، بموت أبيها واختفائه من حياتها، ندمت على أمنيتها، وظلت تدعو له بالرحمة من وقتها، وتبكيه كلما تذكرته رغم قسوته، مشفقة عليه مما أصابه من فقد لبصره قبيل موته، وما قد يصيبه بعده لكل ما قاله، بغير قصد أو حتى بقصد، في حق كبار المشايخ والأولياء، والشيخ (مصطفى) بالذات ..

يعني أنا هتعمي وأموت يا (دنيا)؟؟!!

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا

القاهرة (٢٠٠٢)



منطقة (الحسين)

ظلت نظرات مولانا غريبة رغم هدوئه وهو يشرب الشاي. سأل عن الأمانة، فطمأنه عليها. طلبها منه فماطل واعداً بحرارة أن يردها له في أقرب وقت ممكن، حرارة زائفة طبعًا، يعرف كيف جيداً كيف يتقن تمثيلها، لأنه يعرف أنه بالطبع لن يرد شيئًا لرجل سيموت أصلًا، في أقرب وقت ممكن.

ورغم ذلك، ورغم ثقته في قدرته العالية على التمثيل، إلا أنه ظل يشعر بشيء غريب في ابتسامة مولانا وعينيه، شيء غامض أخافه كثيرا لسبب ما، كأنه يعرف ما وضع في كوب الشاي له، لكنه تعجب كيف يكون مولانا هو الممسك بكوب الشاي القاتل، وهو من يجلس أمامه متوتراً خائفاً منه هكذا.

لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

عدن (٢٠١٥)

يعني (صالح) هو سبب عدم موافقتك على (محمد)



قالها (هشام) الذي جلس ينصت باهتمام لكل ما حكته (دنيا) شرحًا وتعقيبًا على سؤاله لها، فأسرعت هي تقول مصححة:

لأ! أنا إتعرفت على (صالح) بعد موضوع (محمد)، اللي أنا ما كنتش موافقة عليه قوي أصلًا من الأول

بس ما كنتيش رافضة

لأنه .. ما كانش فيه سبب مقنع قوي أرفض عشانه (محمد). كويس جداً يعني .. بغض النظر خالص حتى عن إنه ابن الشيخ، وإن عم الشيخ نفسه كان هيبقى حمايا، بس .. عمري ما حسيت إنه .. يعني ما تخيلتوش ك..

مش بتحبيه من الآخر

خجلت قليلًا لتضحك بعصبية ويحمر وجهها، فضحك هو كذلك على منظرها وهو يقول:

إتخضيتي كده ليه، هو أنا هاكلك! أنا أصلًا ضد الجواز على طريقة (ميادة) و(أمجد) دي خالص

لأ (ميادة) ما إتجوزتش كده يا (هشام)، دول بيحبوا بعض جداً

مين دول اللي بيحبوا بعض جداً؟؟



(ميادة) و(ياسين)

لم يعلق إلا بضحكة قصيرة سألته عن سببها بفضول مندهش فراوغ في الإجابة قائلًا:

سيبك من (ميادة) و(أمجد) و(ياسين) دلوقت وخلينا فيكي أنتي، ناوية على إيه؟

رفعت كتفيها بحيرة وهي تقول:

مش عارفة .. أنا من ناحية بحاول مع (صالح) نفسه وأصحح له مفاهيمه عن الصوفية، ومن ناحية تانية عايز أكلم بابا وماما وأمهد لهم موضوعه، بس من غير ما يفتكروا إني رفضت (محمد) بسببه، ولا يعرفوا حاجة عن طريقة تفكيره عشان هيقولوا عليه وهابي

طيب .. تحبي أنا أساعدك إزاي؟ إيه اللي ممكن أعمله؟ تعرفيني عليه مثلًا واتكلم معاه و..؟

لأ هو أهم حاجة دلوقت بس إنك ما تقولش أي حاجة من اللي اتكلمنا فيها لأي حد

ما أكيد طبعًا

بتعملوا إيه هنا إنت وهي؟



أجفل الإثنان مع وقع العبارة التي لم تخرج من أيهما وإنما من (أمجد)، الذي تبينا وقوفه في تلك اللحظة عند مدخل الشرفة من جهة الفيللا، لمدة يعلم اللّه كم طالت دون أن ينتبها له، وكم أتاحت له من سماع ما أسرا به لبعضهما البعض.

القاهرة (٢٠٠٢)

منطقة (الحسين)

كان مولانا هادئًا في موته كما كان في حياته، وعلى كل حال، فلم يكن في المكان سواهم، الجلادين وضحيتهما، صاحبه يقف بالباب حارسًا تحسبًا لأي شيء، وهو يقدم للضحية آخر كوب شاي يشربه في حياته.

لم يقل شيئًا وروحه تخرج من جسده، لم يصرخ أو يطلب نجدة حتى، فقط خرجت منه شهقات ألم خفيضة وهو يتحسس صدره وكتفه الأيسر، تبعتها الشهادة التي أسلم الروح فور نطقها، مريحًا رأسه على ظهر كرسيه، مرخيًا يديه على مسنديه، وعيناه مسبلتين بسكينة، تجعل من يراه يحسبه في غفوة أو سنة قصيرة فحسب.

وقف متسع العينين أمام الجثمان الساكن، تمنى لو أنه في حلم سيصحو منه، نظر حوله بخوف غير



مفهوم، كأنه يشعر أن هناك من يراقبه، رغم أنه وحده تمامًا، شعر أن الصور على الحائط تراقبه، كل من فيها ينظرون إليه، يكاد يقسم أن أعينهم مثبتة على عينيه تتابعها أينما نظر.

التفت بسرعة للجثمان الذي شعر لوهلة أنه رآه يتحرك بجانب عينه، ولسببٍ ما ظل ينظر له بترقب كأنه يشعر أنه سيراه بالفعل يفتح عينيه فجأة وينهض معتدلًا، لكنه تمالك نفسه وهو يذكرها بأن الرجل مات، والموتى لا يتحركون ولا يقدرون على شيء يقدر عليه حي، مهما كان قادرًا في حياته.

يجب عليه التصرف بسرعة كي لا يحدث أي خطأ، أن يتظاهر الآن بالبكاء والولولة كي يخرج إلى صاحبه منهارًا ويخبرا الجميع معًا بجزع أن مولانا قد أصيب بأزمة قلبية لم تمر في سلام كسابقاتها، الأمر الذي سيكون صادقًا فيه بالفعل، فقط سيخفي وسط ولولته أنه لم يحاول حتى إسعافه أو الإتيان بأقراصه العلاجية قبل فوات الأوان، وأنه هو من سبب له تلك الأزمة بما وضعه في كوب الشاي الذي قدمه له.

لم يحتج للكثير من التمثيل وهو ينظر لوجهه الهادئ الذي لم يفسد الموت ملاحته بعد. وجد أنه يبكي فعلًا بلا صوت ولا حاجة لأي تمثيل. رأسه يشتعل نارًا ورؤيته تتكسر بفعل الدموع، وهو



يستوعب جيداً ما فعله. هذا الذي كان حيًا منذ دقائق مات على يديه، بين يديه، الذي كان في وقت ما مضى منذ بعيد أقرب شخص له في هذه الدنيا، وربما كان ذلك القرب هو ما جعله لا يشك فيه، أو لا يصدق شكه ذاك إن وجد.

مرور الفكرة في رأسه فحسب جعله يكاد يتقيأ على نفسه قرفًا منها. وغرفة المكتب الصغيرة المتواضعة هذه، والتي رآها مرارًا من قبل، تكتسب ثقلًا لا يعرف كيف سيدخلها الآن من بعده. ستظل محفورة في رأسه بهذا المشهد الذي لن ينساه ما دام حيًا، وسيظل يشم رائحة الموت في كل ركن فيها، ستكون بالنسبة له كمقبرة أثرية حنطوا صاحبها جالسًا بداخلها بدلًا من وضعه في تابوت، واستعاضوا عن زخارف حوائطها ونقوشها بالصور التي ستظل عيون كل من فيها تتابعه أينما ذهب.

لكنه الآن يجب أن يسرع ويخرج لتنفيذ بقية الخطة التي لم يعد التراجع عنها ممكنًا. سيتعذب بقية حياته بهذا المنظر، وسيتلقى زيارات كثيرة من مولانا في أحلامه التي سيتحول أغلبها لكوابيس، سيصحو منها صارخًا غارقًا في العرق على الأرجح. لكنه سيتولى أمر هذا العذاب فيما بعد، وحين يجد الوقت الكافي له. أما الآن، فيجب أن يكف عن النظر إلى وجه ضحيته ويخرج قبل أن يتقيأ فعليًا من فداحة ما قدمت يداه.



فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ

القاهرة (٢٠١٥)

انتفض جسده ليصحو من النوم وهو يشهق بعنف جعله يسعل بقوة وهو يتطلع إلى سقف غرفته بعينين متسعتين. وحين بدأ سعاله يخف تدريجيًا، تهالك متراخيًا مرة أخرى على الفراش الصغير، وكل سعلة يتشنج لها جسده تضرب رأسه كمطرقة من حديد. لم تعد العودة للنوم ممكنة بكل هذا الألم الذي لا يعرف إن كان هو ما أيقظه، أم ذلك الكابوس الثقيل، أم الغربان التي لا تكف عن نعيقها المزعج قرب نافذته، أم ذلك الرنين الذي..

انتبه في تلك اللحظة لرنين هاتفه المحمول، فضغط أسنانه وأن قليلًا بصوت خفيض وهو يجبر نفسه على الاعتدال والنهوض بسرعة، حولت الألم في رأسه من ضربات مطارق حديدية إلى سحقات قطار مسرع، وحملت على ساقه بشكل خاطئ ترنح معه ألمًا وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه بصعوبة ليستعيد توازنه، ويسير نحو الهاتف الموضوع على طاولة قصيرة بعيدة نسبيًا، وهو يعرج.نظر في الشاشة المضيئة ليقرأ الاسم المكتوب عليها قبل أن يفتح الاتصال، وما كاد يرفع



الهاتف على أذنه، حتى أتته صوت نهنهة أنثوية متبوعة ب:

إنت لسه زعلان مني يا (صالح)؟؟

واللي إنت مش شايفاه؟

عدن (٢٠١٥)

إنت واقف كل ده تتصنت علينا يا (أمجد)؟!

كذا هتف (هشام) بأخيهما الذي خطا داخل الشرفة مرتديًا حلة خطبته التي أفسد الحفل، وربما إهمال صاحبها، الكثير من رونق أناقتها الأصلية، واضعًا يديه في جيبي بنطالها، ووجهه يحمل نفس تعبيره البارد وهو يقول:

ليه؟ مهمين قوي؟

إنت واقف عندك من إمتى؟؟

إنتوا اللي هنا من إمتى؟ سايبين الفرح وجايين تقعدوا هنا يا أندال؟ هو أنا بتجوز كل يوم؟

طب ما إنت نفسك سيبته وجيت أهو!



أما (دنيا) فقد حاولت الابتسام وهي تقول بخجل ولهجة معتذرة:

أنا حضرت الفرح كله تقريبًا ولسه جاية من شوية واللّه يا (أمجد)، عشان تعبت جامد وكنت هقع من طولي فعلًا، بجد مش هزار

لوح بيده بلا معنى وهو يقول:

الفرح خلص يا عم إنت وهي خلاص، ده إنتوا نايمين في العسل

خلص إمتى؟؟!

سألته دون أن تكمل بقية سؤالها الحقيقي، (منذ متى وأنت هنا إذن؟ ومن هنا سواك دون أن ننتبه له كذلك؟ وما الذي سمعتموه جميعًا بالضبط؟؟)

وقت ما خلص

قرن عبارته بتلويحة أخرى من يده وهو يسير نحو باب الشرفة مضيفًا:

أنا خارج

(أمجد) إستنى! هو .. مين جه معاك؟؟



كذا هتفت بلهفة قلقة وهي تراه يهم بدخول الصالة ويرد قائلًا:

محدش، أنا جيت لوحدي، وخارج تاني أهو عشان تكملوا كلام براحتكم

دا إنت كنت بتتصنت بجد بقى!

هتف بها (هشام) ليتجاهلها (أمجد) تمامًا، ويتركهما حائرين، لا يعرفان ماذا سمع بالضبط.

القاهرة (٢٠١٥)

جملتك دي في ظروف تانية كان ممكن .. تنهي علاقتنا من الأساس .. كانت ضرتك يعني ما فادتكيش. لكن الغريب بقى إن الجملة دي بالذات، هي اللي ممكن تكون فادتك جدًا .. أو عملت لك اللي إنت عايزاه على الأقل، لأني بسببها مصر أكمل في الطريق بتاعك ده للآخر، مصر أعرف أكتر عن طريقتك، وأدخل مزرعتك، وأقابل شيخك

كان يجلس محنيًا للأمام على سريره الذي تراجع ليسقط عليه ثانية بعد جلبه للهاتف. وقد صمت قليلًا كأنما ليلتقط أنفاسه قبل أن يعود ليكمل بنفس الصوت الهادئ:



مادام إنتي مقتنعة ومصدقة إنه بالقوة دي، فأنا كمان هصدق زيك، وهبقى أحرص منك على مقابلتي له، عشان أشوف بنفسي كل العلم والأنوار والكرامات اللي ممكن تطلع من واحد، اللي بيتكلم عنه وحش بس .. بيتعمي ويموت

– طريقة ما تخليش الواحد يقول له ببرافو، يقول له من أين لك هذا؟!

عدن (٢٠١٥)

بصي بدلة بابا شيك وحلوة إزاي!

هو اللهم صل على النبي كل بدله شيك وغالية قوي

إستني يا (ضحى)! رجعي الصورة اللي فاتت دي كده!

زفرت (ضحى) بملل وهي تجلس منحشرة بين أمها وزوجة خالها على أريكة عريضة، وسط سيل الحديث والأوامر المتواصل من فم المرأتين. على حجرها جهاز الكمبيوتر النقال الخاص بها، عارضًا على شاشته صورًا لحفل خطبة (أمجد). في مواجهة ذلك الثلاثي جلس الثنائي (ميادة) و(دنيا)، اللتان بدا التشابه بينهما واضحًا للغاية، على أريكة



أصغر، وهما تتضاحكان بخبث على منظر (ضحى) التي راحت تنظر لهما بغل مضحك. لكن (دنيا) شردت قليلًا من هذا الضحك وبدت وكأنها تفكر أو تتذكر شيئًا ما قبل أن ترفع رأسها فجأة سائلة:

غالية قوي يعني في حدود قد إيه مثلًا؟

كان من الواضح أن اتساع عينيها عن آخرهما، وشهقة الانبهار الخفيفة التي أطلقتها فور سماعها لرقم الإجابة، قد أقلقا كل من (نجوى) و(عايدة) و(ميادة) بشكل ما، فقد هتفت الأولى وهي تضحك كأنما تخفي حرجًا:

يا بت صل على النبي اللّه أكبر في عينك!

أما الثانية فقد قالت بهدوء مترو:

عم الشيخ مش طول عمره رجل أعمال وغني كده يا (دنيا)، ربنا يديله الصحة وطولة العمر يا حبيبي بنى نفسه بنفسه من الصفر

لأ ومن تحت الصفر كمان!

كانت تلك من أخراهم وهي تتبادل نظرة خاصة مع أمها التي عادت تقول وكأنهم يعيدون نفس الدورة من البداية:



لو سمعتي قصته .. واللّه ما هتصدقي نفسك وهتعيطي!!

حملت العبارة تأثرًا حقيقيًا مَسَّ قلب (دنيا) بقوة، قبل أن يشعل فضولها، لتسأل بلهفة:

وهي إيه قصته؟؟

– كان فقير جداً زمان..

(١٣)

عدن (٢٠١٥)

إنتوا ليه توهتوا وما رديتوش لما سألت على قصة عم الشيخ اللي قلتوا لي لو سمعتيها هتعيطي؟

تساءلت (دنيا) وهي تغلق باب الفيللا خلف عمتها وابنتها اللتين رحلتا لتوهما، ليأتيها الرد على هيئة ضغطة مفاجئة من يد أختها على ذراعها، واتساعًا غريبًا في عينيها يحمل تأنيبًا كأنها تريدها أن تصمت، وهي تسحبها بعيداً، لتندهش أكثر حين تأتيها حوقلة وتعوذ وتذمر بكلمات مختلطة من أمهما التي انضمتا إليها في غرفة المعيشة، والتي ما إن دخلتاها حتى هتفت (ميادة):

يا بنتي مش أي حاجة تتقال قدام أي حد!

دول (ضحى) وطنط (عايدة) يعني

قالتها بما يشبه الاستنكار الحائر الذي بدا وأنه أغضب أمها أكثر لسببٍ ما، وجعلها تهتف في وجهها بتأنيبات وجمل لم تفهم لها أي معنى، وهي ذاهلة حائرة لا تعرف كيف ترد، فقط (ميادة)



تمالكت أعصابها على عكس عادتها، لتلتفت لأمها وتقول بصوت حازم رغم هدوئه:

ممكن تهدي يا ماما وأنا هفهمها؟ عشان هي بس مش فاهمة

صمتت (نجوى) بالفعل وإن ظلت تقطيبتها محفورة على وجهها، في حين عادت (ميادة) تلتفت لـ (دنيا) شارحة بنفس الصوت الحازم مع شيء من اللين:

فيه حاجات خاصة عن عم الشيخ، ما ينفعش أي حد من بره العيلة يعرفها، حتى (ضحى) وطنط (عايدة)

حتى أنا؟

فيه حاجات كتير عن شيخك إنتي شكلك ما تعرفيهاش، أو مش عايزة تعرفيها، أو يمكن محدش عايزك تعرفيها، بس كل القريبين منه قوي عارفينها كويس..

لأ طبعًا، إنتي من العيلة يا بنتي! بابا بيعتبرك واحدة من عيلته المباشرة، زي (بتول) كده، يعني إنتي عنده أغلى مني أنا شخصيًا، بس ما تقوليش الكلام ده قدام حد والنبي لا تتحسدي إحنا مش ناقصين!



قالتها (ميادة) ضاحكة فرفعت (دنيا) حاجبيها لأعلى باندهاش متأثر وهي تقول:

بجد ؟؟

بتقولي لها إيه إنت كمان؟! والنبي بكرة لتلاقيها قالت لـ (ضحى)، و(ضحى) قالت لعمتك، والمزرعة كلها عرفت بعد يومين! وابقي قولي أمي قالت!!

ما هي خلاص يا ماما فهمت إن مش أي حاجة عن بابا تتقال لأي حد، وعرفت هو بيحبها وبيثق فيها قد إيه، وهي قد الثقة دي أنا عارفة (دنيا) كويس!

بعد عبارتها، وضعت يديها على كتفي (دنيا) وثبتت عينيها في عينها، وهي تقول بلهجة غريبة وكأنها ذات مغزى لكنه غير مفهوم:

ولا أي حد خالص، مهما كان قريب لنا أو بنحبه!

لم تحب (دنيا) في عمرها تلك الطريقة التي تتكلم بها (ميادة) أحيانًا، بل كثيرًا، كالآن مثلًا، طريقةحكيمة، تضغط فيها على بضعة حروف ومقاطع من كلامها مع تعبيرات معينة من وجهها، تشعرك بأهمية لما تقوله، وكأنه ذو مغزى مهم، لكنه في الغالب يكون غير مستحق لكل هذا، ويجعلها تبدو كشخص ينفض الغبار بشمم



عن حذائه الممزق، الأمر الذي كان من الممكن أن يمر عاديًا ككل مرة، وتتجاهل (دنيا) أختها التي عرفتها حتى ملت أسلوبها، متظاهرة بالتصديق أو الطاعة أو الاهتمام حسب الموقف، تأخذها بقدر عقلها كما يقولون، لكنها شعرت اليوم أنها تقصد شيئًا بالفعل، ولا تحاول أن تبدو مهمة فحسب، أو ربما هي التي ستبدو كالمريب الذي يقول خذوني، لو سألتها إن كانت تقصد شيئًا؟

صاحبنا بقى .. حبيبنا .. زميلنا!!

لماذا تبدو (مياد) وكأنها تقول لها حرفيًا، (هذا سرك الذي أقسم على حفظه، لكنني سأظل ألمح له لسبب ما، حتى ينتبه الجميع لك وله)؟! كذا فكرت وهي تؤجل محاولة فهم كل ذلك لما بعد، لأنها لا تريدها أن تسحبها في الحوار إلى حيث تريد هي، وإن لم ترغب في التصريح بما تقصد بدلًا من هذا العبث، فستعتبر أنها لا تقصد شيئًا بالفعل، وأنه ما من شيء كي تقصده أو لا، ليستمر الحديث بطريقة طبيعية وهي تقول:

طب إحكيلي بقى حكاية بابا اللي قلتو لي عليها

وربما كان كل ما دار بفكرها خيالًا لقلقها الزائد فحسب؟ من يدري؟ لأن (ميادة) تحدثت بطريقة



عادية جداً كأن شيئًا لم يكن فعلًا وهي تقول بابتسامة حزينة شاردة:

أحكيللك..

حكى الصبي للرجل عن كل شيء تقريبًا. أفرغ ما بداخله على هيئة كلام حين جفت دموعه تماماً..

لم تنتبه (دنيا) إلى الدموع التي ملأت عينيها وسالت على وجهها في صمت حتى بدأت تغرقه وتتساقط عنه على يديها المضمومتين في حجرها، وهي جالسه تنصت إلى ما حكته أختها بالتناوب مع أمها التي بكت هي الأخرى بشدة وهي تقول:

تخيلي لما يبقى عم الشيخ .. الراجل العظيم ده، اللي تتمني بس نظرة من عينيه .. كان وهو صغير..! تحسي إنك عايزة .. تلطمي كده على وشك من كتر الزعل و..

بدت وكأنها عاجزة عن إتمام عبارتها من فرط إختناقها بالدموع التي راحت تمسحها بلا جدوى كي تنبت غيرها، في حين مسحت (دنيا) وهي تقول:

وأبوه ده!!



لأ! لأ إوعي..! عشانه هو مش عشان حد تاني، هو يؤذيه إنك تتكلمي عليه وحش، ده أبوه برضو مهما كان

كذا قاطعتها (نجوى) في حين قالت (ميادة):

أمال لو شوفتيه بقى بيعامله إزاي لحد النهاردة..!

لتعود (نجوى) وتكمل وكأنها تعد على أصابعها:

شوفي وهو في مكانته دي! أبوه بيزعق له، ويعترض على كل حاجة بيقولها، ويحرجه قدام الناس .. بيقول له في وشه، (بقى أنا، أقعد أسمعك أنت، وإنت بتقول قال اللّه وقال الرسول؟!)، وهو قمة في الأدب والأخلاق، وحاضر يا بابا، وتحت أمرك ومن عيني، وصابر عليه رغم كل اللي عمله وبيعمله فيه طول حياته!

نقلت عينيها المتسعتين دهشة وتأثرًا بينهما وهي تقول:

طب إزاي؟؟ إزاي قادر؟! ده أنا لو مكانه ممكن أبقى مش عايزة أشوف أبويا ده تاني، إزاي هو كويس معاه قوي كده؟!!



ارتسمت على وجه (ميادة) واحدة من ابتساماتها الهادئة ذات المغزى وهي تقول:

ماهو لو ماعملش كده مايبقاش عم الشيخ

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

عدن (٢٠١٥)

هو طلبك؟

آه

شغل؟

معرفش

كذا رد عليها باقتضاب وهو متشاغل بهندمة ملابسه أمام المرآة الكبيرة في غرفة نومهما. ورغم البشاشة التي يعرف بها الجميع وجهه القسيم المريح، إلا أنه بدا تلك الليلة جامداً عابساً غريباً، وكأنه خلع قناع الابتسامة المرحة الذي يضعه دائماً أمام الناس حتى ظنوا أنه ليس بقناع من الأساس.

اقتربت منه بحذر لتربت على ذراعه برفق وهي تقول:



معلش

بدا وكأن قليلًا من الضيق أو الغيظ المكتوم قد تسرب إلى ملامحه وصوته وهو يقول:

على إيه؟

دفعها قليلًا كأنه يزيحها عن طريقه وترك مكانه متجهًا نحو الدولاب العريض الذي فتح أحد ضلفه وقلب بداخلها كأنه يبحث عن شيء ما، في حين وقفت هي خلفه صامتة قليلًا قبل أن تعود لتقول فجأة بشيء من الانفعال والتردد الحائر:

بصراحة أنا كنت فاكرة إنه .. أو نفسي..! أصل إنت اللي عارف وفاهم كل كبيرة وصغيرة في كل حاجة..

قطب جبينه وقد بدا أن نسبة الضيق على وجهه زادت دون أن تراها وإن شعرت بها قليلًا في عصبية حركاته، ورغم ذلك تابعت:

إنت اللي تعبان وشايل كل حاجة فوق دماغك، بس في الخفا، محدش شايفك، مش إنت اللي بتحضر المناسبات وتقابل الناس المهمة عشان تبقى إنت اللي في الصورة، ويبان إن إنت اللي عارف كل حاجة، وإن إنت الكل في الكل



هو أدرى بالصالح

قالها بصوت أجش حاول جعله باردًا فعادت هي تقول:

أيوه بس .. بصراحة حرام يعني!

التفت لها عاقدًا حاجبيه بطريقة أخافتها قليلًا وهو يقول:

هو إيه ده اللي حرام بالضبط؟! ما تشوفي إنتي بتتكلمي عن مين!

أنا .. أنا مش قصدي واللّه، أنا بس حاسة إن إنت نفسك متضايق عشـ..

متضايق وللا مش متضايق، هي اتعلنت خلاص وهو أدرى بالصالح قلنا ومش عايز كلمة تانية في الموضوع ده!!

بس إنت عارف أنا قصدي إيه! عارف إن الـ..

لم تتمكن من إتمام عبارتها لشدة فزعها من منظره وهو يندفع فجأة نحوها بشراسة ليعتصر عضديها بين قبضتيه، ويدفعها بقوة حتى يرتطم ظهرها بالحائط خلفها بعنف، اصطكت له أسنانها داخل فمها، حتى كادت تحطم بعضها البعض.



يعني إيه؟

القاهرة (٢٠١٥)

يعني هاجي مزرعتكم وأقابل شيخك زي ما إنتي عايزة بالضبط

عشان تدخل الطريقة، وللا عشان تثبت لي إنها غلط؟

قالتها (دنيا) بحذر فرد عليها (صالح) بلهجة بسيطة هادئة:

لا ده ولا ده، عشان (أجرب) وأشوف بنفسي زي ما إنتي قلتي. هبقى محايد كأني معرفش أي حاجة عن شيخك ولا عن الصوفية كلها. مش هحط أي أفكار أو قناعات مسبقة في دماغي عن أي حاجة خالص من الآخر، فاللي هشوفه هحكم عليه زي ما هو، طلع كويس، يبقى الحمد للّه، ما طلعش، يبقى المفروض ده لوحده إثبات كافي جداً لك إنها غلط، ومش هحتاج ساعتها أثبت لك أنا أي حاجة أصلًا

لم تعرف ما تقول، ولم تستطع استشفاف الكثير من مشاعره أو ما يفكر فيه فعلًا، ولا إن كان جاداً صادقًا فيما يقول أم لا. ورغم أنها كانت تعلم قدرته



على إخفاء ما بداخله جيداً، إلا أنها اختارت أن تصدق جدية صوته، ووجدت نفسها فجأة تزفر بارتياح كأن حمل كل تلك الأيام السابقة، ما بين شد وجذب بينهما حول الأمر، قد انزاح أخيرًا من على صدرها. لكنها سرعان ما سحبت ذلك النفس ثانية وهي تشهق قليلًا بلا صوت، وقلبها يدق بعنف وهي تسمعه يقول بابتسامة تبدت في صوته:

أقدر أقابل والدك إمتى بقى؟

عدن (٢٠١٥)

دا بابا أعلنها خلاص في الدرس التلات اللي فات

أعلن إيه؟

كذا سألت (دنيا) التي دخلت لتوها لحيث تجلس أمها وأختها التي غفا (مصطفى) الصغير على حجرها وهي تجيب بابتسامة:

اللي هيمسك مشيخة الطريقة من بعده..

بفضول متلهف جلست في الكرسي المجاور سائلة:

مين؟؟



على إخفاء ما بداخله جيداً، إلا أنها اختارت أن تصدق جدية صوته، ووجدت نفسها فجأة تزفر بارتياح كأن حمل كل تلك الأيام السابقة، ما بين شد وجذب بينهما حول الأمر، قد انزاح أخيرًا من على صدرها. لكنها سرعان ما سحبت ذلك النفس ثانية وهي تشهق قليلًا بلا صوت، وقلبها يدق بعنف وهي تسمعه يقول بابتسامة تبدت في صوته:

أقدر أقابل والدك إمتى بقى؟

عدن (٢٠١٥)

دا بابا أعلنها خلاص في الدرس التلات اللي فات

أعلن إيه؟

كذا سألت (دنيا) التي دخلت لتوها لحيث تجلس أمها وأختها التي غفا (مصطفى) الصغير على حجرها وهي تجيب بابتسامة:

اللي هيمسك مشيخة الطريقة من بعده..

بفضول متلهف جلست في الكرسي المجاور سائلة:

مين؟؟

.. (محمد)

قالتها بابتسامة قبل أن تشرد قليلًا، في حين ابتسمت (نجوى) ابتسامة واسعة بدت غريبة بعض الشيء وهي تقول:

آه هو أخد القرار يا حبيبي خلاص..

و(محمد) كمان ما شاء اللّه بيدي دروس من دلوقت

قالتها (ميادة) بنفس الابتسامة قبل أن تخفض عينيها ببطء نحو طفلها النائم ببراءة واستكانة بين ذراعيها، وتعود لتشرد من جديد. أما (دنيا)، فقد شعرت بمزيج من الدهشة والحيرة، وبدت وكأنها مصدومة أو تفكر في شيء ما وهي تقول:

هو .. مش المفروض إن..؟ أنا كنت فاكرة إنه..!

هيبقى (ياسين)؟!

قالتها (ميادة) كأنها تكمل عبارتها مطلقة ضحكة صافية بشكل غريب وكأنه مصطنع، كأنها تخفي بها شيئًا ما، رغم أن (دنيا) لم تعقب، ولم تقل شيئًا أصلًا، وربما لم تجد الفرصة لذلك، لأن (ميادة) تابعت بثقة وكأنها وافقتها بالفعل، وبلهجة



حكيم في التسعين ينصح طفلًا في التاسعة، قالت:

لأ دي حاجة بابا هو اللي أدرى بها، هو اللي عارف مين الأقدر على خلافته، وإحنا مالناش نتكلم في حاجة زي كده لأن إحنا مش عارفين اللي هو عارفه..

لتكمل (نجوى):

ولا شايفين اللي هو شايفه

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

عدن (٢٠١٥)

تجاهل صوت البكاء الهستيري المتوسل بعبارات متكسرة غير مترابطة، والذي خرج من الصغيرة المسكينة التي صحت من نومها مفزوعة على صوت والديهما وهما يتشاجران، فخرجت من غرفتها بذعر لتجد أبوها وقد حشر أمها بينه وبين الحائط وهو يهزها بعنف يضربها بالجدار خلفها بقوة صارخًا:

أنا مش قلت مش عايز كلمة تانية في الموضوع ده؟!! قلت ولا ما قلتش؟؟!!



بدا وكأن ما يحدث يفرز أدرينالينًا بداخلها، بقدر ما يروعها، ليجعلها عصبية متحدية، بدلًا من خائفة منكسرة، كي تصرخ في وجهه بالمثل وهي تقول:

إنت لو ما كنتش شايف إني صح، ومش متضايق زيي وأكتر من اللي حصل، ما كنتش عملت كل اللي إنت بتعمله ده أصلًا!!!

عدن (٢٠١٥)

كنا لسه في سيرتك واللّه يا (ياسين)

بجد؟ طب على اللّه يكون بالخير بقى!

كذا رد بوجهه البشوش على حماته وهو يضحك بمرح ويقف أمامها عند مدخل فيلاتهم من الخارج قرب سيارته التي يجلس في أريكتها الخلفية، ابن (بتول) ابنة الشيخ (مصطفى)، الذي راح يشير لهم ويقوم بحركات طفولية من النافذة الخلفية نصف المفتوحة، فأسرعت هي تقول باستنكار مبتسم:

يانهار أبيض! بالخير طبعًا يا حبيبي

طب كويس. هاتوا لي بقى الفارين الصغيرين اللي عندكوا جوه عشان ينضموا للفار التالت اللي عندي، ونروح نجيب حاجات حلوة لأن أنا وعدتهم



قالها بحماس فضحكت رغماً عنها وهي تلوح للطفل مداعبة وتقول:

طب هات (طفطف) وتعالى ارتاح جوة شوية، مش من على الباب كده

أرتاح من إيه هو أنا جاي ماشي على إيدي؟! ما أنا قاعد طول النهار في العربية أهو لما طلع لي كرش ما بقيتش عارف أسوقها منه!

أغرق الجميع في الضحك وهو ينهي عبارته بتربيتة على الكرش الصغير الذي يمتلكه بالفعل رغم عدم بدانته العامة، (نجوى) الواقفة بالباب، و(دنيا) التي وقفت خلفها بالداخل بجوار (ميادة) التي قالت:

(دودو) بتلعب مع صاحبتها يا بابا معلش

مين صاحبتها؟ فين صاحبتها دي؟؟ تيجي تجيب معانا حاجات حلوة هي كمان!

قالها بنفس الحماسة المرحة التي يظل الجميع مبتسمين لها رغماً عنهم في وجوده.أما (نجوى) فقد قالت شارحة مبتسمة بشيء من الخجل:



(فاطمة) بنت ابن الحاجة (سناء) مرات الشيخ (عوض) اللي في الفيللا اللي جنبنا

تيجي الحاجة (فاطمة) والحاجة (سناء) والحاج (عوض) نفسه! اللي عايز يجيب حاجة حلوة ييجي هنا يا جدعان!

ضحكوا ثانية والأطفال الثلاثة يخرجون إليه ليستقبلهم بمرح بالغ كأنه صديق لهم في مثل سنهم، يمازحهم ويداعبهم بلا انقطاع وهو يجلسهم في الأريكة الخلفية، بحماسة لرحلة شراء الحلوى وكأن كلها ستكون له هو في النهاية. تأكد من إحكام غلق البابين الخلفيين قبل أن يلتفت للنساء الثلاث الواقفات بمدخل الفيللا قائلًا:

وأنتوا مش هتيجوا تجيبوا حاجة حلوة؟ آه دا إنتوا الحاجة الحلوة نفسها صح!

تبع قوله بضحكة مداعبة وهو ينظر لوجوههن التي احمرت من شدة الضحك والخجل قبل أن يركب السيارة ويدير محركها منطلقًا بها ورافعًا ذراعه من النافذة المجاورة يلوح لهن وهو يبتعد، وهن يبادلنه التلويح بالمثل، هو والأطفال الجالسين في الخلف.



على طول لامم عيال المزرعة كلها عنده في العربية كده يفسحهم ويجيب لهم في حاجات حلوة

قالتها (ميادة) ضاحكة وهن تزحن الأحجبة المرتجلة اللائي وضعنها كيفما اتفق على رؤوسهن كي تقفن بالباب، لينزاح مع تلك الحركة جزء من سترتها الخفيفة عن كتفها قليلًا دون أن تشعر، في حين ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه (نجوى) وهي تغلق الباب وتتجه معهما لمجلسهن السابق وهي تقول:

ما شاء اللّه عليه يا حبيبي كلهم بيموتوا فيه

هو (ياسين) الصراحة لذيذ ودمه خفيف قوي

كذا قالت (دنيا) وهن تجلسن، وآثار الضحك ما تزال على وجهها، لتبادلتها (ميادة) بضحكة خافتة كوميدية، تشبه ضحكات شخصيات الكارتون الشريرة، وهي تفرك كفيها وتهمس كأنما تنوي غزو العالم:

لذيذ بقى والا مش لذيذ، المهم إنه خد العيال عشان نقعد براحتنا شوية

إنت إيه اللي إنت بتقوليه ده بس!



كذا قالت (نجوى) مستنكرة بسخط خفيف لتضحك (ميادة) وهي تقول:

عايزة أرتاح شوية بقى يا ماما، وأقعد ساعة واحدة على بعضها من غير وش!

يا ساترا ما تقعدي، هم كانوا قاعدين على قلبك؟!

نظرت لأمها وهزت رأسها بحركة مضحكة كأنها تأسف لحالها قائلة:

إنت لحق الزن يوحشك؟ ما هم قاعدين معاك تلات أرباع الوقت يا ماما

قولي لنفسك، لحقت إنت تزهقي من إيه بقى عشان .. إيه اللي في كتفك ده؟؟

اتجهت عينا (دنيا) في تلك اللحظة إلى ذراع أختها التي انتبهت لطرف سترتها الذي انزلق، لترفعه على كتفها مرة أخرى بسرعة، وهي تقول بهدوء:

لأ مفيش حاجة

كادت (نجوى) تضيف شيئًا لكنها صمتت لسبب ما في حين تساءلت (دنيا):

هو فيه إيه في كتفك؟



مفيش يا بنتي الجاكت كان واقع بس فعدلته. هتباتي بقى مع (ضحى) برضو النهاردة ولا هتقعدي معايا شوية مرة من نفسك؟

ضحكت بشيء من الخجل وهي تقول:

لأ هبات هنا

ألف بركة! وده من إمتى؟!

ضحكت ثانية و:

كنتي عايزة أسأل على حاجة صح

آه ده إنت مش قاعدة ببلاش بقى! قاعدة عشان تسألي، فيه تمن لقعادك يعني، وماله ياختي إسألي وأهو كله بتمنه، نبقى شفناكي برضو ولو بتمن

ضحك الثلاثة قبل أن تقول (دنيا):

هو أنا لو عايزة كتاب أوراد جديد عشان أوريه لحد، أجيبه منين؟

القديم الأزلي

حد زي مين؟؟



لم يكن في بال (دنيا) توقع مسبق معين لما يمكن أن تكونه ردة فعل أمها وأختها حين ألقت عليهما سؤالها، ربما بعض اللوم أو التأنيب الخفيف لما يحمله من دلالة على عدم مواظبتها على الأوراد، لكنها قطعًا لم تتوقع أن تكون تلك النظرة الغريبة الغير مفهومة التي تبادلتاها، والسؤال الذي ألقته أمها به بحدة لم تفهم لها سببًا، لتقول:

أي حد .. من صحابي وكده .. حاسة إنه عايز أو ممكن يدخل الطريقة مثلًا

لا تعرف لم ارتبكت وكأنها تقوم بجرم رغم منطقية إجابتها جداً من وجهة نظرها. من الطبيعي أن يطلع شخص يريد دخول طريقة على كتاب أورادها، تعرفًا على ما فيها على الأقل، أو حتى أي شخص في العالم، ما المانع ونحن نتكلم عن كتاب أوراد به أدعية وأذكار، لا مستندات سرية يجب التأكد من هوية أي شخص يلمسها؟

تعرفي يا (دنيا) إن (ياسين) حافظ الحزب السيفي كله؟

كذا قالت (ميادة) لتشعر (دنيا) إنها لا تفهم ما تريده بالضبط بعبارتها تلك وسط الموضوع. ما علاقة هذا بأي شيء الآن؟ ولماذا تبتسم بحكمة



هكذا وهي تتكلم كأنها (كانط)؟ لماذا نظرت لأمهما نظرة من ذوات المغزى كأنها تقول لها (صبرًا ودعي الأمر لي)، كأنها سألتهما عن فرش من الحشيش لا كتاب أوراد؟

عارفة ليه..؟ من كتر ما بيقراه. الرجالة عندنا في الطريقة مفروض عليهم يقروا الحزب السيفي تسع مرات في اليوم، مش مرة واحدة زينا، فـ (ياسين) خلاص بقى بيسمعه لوحده وهو ماشي أو سايق، بس عشان يقدر يستحمله

أحست بضيق لم تفهم سببه وهي تشعر أنها ما تزال لا تفهم، أو أن ما تفهمه لا يعجبها فتفضل إقناع نفسها أنها على خطأ، أو لم تفهم من الأساس. أما (نجوى) فقد بدت وكأن مجال الحديث قد انفتح لها ثانية كي تقول بحزم جاد وكأنها تشرح سرًا غامضًا خطيرًا:

مش أي حد يقدر يستحمل الأوراد، رجالة الطريقة يقدروا لأنهم مؤهلين لكده!

أي حد تاني يا بنتي ممكن يتأذي..

يخضع لي جميع من يراني



يعني إحنا بنقول لك الكلام ده عشان مصلحته هو الشخص ده.الأوراد بتاعتنا مش أي حد من بره الطريقة ينفع يقراها ولا أي حد يقدر عليها .. (صالح) بقى ولا فاسد، ولا أي حد..

كذا أكملت (ميادة) عبارتها مضيفة ابتسامة من ذوات المغزى إلى الجزء الأخير فيها، في حين أشاحت (نجوى) بوجهها بضيق كأنها تتشاغل بشيء لا وجود له. أما (دنيا) فقد شعرت بشيء من الغضب وهي تشعر أنها ما تزال لا تفهم. هل تعدت (ميادة) مرحلة التلميح إلى السر ودخلت إلىالتلقيح الآن لسبب ما؟ لكن من أقنعها أنها تقاسمت معها أي سر أصلًا؟ من أخبر (ميادة) بأي سر عنها؟ وهل وصل الأمر إلى أمها كذلك؟

ده إنت كنت بتتصنت بجد بقى!

صالح إيه وفاسد إيه ويتأذي إزاي؟؟! ما أنا قريت الحزب السيفي والأوراد كلها كتير عادي!

قالتها باستنكار لأختها التي أجابت على الفور بحرارة:

إنتي بنت طريقة يا بنتي! مش زي أي حد. اللي تستحمليه فيه رجالة بشنبات بره ما يستحملوهوش



بنت طريقة؟ وما الذي يعنيه هذا؟ أنها تأتي إلى (عدن)؟ تحضربعض الدروس والحضرات وليس كلها حتى؟ تتناول النفحات بعدها أحيانًا؟ ترى عم الشيخ وتقبل يده؟ كيف يجعلها هذا أقدر على أي شيء في أي شيء؟ كتاب اللّه نفسه يستطيع أي شخص امتلاكه وقراءة ما فيه. وما علاقة قوة الرجال وشواربهم بالأمر كله؟ هل هي حكاية قوة أم..

وتقصدي إيه بصالح وفاسد دي؟ إيه علاقتهم بالموضوع؟؟

قالتها بتحدي مقصود كأنها سئمت لعبة (ميادة) التي أجابت ببراءة:

ما أقصدش حاجة ومفيش أي علاقة، أنا باعمم الكلام إنه على الكل وعلى أي حد

عامة أنا كنت بتكلم على (شذى)، هي اللي جت في بالي لأني اتكلمت معاها في حاجات تخص الصوفية وآل البيت وحسيت فيه تقبل من ناحيتها، ومش عارفة الصراحة إيه كل اللي حصل ده وكان ليه؟ يعني لو (شذى) أو أي حد فعلًا عايز يدخل الطريقة، يعمل إيه؟

كان في كلامها جزء لا بأس به من الصدق، اعتمدت على تأثيره على وجهها وهي تتكلم كي تعطي



مصداقية أكبر لكلامها، الذي ما أن سمعته أمها وأختها حتى انبرتا تؤيدان وترحبان بالفكرة بحماسة وحرارة وكأنهما تنفيان أو تلغيان كل ما حدث منذ دقائق، لترتبك الدنيا في عقلها ثانية.

هل هما ترحبان بدخول صديقتها للطريقة فعلًا؟ أم تمثلان؟ إن كانتا ترحبان، فهل ترفضان فكرة دخول (صالح) إليها فقط؟ لماذا؟ بغض النظر عن علاقتهما التي لم تصبح رسمية بعد. وإن كانتا تمثلان، فلماذا أيضًا؟ هل هي طريقة سرية كأورادها؟ لكن الطريقة معروفة جدًا وهي تعرف ذلك جيدًا، كأي طريقة أخرى، وربما أكثر، ثم إنها سمعت قديمًا، وحديثًا، عن حكايات لمريدين كانوا سببًا في دخول معارفهم إليها، من أصدقاء وزملاء وخلافه. فلماذا يحدث معها هذا الآن؟ لماذا هي؟ لماذا (صالح)؟



(١٤)

القاهرة (٢٠١٥)

عشان أخوك قال لهم كل حاجة طبعًا، وعيلتك كلها عارفة الموضوع كله دلوقت، بس مش هيبينوا لك إنهم عارفين، ولما أروح أتكلم مع والدك هيبقى واخد مني نفس الموقف هو كمان للأسف

بابا؟ لأ بابا لا يمكن يكون عارف حاجة أصلًا، ده بيتعامل معايا عادي جداً

لأن محدش هيبين لك إنه عارف

لأ ماما لا يمكن تقول له حاجة زي دي لـ ..!

والدتك أصلًا لا يمكن تخبي عنه حاجة زي دي

قالها (صالح) مقاطعاً بثقة لم يقابلها سوى استنكار صامت خفيف من جانب (دنيا)، وهي تتساءل بداخلها عن جزمه بأشياء خاصة بعائلتها التي هي أدرى الناس بها.

كله من تحت راس (أمجد)! على طول يروح يرغي مع ماما ويدلق لها كـــ...



(أمجد)؟ إيه علاقة (أمجد) بالموضوع؟

مش هو اللي كان واقف يتصنت علينا وإحنا بنتكلم؟ وإنتي بنفسك اللي قلتي إنه راح قال لهم كل حاجة؟؟

أنا قلت أخوكي، ما قلتش (أمجد)

قالها بهدوء اتسعت معه عيناها بذهول مستنكر، في حين أكمل هو سائلًا بنفس الهدوء:

هو أنهي أخ اللي إنتي حكيتي له؟ (أمجد) ولا (هشام)؟

لأ يا (صالح)، لأ! (هشام) لا يمكن يـــ .. لا يمكن ..!!

براحتك. مش هتصدقيني في دي برضو زي ما إنتي مش مصدقة موضوع والدتك، ولا أي حاجة قلتها عن شيخك، بس يمكن الدنيا قدام تثبت لك إن كان عندي حق

نظرت مليًا في عينيه. هل يكذب؟ ولماذا سيكذب؟ هي لم تختبر صدق كل ما يقوله لها لكنها دائمًا ما ترى في عينيه وصوته إثباتًا له بشكلٍ ما. إن كان يكذب فما الذي سيجنيه من كل ذلك؟ وإن كان صادقًا .. فـــ ..



عرفت إزاي؟

أنا مستغرب من (هشام) زيك برضه على فكرة، بس مش عشان اللي قاله عني، لأ، عشان اللي قاله عن شيخك .. أو اللي شيخك قاله عنه

هو عم الشيخ على عيني وراسي يعني بس .. أنا ما ينفعش أي حد مهما كان يجبرني على الست اللي هعيش معاها بقية عمري..

و(هشام) ده بالذات بقى حبيبي، مالكش إنت دعوة بيه، إنتوا لو تعرفوا (هشام) ده عندي إيه، لتتمنوا كلكوا تبقوا مكانه

مش غريبة إن الشيخ (مصطفى) ما يشكرش جامد كده غير في أكتر واحد منتقده وبيعارضه في وسطكوا؟

إيه الصفحة المقطوعة دي؟

قالها وهو يقلب في أوائل صفحات كتاب الأوراد الصغير بين يديه فأجابته باقتضاب:

دي .. صورة (صادق) ابن الشيخ (آدم) الكبير اللّه يرحمه



عاد صفحة للوراء حيث صفحة صورة الشيخ (آدم) ليشير إليها متسائلًا:

الشيخ (ادم عبد الحي) اللي كان ماسك الطريقة قبل الشيخ (مصطفى)؟ المدفون في المقام اللي في (عدن)؟

و(عبد اللّه) يزجر نفسه داخليًا بشدة كلما انتابه الخوف، فكيف يخاف وهو في مقام مولانا؟ بل كيف يخاف من .. مولانا؟!

آه هو

طب وقاطعين صورته ليه؟

ما عشان كده كنت عايزة أجيب لك كتاب أوراد جديد مفيهوش الصورة دي، ده قديم موجود عندنا من زمان في المكتبة، اللي عرفت أجيبه

أيوه قاطعين صورة ابن شيخكوا منه ليه؟

عشان .. فيه مشاكل بخصوصه يعني..

مشاكل؟؟

تلجلجت (دنيا) قليلًا وكأنها لا تعرف كيف تجيب، أو لا ترغب، و(صالح) ينظر لها في صمت منتظراً



إجابتها التي تأخرت كي يزفر هو قليلًا قبل أن يقول:

إيه المشاكل اللي عملها ابن الشيخ اللي أسس طريقتكوا أصلًا، لدرجة إنكوا تقطعوا صورته من كتاب الأوراد بتاعكوا؟؟!

لم ترغب في أن يكون في بدايات ما يعرفه عن الطريقة مشاكلها، لن يفهم أن لا شيء يخلو من المشاكل وسيتخذ الأمر كدليل على صحة وجهة نظره في الطريقة وربما الصوفية كلها، لكنه بدا مصرًا على الحصول على إجابة رغم تخاذلها في منحها له، لذا أجابت رغمًا عنها:

أصله كان عايز يمسك الطريقة بعد والده..

طب وإيه يعني؟

الشيخ (مصطفى) هو الأحق بها! هو اللي شرب علم الشيخ (آدم) كله، هو اللي ورثه بجد إن كان الموضوع بالوراثة، بس وراثة علم مش وراثة نسب، لأن الموضوع مش بالوراثة أصلًا

هو .. مش المفروض إن..؟ أنا كنت فاكرة إنه..!



أمال ليه الشيخ (مصطفى) هيورث الطريقة لابنه من بعده؟

لأنه .. ممكن ابنه يورث عنه علمه برضه كمان .. عادي

صمت ونظر لها بثبات جعلها تندفع شارحة بلهجة دفاعية:

لأ الحكاية مش بس كده! ده كمان كان عايز يقلب الطريقة شيعة .. لأنه أصلًا من أصول إيرانيه، ولما لقى إنه مش هيعرف ينفذ اللي في دماغه، سافر هو ووالدته وأخوه على بلدهم في (ايران)

هو مش والده من نفس الأصول دي برضو؟

آآآ... أكيد

طب وهو كان شيعي؟

الشيخ (آدم)؟! لأ طبعًا!

أمال إشمعنى ابنه يعني اللي هيبقى شيعي؟

بها بها بها.بهيا بهيا بهيا.بهيات بهيات بهيات



انعقد حاجباه بشدة وبدا وهو ينظر إلى إحدى صفحات الكتيب الصغير وكأنه ينظر إلى حية سامة تتلوى أمامه، وهو يقول بصوت أجش غريب خفيض النبرات:

إيه ده؟؟!!

الأوراد بتاعتنا مش أي حد من بره الطريقة ينفع يقراها ولا أي حد يقدر عليها..

إنتوا بتقروا الكلام ده؟؟!

كلام إيه؟؟

الحزب الكبير، صفحة ١٧ .. ده سرياني!

سرياني يعني إيه؟!

خيل لها أنها ترى في عينيه نظرة غريبة حين رفعها إليها وهو يقول:

يعني كلام له علاقة بالجن والسحر والأعمال والحاجات دي..

أي حد تاني يا بنتي ممكن يتأذي..



انتفضت في مكانها وكأن سوطًا لسعها بقوة وهي تهتف بعينين متسعتين، كأنها توجه الكلام لنفسها قبل أن توجهه له:

جن إيه وسـ ..؟! لأ طبعًا مفيش الكلام ده!!

مش عايزة تصدقي برضه في دي رغم إنك ما كنتيش عارفة إنت بتقري إيه طول السنين اللي فاتت، ومش فاهمة أصلًا يعني إيه سرياني..

اتسعت عيناها أكثر في صمت وقد بدا لها محقًا بشكل مخيف، خاصة مع اللهجة التي نطق بها عبارته، لهجة صادق يائس، أو نبي يعرف أن أحدًا لا يصدقه، وما عاد يهمه حتى أن يصدقه أحد من الأساس. أرعبها أنه لم يصر على موقفه ولا على ما قاله ولم يعاندها فيه، فقط قطب جبينه بشدة في صمت كأنه ضائق بشيء أو يفكر في شيءٍ ما، قبل أن يثبت عينيه في عينيها وهو يقول ببطء، وبنفس اللهجة:

أنا مش هقنعك بحاجة .. ولا هحاول أثبت لك أي حاجة زي ما وعدتك، لكن هطلب منك طلب وهرجوكي تنفذيه، لأني مش ممكن أجبرك .. فمن فضلك، من فضلك يا (دنيا) ما تقريش الكلام ده مع نفسك كده تاني، ولا ترديه بصوت مسموع..



عشانك إنتي مش عشاني..

بدا وكأن علامات الاستفهام والتعجب التي ألقاها في طريقها تثيرها أكثر مما تثيره هو نفسه، حتى شعرت أنه لم يلقها في طريقها أصلًا، بل كانت ملقاة فيه من الأساس، وكل ما فعله هو إزاحة لقليل من تراب الأرض عنها كي تراها. أهي التي اختارت ألا ترى رغم شعورها بكل شيء من البداية؟ وكأنها كلما سارت أكثر في ذلك الطريق، اضطرت لوطء كل ما تستغربه بداخله تحت قدميه، كي تدفنه في الأرض أكثر وتخفيه، وتتمكن من إكمال المسير؟

أم أن (صالح) فقط يملك ثقة وكاريزما تترك في نفسها هذا التأثير؟ أم لأنها تحبه؟ وحبها يجعلها تميل لتصديق كل ما يقول؟ لكنه صدق وعده معها بالفعل حتى الآن، ظاهريًا على الأقل، لم يخلع عنه عباءة النبي الصادق اليائس، لم يتراجع عما قاله ولم يعاندها في شيء، فقط اتخذ دور المتأمل الحيادي الذي يكتفي بإلقاء تساؤلاته المنطقية كي تجيب هي عليها، وتثبت كل شيء لنفسها بنفسها، فهل كل هذا قناع ودور يلعبه، أم أنه حقًا صادق في كل شيء؟

لكن .. حتى وإن لم يكن صادقًا مائة بالمائة، وكل هذه تمثيلية يقوم بها ليثبت لها خطأها في



النهاية، أليس كل ما يقوله يبدو صحيحًا ومنطقيًا إلى حد كبير؟ أمن الممكن أن يكون الأمر كله لعبة دخلها وهو واثق من صحة موقفه وخروجه منتصرًا لا محالة؟ أيكون هذا مبررًا لتمثيله؟ ودليل على صدقه في البداية وإن لم يكن تام الصدق الآن؟

لكنه رغم كل شيء، سار في الطريق الذي وعدها بالسير فيه، فقابل والدها، وتقدم لطلب يدها منه رسميًا كي يتحدد موعد لمقابلة باقي العائلة وقراءة الفاتحة، كنوع من التعارف، والخطبة المبدئية.

عدن (٢٠١٥)

تعرفي إن عم الشيخ (مصطفى) قابل الشيخ (آدم عبد الحي) قبل ما يدخل الطريقة خالص أصلًا؟

لم يبد على (دنيا) أنها فهمت العبارة التي قالتها أمها بابتسامة متأملة شاردة تحمل شيئًا من التأثر، وهما تجلسان مع (ميادة) في شرفة فيللاتهم في المزرعة، في تلك الفترة الهادئة ما بين العصر والمغرب، والتي تجبرك على نوع من الاسترخاء أو الكسل، وتدفع البعض للنوم حتى في قيلولة قصيرة. لذلك كانت النسوة الثلاث تجلسن متراخيات تتبادلن أطراف الحديث بهدوء حين انفتح ذلك الموضوع، والذي تساءلت (دنيا) بفضول



مندهش عنه لتعود (نجوى) وتحكي شارحة بنفس الابتسامة:

عم الشيخ قابل الشيخ (آدم) زمان في)طنطا) وهو صغير، ما كانش يعرفه خالص ولا يعرف هو مين ولا حتى اسمه بالكامل، كل اللي يعرفه إنه الراجل الطيب الطويل اللي ريحته مسك، اللي بيقابله عند السيد (البدوي) وينضف له هدومه ويمسح له وشه، وياخده عشان يتوضوا ويزوروا ويصلوا سوا هناك، بعديها يشتري منه كل الخضار البايظ اللي معاه، ويدي له فلوس زيادة يروح بها لأبوه..

رجل طويل مهيب، أبيض يرتدي السواد..

بعدييين بقى لما كبر عم الشيخ، ودخل الطريقة كمريد عادي وهو شاب وشاف الشيخ (آدم)، افتكر الراجل اللي إدى له العمة زمان وهو صغير، لما كانت راسه تعبانة يا عيني وشعره بيقع، وقال له تفضل لابسها وما تقلعهاش من راسك تلات أيام، قال له حتى تنام وتستحمى بيها. بيقول لقى راسه بعد تلات أيام بالضبط خفت خالص من المرض، وشعره رجع أحسن من الأول، وكأن ما كانش عنده حاجة أصلًا..

سرحت (دنيا) في الحكاية وفي رحابة الأفق الأخضر الواسع أمامها، ونسمات الهواء الباردة تمس



وجهها برقة. هذه الراحة التي تشعر بها هنا، في هذا المكان، الذي لم تشعر في غيره بما تشعر فيه، هل هي حقيقية أم زائفة؟ هل مبعثها ما تشمه مع هواء المكان من قدسية روحانية غريبة، أم إيحاء نفسي قوي فقط بكل هذا؟

هل يمكن .. هل يمكن ألا يكون الشيخ (مصطفى)..؟!

– هو اللي شرب علم الشيخ (آدم) كله، هو اللي ورثه بجد إن كان الموضوع بالوراثة، بس وراثة علم مش وراثة نسب..

لماذا تقابلا قديمًا؟ لماذا يتقابل شيخ طريقة مع خليفته وهو طفل قبل أن ينضم ذلك الخليفة إلى الطريقة، أو يعرف حتى معنى طريقة من الأساس؟ لماذا ينضم ذلك الطفل حين يكبر إلى طريقة سيصبح خليفة شيخها الذي هو بالذات نفس الرجل الذي قابله منذ زمن؟ أي صدفة تجعل شيئًا كهذا يحدث، إن كانت صدفة أصلًا؟ وما بال حادثة العمامة الغريبة هذه هي الأخرى؟ هل السر فيها أم في الشيخ (آدم)، أم الشيخ (مصطفى)، أم في الثلاثة معًا؟

هل السر في الرجل، أم العمامة، أم الإثنين معًا؟



والعمة دي فين دلوقت ..؟ لسه مع عم الشيخ ولا..؟

القاهرة (٢٠١٥)

لم يبد (عثمان) شديد الترحيب بـ (صالح) وطلبه والفكرة كلها، لكنه أيضًا لم يملك سببًا قويًا يرفض قطعيًا لأجله، لا في (صالح) نفسه ولا في أي شيء آخر، لذلك سارت الأمور بنوع من الموافقة على مضض، وتقاطرت بعض الأشياء لـ (دنيا) عن كلام لمح به (عثمان) عن مقابلته لـ (صالح)، كعدم ارتياحه الكامل الغير مبرر له، أو الشعور الغريب الذي انتابه عند رؤيته ولم يدر له سببًا رغم قوته.

ودلوقت لما أروح أتكلم مع والدك هيكون واخد مني نفس الموقف هو كمان للأسف

سبحت الأسرة لفترة في شعور عام غامض من عدم الارتياح، رغم المباركة التي حاولوا إظهارها بشيءٍ من التخاذل وهم يهنؤون (دنيا) ويبدون فرحتهم بها، غير ناسين أن يلمحوا، وإن لم يصرحوا تمامًا، أن هذا الوهابي الغريب، الذيلم يرتح له والدها لسببٍ ما، فضلته هي على ابن الشيخ (مصطفى)، رغم صوتها الذي بُحّ من تكرار نفيها للأمر.



وتقرر أن تقوم الأسرة بدعوة عريس ابنتهم لفيللاتهم في (عدن)، بسبب ظاهري يكاد الكل يعرف أنه غير حقيقي ومفتعل نوعاً، وهو قضاء يوم وقفة عيد الأضحى وليلته معهم هناك، وأما السبب الحقيقي، فهو دفعه لمقابلة الشيخ (مصطفى)، أو بمعنى أصح، كي يراه الشيخ (مصطفى) ويقوم بما يشبهكشف الهيئة له، الأمر الذي اندهشت (دنيا) حقاً لموافقة (صالح) عليه وهي تعلم أنه يعلم النية من ورائه جيداً، فرغم أنه أبدى بالفعل قليلًا من التساؤل حول، مبدأ انتظار أسرتها لرأي وموافقة أو مباركة من رجل غريب، وإن كان شيخ طريقتهم، في أمر كهذا، ووالد صاحبة الشأن نفسه موجود وعلى قيد الحياة وبكامل صحته وقواه، إلا أنه وافق في النهاية على الحضور.

عدن (٢٠١٥)

عرفات

حين وصل بسيارته السوداء الصغيرة في موعده المحدد بالضبط، باكر صباح يوم وقفة عيد الأضحى، كان (صالح) في كامل أناقته ولباقته كالعادة، حتى أنه لم ينس إحضار بعض الهدايا البسيطة، والثمينة رغم ذلك، لكل أفراد الأسرة معه، حتى (عايدة) عمة (دنيا) و(ضحى) ابنتها، حتى أنه كان من الواضح أنه فكر ملياً وبعناية في كل هدية يأتي



بها ولمن ستكون، كأنه يعرف كل واحد منهم جيداً ويعرف ما يحبه وما سيناسبه.

(وعد) و(مصطفى) الصغيرين تقافزا فرحًا بالألعاب والحلوى التي كانت من نصيبهما، وبدا على وجه (ضحى) دهشة وفرحة لم تستطع إخفاءهما وهي تطالع الرواية التي كانت على ذوقها الأدبي تماماً، حتى أنها خجلت من نفسها قليلًا حين شعرت بنوع من الغيرة الأنثوية أو الحسد الخفيف لابنة خالها على عرسيها الوسيم المبهر.

باختصار، بدا (صالح) كشيء مثالي جداً لا يُرفض، ولا تخرج منه العيبة بأي شكل كما يقولون، بتهذيبه ولياقته التي بدأت بحضوره في موعده المحدد لدرجة تضبط معها ساعتك عليه، مروراً بحديثه الراقي المحترم مع (عثمان)، المرح المتباسط مع (هشام) و(أمجد)، والطفولي الوديع جداً مع الصغيرين اللذين بدوا وكأنهما التصقا به منذ وصوله، ولا يرغبان في تركه للحظة واحدة بشكل غريب.

لم يظهر منه ما يمكن الاعتراض عليه، ظاهريًا على الأقل، الأمر الذي صعب مهمة النسوة الثلاث، (نجوى) و(عايدة) و(ميادة)، في الهمز واللمز عليه في الخفاء، والتلميح بغير قصد، أو بقصد، أمام (دنيا)، باعتراضات بدت غريبة ولا معنى لها في نظرها، من



نوعية، شعرت بشيء ما حين رأيته لا أدري ما هو، أووجهه يحمل صفة لا أستطيع تحديدها لكنها لا تريحني والتي بدت أغلبها لها كاعتراضات من باب الاعتراض فقط، فآثرت الصمت عنها، وكظمت ما يعتمل بداخلها.

لكنها تعود وتطالع (صالح) من طرف خفي أيضًا، وتسأل نفسها إن كان في بعض ما يقولون نوع من الصحة، أو إن كانت اعتراضاتهم هذه حقيقية نابعة من صفات يحملها فعلًا، وهي فقط التي تعجز عن رؤيتها لأنها لا تعرفه جيداً حقًا كما تظن، ولا تكاد تخفض منظار الحب الوردي التي تنظر له من خلاله دائمًا.

هم أهلها في النهاية، أكثر من تهمهم مصلحتها وسعادتها كما هو مفترض، ولو نظرت للأمر من وجهة مغايرة قليلًا، فلربما وجدت أنهم على شيء من الحق بشكل ما، فهم من تربت وعاشت معهم وفي كنفهم طوال عمرها، وهوالغريب عنها، حرفياً، الذي دخل إلى حياتها مؤخراً جداً.فهل هم حياديون يصفون ما يرونه فعليًا فيه، وهي التي يؤثر الحب عليها لتراه أفضل مما هو عليه حقًا؟ أم أنها هي التي تعرفه جيداً كما لا يعرفه أحد منهم، وهم الواقعين تحت تأثير أنهالوهابي الذي رفضت ابن الشيخ لأجله، كما يظنون، ليرونه أسوأ مما هو عليه بكثير؟



ساعات بحس إني عارفاك قوي، وساعات تانية بحس إني .. مش عارفاك خالص..

يللا يا شباب .. الفطار جاهز

كانت صالة الاستقبال الواسعة بالفيللا تضم، إلى جانب طاقم الصالون الفخم الذي جلس (صالح) في أحد مقاعده الكبيرة مبتسماً يداعب الصغيرين الملتصقين المشدوهين به، طاولة السفرة الكبيرة التي وقف بجوارها (عثمان) وهو يقول عبارته مبتسماً، بدبلوماسيته المتخشبة قليلًا التي يتحدث بها دومًا مع (صالح) أو في وجوده، فما كان من ذلك الأخير إلا أن رفع عينيه بشيء من الخجل أو الحيرة، وهو ينقلهما بين مائدة الإفطار العامرة، و(عثمان) الذي يقف بجوارها، تقف بجواره (نجوى) التي كان على وجهها ابتسامة واسعة غريبة هي الأخرى، فيها مرح مصطنع وشبه كبير من ابتسامة زوجها، وهي تقول:

لأ أنا ما بعرفش أعزم، هاته يا (هشام) بقى وتعالوا عشان هو شكله مكسوف

(أمجد) طبعًا نهض بلا مبالاة ليسبق الجميع إلى الطعام كالعادة، الأمر الذي زمت له (دنيا) شفتيها في غيظ صامت مكتوم، خاصة حين لم تبدِ أمها أي اعتراض عليه رغم قلة الذوق الفجة جداً فيه. أما



(هشام)، فعلى النقيض التام، وكعادته أيضًا، نهض يدعو (صالح) بمرح واهتمام حقيقي للنهوض معه.

لأ هو أنا .. أنا أصلي صايم، عشان الوقفة، وكنت فاكر إنه..!

لم تمكنه لباقته من إتمام عبارته بأنه كان يظنهم أيضًا سيصومون، أو أغلبهم على الأقل، فلم يكن الصيام فرضًا في ذلك اليوم طبعًا، ولم يكن من اللياقة فعلًا أن تأتي ضيفًا صائمًا على مضيفيك، لكن يوم (عرفة) سنة مؤكدة يكاد كل مسلم على وجه الأرض يقتنصها إن لم يكن لديه عذر ما، والناس فيها عادة ما يدعون بعضهم البعض فعلًا، ولكن إلى ولائم إفطار الصيام وليس الصباح.

ولكن، حين تبين لـ (دنيا) المندهشة أنه ما من صائمين اليوم سواها و(صالح) فحسب، تعجبت في داخلها قليلًا من سلوك عائلتها، بل وشعرت بنوع من الخجل والإحراج منهم أمامه، وهي التي قدمتهم له على أنهم أناس روحانيون متدينون حقًا بلا تزمت، فأي تدين هذا وهم جميعًا لا يصومون حتى يوم عرفة؟ ولا يمكن أن يتصادف أن يكون لديهم جميعًا، من أكبرهم لأصغرهم، أعذارًا تبرر ذلك.



والأمر لم يكن به أي عذر بالفعل، فرغم أن كل ما فعله (صالح) كان الاعتذار بتهذيب عن مشاركتهم الطعام، مقسماً بلهجة شديدة الصدق أنه لا مشكلة لديه على الإطلاق من انتظارهم حتى ينتهوا هم منه، ولم يسأل أو يستفسر حتى عن أي شيء، إلا أن (عثمان) و(نجوى) تطوعا مبتسمين بالشرح، قائلين ما لم تسمعه (دنيا) نفسها في حياتها من قبل:

إنت دلوقت واقف على (عرفات)، واللي في الحج ما بيصومش يوم (عرفة)

كأنك في (عرفة) بالضبط، يعني كمان بتاخد أجر اللي بيحج .. وإنت قاعد في مكانك!

بيفسر القرآن والحديث بطريقة تخليك تقولي (انا إزاي فعلًا ما فكرتش إن الآية دي معناها كده!) لأنك بتلاقي المعنى ده بسيط جداً ومنطقي..

هل ما يقوله الشيخ (مصطفى) صادق لأنه منطقي؟ أم أنه يبدو صادقًا منطقياً لأن الشيخ (مصطفى) يقوله؟ لأنه لو قلنا أنه لا يوجد ما يمنع أن تكون (عدن) موضعًا يحمل قدسية بشكل ما، فإنه يظل من الصعب أن ننزله بنفس منزلة أرض (عرفات)، لأنه، وإن لم يكن هناك نص قاطع باستحالة تشابه أرضها مع أي أرض أخرى، فإنه أيضاً



لا يوجد نص يقول باستحالة تشابه (الكعبة) مع أي بناء آخر، لكن هذا لا يعني أنه لا مانع من اعتبار أي بناء آخر بنفس مكانتها.

دارت الأفكار في رأس (دنيا) وهي تنظر لـ (صالح) الذي ظل على هدوئه وابتسامته وإصراره على موقفه، الأمر الذي غمزت له النسوة الثلاث المتحدات ضده لبعضهن البعض، وهن تتخذن مجالسهن حول الطاولة.لكنها لم تعرف إن كانت تتخيل، أم أن الجميع فعلًا بدوا مقبلين على الطعام أكثر بعد رفض (صالح) مشاركتهم له إكمالًا لصومه، وكأنهم يعاقبونه عليه، أو مقتنعون جداً بصحة موقفهم لدرجة اللامبالاة بأي اعتبار آخر. شعرت أنها تكاد تجن وتحاول إقناع نفسها أنها تتخيل، أن بعضهم لا يكاد يبدو جائعًا أصلًا، ومع ذلك يشق رغيفاً ويأكل لقمة أو اثنتين، كنوع غريب من إثبات موقف أغرب.

لكن الأغرب من هذا كله جاء مع نهاية النهار، عند حلول موعد آذان المغرب، لتلاحظ (دنيا) في ذهول كيف أنها لم تنتبه أبداً، لعدم سماعها لأي صوت أذان في (عدن) كلها من قبل، وكيف تكون موضعاً مقدساً كـ (عرفات)، وهي لا تحمل على أرضها مسجداً واحداً؟



(١٥)

عدن (٢٠١٥)

لم يقل (صالح) شيئًا ولم يعترض، بل ولم يعلق حتى، و(دنيا) نفسها ذاهلة، تتابع والديها وهما يبدلان بكل هدوء وثقة، ما بين البحث بالريموت بين قنوات التليفيزيون عن آذان المغرب في محطة أقرب محافظة لـ (عدن)، ليحسبوا موعد حلوله وجواز الإفطار فيها، وبين كتم صوته تمامًا في محاولة لسماع صوت الأذان، يبدو من شدة خفوته أنه يأتي من مسجد بعيد جدًا، يقع بالتأكيد خارج حدودها تمامًا. وبعد فترة طويلة أظلمت خلالها الدنيا بشكل يراه الأعمى نفسه، ورفع الآذان في كل محافظة لها محطة على التليفيزيون، تأكد الجميع أخيرًا أن الشمس قد غربت بالفعل، وأن أوان كسر الصيام قد حان. لكن ما كسروا عليه صيامهم لم يختلف كثيرًا في غرابته، عما ظل يحدث طوال ذلك اليوم.

هنيئًا لأهلِ الديرِ كمْ سكروا بها .....وما شربوا منها ولكنّهمْ همّوا

كان ببراءة زجاجة مياه عادية جدًا، باردة ويبدو أنها غير جديدة ومستخدمة من قبل، قدمت لـ (صالح)



وقت الإفطار كي يكسر صيامه عليه، وبنوع غريب خفي من الإصرار، أو وضعه أمام الأمر الواقع، لأنهم لم يجبروه فعليًا بالطبع عليها، لكن لم يقدموا له كذلك أي مصدر آخر للشرب، وكأنهم يقولون (ان أردت أن تشرب فمن هذه وإلا فلا).

ورغم أن كسر الصيام على ماء ليس بالأمر الغريب، بل هو مستحب، إلا أن تقديم الماء لضيف ما يزال غريبًا عنهم نوعًا على هذا النحو، لا في كأس ولا في كوب أو حتى زجاجة جديدة، أمر فيه شيء من الغرابة، ربما دل على نوع من التباسط، كأنه ليس ضيفًا بل واحد من الأسرة، وربما كان هذا شيء جيد جداً في ظاهره، إلا أن (دنيا) تعلم جيداً أيضًا أن أسرتها لا تعتبر (صالح) فرداً منها على الإطلاق، وأن الموقف المتخذ منه بشكل عام، سلبي متحفز، لا متباسط بهذا الشكل.

ورغم أن الزجاجة بدت بالفعل عادية جداً، ولا تكاد تفرقها عن أي زجاجة مياه عشوائية أخرى، إلا أن (دنيا) شعرت أنها تعرف تلك الزجاجة جيداً، وتعرف ما فيها، لأنها شربت منها من قبل.

محدش بقى يقرب من دول عشان أبقى أسقيهم لأختكوا بكره أما ترجع

دي مياة (زمزم)؟



كذا تساءل (صالح) بلهجة عادية جداً، وابتسامة هادئة، لم يسأل عن أي شيء آخر، ولم يُبدِ تأنفاً أو تعجباً من أي شيء، فقط رفع الزجاجة على فمه للحظات قليلة لا تعرف معها إن كان قد شرب القليل جداً أم أنه لم يشرب شيئاً من الأساس. ورغم منطقية سؤاله، نظراً لحال ما قدم له، والذي يشي بأن تلك الزجاجة ولا بد تحمل خصوصية ما، وأن أول ما يتبادر لذهن مسلم عن ذلك هو أنها تحوي ماء (زمزم)، إلا أن أحداً لم يجبه على الإطلاق، بل وبدا وكأن الكل يتجنب ذلك عمداً بالابتعاد عن الموضوع، وقول كلام متناثر ومختلط ولا معنى له أو هدف، إلا تشتيت سائل عن سؤاله فحسب.

لكن حين وصلت الزجاجة لـ (دنيا) كي تكسر عليها صيامها هي الأخرى، تأكدت أنها عين تلك التي كانت في بالها من قبل، وحين رفعتها على فمها هي كذلك، وذاقت طعم مائها، واشتمت تلك الرائحة الغريبة الخفيفة فيها، الشبيهة بالعطن، تأكدت كذلك أن (صالح) ولا بد قد لاحظ كل ذلك هو أيضاً، وإن صمت تماماً عنه، وأن ذاك لم يكن ماء زمزم على الإطلاق.

إستني يا (دنيا) ما تشربيهاش كلها، سيبي حبة في الآخر



أنزلت الزجاجة عن فمها بعد أن شربت قليلًا بتساؤل وهي ترى أمها تستعيدها منها لتملأها بماء عادي من الصنبور بنوع من الحماسة وكأنها وجدت حلًا لشيءٍ وهي تضيف شارحة بفرحة:

مش هاسيب الإزازة تخلص خالص وهزود عليها كل شوية، عشان يفضل دايمًا ولو حتى حبة نقط أو ذرات من المياة اللي في الإزازة اللي شرب منها عم الشيخ

دخل النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فقال عندنا فعرق، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي (صلى اللّه عليه وسلم) فقال: يا أم (سليم) ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب.

أنا مش فاهمة إيه كل ده أصلًا! مش مريح .. شكله غريب .. بصته غريبة .. العيال مخضوضين منه! راكبه شيطان، راكبه عفريت، راكبه جن أزرق!! لييييه؟! ما الراجل جه لحد عندنا وراح بنفسه يقابل عم الشيخ، وبيتعامل بكل أدب واحترام رغم كل شيء

كان التوتر والقلق قد بلغا مبلغهما داخل (دنيا) كي تهتف بعبارتها تلك بعصبية وهي تقف على



باب مطبخ الفيللا الذي تقف بداخله (ميادة). وأما مبعث ذلك كله فهو المقابلة التي تعلم أنها ستبدأ في أي لحظة الآن، بين (صالح) والشيخ (مصطفى)، في مكتب الأخير، والتي لا تعلم إلام ستؤول بالضبط، بعد أن غادر الأول برفقة (عثمان) و(هشام)، في اتجاههم لها.

وطي صوتك، عمتك وبنتها يسمعوا!

كذا ردت (ميادة) بهمس عصبي وعينين متستعتين، وهي تضغط ذراع أختها بقوة لتسحبها معها داخل المطبخ، والأخيرة تقلب وجهها بسخط وإن خفضت صوتها قليلًا بالفعل وهي تقول:

دا على أساس إنهم مش عارفين كل حاجة منكم أصلًا! وعمتك قاعدة تغمز لك إنتي وماما طول النهار و..!!

استنى استني .. منكم مين يا بنتي؟؟ أمك نفسها ما تعرفش كل حاجة، أنا والله ما قلت لها كل اللي أعرفه عشان ما تتخضش، وما حكيتش لحد حتى نص اللي حكاه لي (هشام)

لأ! (هشام) لا يمكن يـــ .. لا يمكن..!



المكتب

كل سنة وحضرتك طيب يا عم الشيخ

رفع (هشام) رأسه عن يد الشيخ (مصطفى) التي قبلها وهو يقول عبارته مبتسماً باحترام وإجلال، قبل أن يفسح المجال بهدوء لـ (صالح) الواقف خلفه كي يتقدم من الشيخ ويسلم عليه هو كذلك، ليتقدم فعلًا بهدوء، ويمد يده لمصافحته و..

التقت أعينهما ببعضها البعض، وأقسم كل منهما لنفسه أنه لم ير من يراه هذا في حياته من قبل، لكنه بشكل ما يعرفه، لسبب ما يعرف اسمه، وشكله، وكل شيء عنه.

الفيللا

الكلام ده بيننا وبين بعض يا (دنيا)، محدش يا بنتي يعرف عنه حاجة، ومش بقوله لك غير عشان مصلحتك، ده اللي خلى (هشام) يقوله لي أصلًا، قالهولي أنا بس والله، لأنه قلق عليكي، إوعي تزعلي منه، دا أخوكي! وإنتي عارفة هو بيحبك قد إيه .. وأنا بحبك، أكتر منه كمان!

المكتب



تعالى يا (هشام)

كذا قال الشيخ بابتسامة هادئة كي يهب (هشام) من الأريكة التي جلس عليها داخل مكتب الشيخ (مصطفى)، وقد جلس كل من (صالح) و(عثمان) في الكرسيين الكبيرين أمام المكتب الذي جلس خلفه الشيخ، والذي كان وجهه المريح بشوشاً كعادته وهو يتصرف بطريقة طبيعية، وكأن وجهه لم يشحب منذ قليل، ولم يظهر عليه تعبير غريب طفيف، فور وقوع عينيه على (صالح)، الذي بدا عليه وقتها أيضاً تأثير مشابه، وإن ظل هو الآخر يبتسم ويتكلم بطريقة عادية لبقة جداً.

الفيللا

هيخس علينا إيه يعني يا بنتي؟ يزعلنا في إيه إنك تتجوزي واحد بتحبيه؟! ده إحنا أخواتك، ده إحنا نفرح لك! وأنا تهمني مصلحتك زي ما بتهمني مصلحة (وعد) بالضبط .. أقسم لك باللّه يا (دنيا) لو (وعد) بنتي هي اللي مكانك لقلت لها نفس اللي بقوله لك ده، صدقيني..!!

المكتب

بدا وكأن كلًا من الشيخ و(صالح) يضع قناعاً هادئًا يخفي تحته شيئًا يعتمل في نفسه، شيء كنس



مؤقتًا تحت السجاد ليختفي وإن ظلت رائحته تعبق المكان. أما (عثمان) فقد تقطب جبينه قليلًا في شيء من القلق وعيناه تتحركان كأنه يفكر.

خد المفاتيح دي وروح لـ (ياسين) في البرج قل له يعمل اللي قلت له عليه، هو هيفهم

قالها الشيخ رافعًا يده بسلسلة المفاتيح التي أشار لها في عبارته، ليلتقطها (هشام) على الفور بتهذيب وهو يقول:

أمرك يا عم الشيخ

طبعًا هناك سر في الموضوع، لكن (هشام) لم يعلم ما هو بالضبط، رغم تفكيره في الأمر وهو يغادر المكتب في اتجاهه لتنفيذ ما طلب منه، وقد أدرك جيدًا أن ذلك الطلب أصلًا ليس إلا إثبات قوي لوجود ذلك السر، وطريقة لإخراجه من المكتب فحسب.

الفيللا

بذمتك إنتي نفسك مش حاسة إن (صالح) ده وراه سر؟! ما بتحسيش بحاجة غريبة وإنتي باصة ليه؟؟ الهالات الغامقة اللي تحت عينه، والكوابيس العجيبة اللي ما بيرضاش يحكي عنها وما



بتخليهوش يعرف ينام، الشمس اللي عنده (حساسية) منها، وبتجيب له صداع! والصداع اللي دايمًا عنده ومحدش عارف له سبب..!!

فيه حاجات كتير إنتي ما تعرفيهاش عني

المكتب

حقوق .. جميل .. قلت لي بقى إسمك إيه بالكامل يا (صالح)..؟ أصلي .. بشبّه عليك...

وبنفس البساطة، والابتسامة الهادئة التي ألقى بها الشيخ (مصطفى) سؤاله، أجاب (صالح):

(صالح خضير)

و(خضير) ده .. اسم والدك ولا لقب العائلة؟

لقب

لقبك الحقيقي؟

هو (الشاذلي) لقب حضرتك الحقيقي؟

الفيللا



العيال من ساعة ما شافوه وهم هاديين بطريقة غريبة .. إنت عمرك شفت ولادي بالهدوء ده بذمتك؟! طب شفت كانوا بيبصوا له إزاي طول الوقت؟؟ شوفتيه وهو بيحط إيده على أدمغتهم، ويحرك شفايفه من غير صوت، كأنه بيقرا حاجة في سره؟؟!

فقط ظل ينظر له مبتسمًا قبل أن يمد كفه الكبير ليهبط به على رأسه ثم يغمض عينيه وشفتيه تهمهمان بخفة كأنه يتكلم بلا صوت..

كلام له علاقة بالجن..

المكتب

أمال والدك إسمه إيه؟

ده عشان حضرتك بتشبه علي برضه؟

بالضبط..

إسمه (آدم)

الفيللا

أهله اللي ما شوفناهمش، ولا نعرف عنهم أي حاجة، وبيقول إن كلهم ماتوا من زمان .. كلهم!

أهله كلهم ماتوا؟! مالوش أي قريب حتى من بعيد؟؟ فيه حد مقطوع من شجرة للدرجة دي كأنه زرع شيطاني كده؟؟!

المكتب

(آدم) إيه ..؟

عايز تعرف إسم جدي؟؟

عايز أعرف إسم والدك بالكامل لأنك تشبه واحد كنت أعرفه .. وكان حبيبي قوي..

بياض بشرته ..... قامته الفارعة وبنيته العريضة ..... عينيه الواسعتين الحادتين ... الحاجبين العريضين فوقهما ... أنفه الكبير المستقيم ... شاربه المنمق أسفله، الموصول بلحية كثيفة ناعمة مهذبة...

..طوله الفارع وكتفيه العريضتين, شعره الناعم شديد السواد, وبشرته شديدة البياض.....أنفه المستقيم وحاجبيه العريضين فوق عينيه الواسعتين الحادتين..

(عبد الحي)

عيلتك كلها عارفة الموضوع كله دلوقت..



الفيللا

همممم .. كنت عارفة، كنت عارفة من الأول واللّه وقلت إن فيه حاجة غريبة!

كذا قالت (ميادة) بصوت خفيض وهي تستمع لما حكاه (هشام) الذي عاد يقول بصوت خفيض هو كذلك:

إنت لو شوفت عم الشيخ بص له إزاي .. وللا هو بص لعم الشيخ إزاي..!

إزاي يا وله؟؟!

دار الحوار الخفيض في غرفة من غرف الفيللا، وقفت (دنيا) خارجها على مقربة من بابها الموارب، بموضع يتيح لها سماع من بداخلها دون أن يتيح لهم رؤيتها، ووجه يحمل تعبيراً يصعب وصفه.

إستنني إستنني .. منكم مين يا بنتي؟؟ أمك نفسها ما تعرفش كل حاجة، أنا واللّه ما قلت لها كل اللي أعرفه عشان ما تتخضش، وما حكيتش لحد حتى نص اللي حكاه لي (هشام)..

بداخل الغرفة وقفت (ميادة) وإلى يمينها (هشام)، الذي نفذ طلب الشيخ (مصطفى) ليجد (ياسين)



يأخذ منه المفاتيح فقط كي يضعها في جيبه ويخبره بمرحه المعتاد أنه يستطيع العودة لمنزله الآن، وبطريقة جعلت الأمر كله يبدو وكأنه حدث بالاتفاق ليغادر المكتب فحسب، والذي حكاه من أوله لـ (ميادة) التي وقفت وإلى يسارها (نجوى)، التي كانت من هتف بتلك العبارة الأخيرة بلهفة.

بس مش هيبينوا لك إنهم عارفين..

إنت بتعرف كل ده إزاي؟؟

لم يخطئ (صالح). لم يخطئ في حرف واحد مما قاله حتى الآن. أخبرها مسبقًا بما فعل وسيفعل كل واحد بالضبط .. من سيفشي سرًا ومن سيكذب .. بل ومن سيكذب حول إفشاء الأسرار...

أهلها التي قضت معهم عمرها كله، لا تثق بأحد كما تثق بهم، تفعل ما يفعلون وتأكل مما يأكلون .. وتشرب مما يشربون، كي تدرك اليوم فقط، عمق الوحل الذي راحت قدميها تغوص فيه طوال ذلك العمر كله، وهي تحسب نفسها في أطهر موضع في الوجود، جنة يملكها رجل كان أحب ما لها في الدنيا، حب غريب كأنه لأبيها وربما أكثر، لأنه مختلط بتقديس .. اكتشفت اليوم كم هو أعمى.



يعني أنا ما كنتش عايزة الحاجة هي اللي تعرف إننا كنا واقفين مع (ابتسام)

لييييه؟؟

ألقت تساؤلها المندهش بفضول على ابنة عمتها التي ترددت قليلًا قبل أن تعود لتكمل كلامها بصوت خفضته لا إراديًا قليلًا، وهي تقول:

آ .. (دنيا) الكلام ده مايطلعش بره! ماما ما قالتليش إن كان حد يعرف حاجة عن اللي عملته (ابتسام) ده وللا لأ، بس هو .. هي الحاجة أكيد عارفة طبعًا .. عشان كده بتتضايق منها..

ليه هي عملت إيه؟؟!

راحت لعم الشيخ المكتب وقابلته وحدها .. وعرضت نفسها عليه

لم تشعر (ضحى) باتساع عينيها وهي تنظر لأمها وقد خيل إليها أنها لم تفهم ما سمعته أصلًا كي تعود لتسأل بذهول حائر:

عرضت نفسها يعني إيه؟؟

حَدَّثَنَا (عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)، حَدَّثَنَا مَرْحُومُ بْنُ (عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مِهْرَانَ)، قَالَ: سَمِعْتُ (ثَابِتًا الْبُنَانِيَّ)، قَالَ:



كُنْتُ عِنْدَ (أَنَسٍ) وَعِنْدَهُ ابْنَةٌ لَهُ، قَالَ (أَنَسٌ): جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تَعْرِضُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَكَ بِي حَاجَةٌ؟

يا نهار إسود .. راحت قالت له إتجوزني؟!

قَالَتْ بِنْتُ أَنَسٍ: مَا أَقَلَّ حَيَاءَهَا، وَا سَوْأَتَاهْ وَا سَوْأَتَاهْ ..

لم تشعر (دنيا) كذلك بعينيها اللتين اتسعتا لا إراديًا هي الأخرى، تمامًا كـ (ضحى)، التي سألت أمها من قبل، نفس السؤال الذي تسأله لها ابنة خالها الآن:

طب وبابا عمل معاها إيه؟؟

فقَالَ: «هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ، رَغِبَتْ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا»

والذي شردت قليلًا بشيء من الحيرة قبل أن تجيب عنه قائلة:

معرفش

تقديس أعمى، وحب أبوي. من منهما أدى إلى الآخر؟ هي لا تعرف حقًا، فقد يؤدي التقديس الأعمى لشعور شبيه أبوي نحو من تقدسه، وكأنك في حاجة



إليه كالأطفال، وقد يؤدي الحب الأبوي لتقديس أعمى، ولذلك لا زالت ترفض بقلبها، وبشدة، كل ما يصرخ به عقلها من منطقيات عنبابا، كاكتشافها المرعب المفاجئ مثلًا بأن كل هذا قد يكون هو السبب أصلًا في كلمةبابا التي ظهرت مؤخراً، والتي صارت تنادي بها الشيخ (مصطفى)، عوضاً عنعم الشيخ، التي تذكر جيداً أنها نشأت عليها، ولا تعرف فعلًا كيف ولا متى، تحولت تدريجيًا لبابا.

بابا التي لم تلغيعم الشيخ طبعًا، لكنها ظهرت فجأة على لسان أغلب أبناء الطريقة، من صغيرهم لكبيرهم، بنسائهم ورجالهم، وبشكل لا تعرف معه إن كان اختلاط الحب الأبوي بالتقديس الأعمى في وجدانهم، هو من كون ذلك اللقب، الذي هو غريب فعلًا على شيخ طريقة، أم أن اللقب قد أقحم إقحاماً في وجدانهم، بغرض ترسيخ الإحساس الأبوي ذاك، وبأنك طفل وفي حاجة إلىأبيك الشيخ ليرعاك.

تشابه أسماء طبعًا!

وتشابه أشكال كمان؟

كذا رد الشيخ (مصطفى) على (عثمان) وهما يجلسان في خلوتهما المعتادة بمكتب الأول، بعد انتهاء المقابلة، ينفثان دخان سيجاريهما، الأول



بتفكير عميق ووجه غائم رغم هدوئه، والثاني بشيء من الاستنكار وهو يقول:

هو أي اتنين طوال عراض، بيض وشعرهم ناعم، يبقوا قرايب؟؟ ثم إن لقبه الـــ..

الحقيقي؟

هو (الشاذلي) لقب حضرتك الحقيقي؟

رده بالشكل ده مالوش غير معنى واحد، إن ده مش لقبه الحقيقي فعلًا، وإنه كمان عارف إن لقبي أنا برضو مش حقيقي، معلومة زي دي مش أي حد يعرفها عني، وفيه ناس قريبين مني جداً ما يعرفوهاش .. لكن هو كان عارف

هو..؟ إنت عايز تقنعني إن اللي كان قاعد معانا ده...؟؟!

ابن الشيخ (آدم) الكبير..

((عرض التليفيزيون الإيراني ظهر اليوم أول صور للمناطق التي تأثرت بالزلزال المدمر الذي ضرب شمال وغرب البلاد، وخلف أكثر من ٥٠٠ قتيل ونحو ٢٠٠٠ جريح، بالإضافة إلى ١٢ ألف مشرد. وأعاد الزلزال إلى الأذهان الزلزال المدمر الذي ضرب قبل ١٢ سنة



مدينة (رودبار) في المنطقة نفسها، وأودى بحياة ٤٠ ألف شخص..))

صورة .. (صادق) .... اللّه يرحمه

مات يا (مصطفى)، (صادق) مات بعد ما سافر بكام شهر..

التقديس الأعمى جعلها تغض البصر طوال عمرها عن كل ما يحيط بعم الشيخ، غوث الزمان، صاحب الجنة المباركة كأرض (عرفات)، الذي يتبرك مريدوا طريقته بالماء الذي يشرب منه، وتعرض النساء أنفسهن عليه للزواج وكأنه رسول اللّه.

والشعور الأبوي يجعلها الآن عاجزة عن تصديق كل هذا عنبابا، يجعلها تكاد تبكي وتضرب رأسها بالجدار حتى تشجه وهي لا تفهم لماذا يتركبابا مريدينه يقدسونه هكذا وكأنه الرسول نفسه، إن كان لا يعلم بالأمر أصلًا فكيف يكون غوث الزمان؟ وإن كان غوث الزمان فكيف يسمح به من الأساس؟

هو ووالدته وأخوه..

لكن .. من قال أن الشيخ (مصطفى) غوث الزمان أصلًا؟ هي لم تسمعه يقول شيئًا كهذا في حياتها من قبل، في أي درس حضرته أو حتى كلام عادي



قاله، كما لم تسمع منه فعليًا أي شيء عن موضوع (عرفات). لا تعرف ما فعل مع ما فعلته (ابتسام)، إن كان الأمر برمته قد حدث فعلًا. ولا ذنب له إن كان هناك من يتبرك به بطرق غريبة من خلف ظهره دون أن يعلم.

الشيخ (مصطفى) قد لا يكون أكثر من ولي صالح، أو حتى شيخ طريقة عادي جداً، لم يدع بلسانه يومًا أنه أي شيء أكثر من هذا، وإن ظنه بعض المخطئين من مريديه، ربما هم من تعاملوا معه باعتباره غوثًا للزمان، فحملوه ما لا يحمل ولا يحتمل، وربما لا تكون (عدن) أكثر من قطعة أرض حولها لجنة غناء، فقط كي يجد من يقدسها بهذا الشكل الغريب، في حين لم يصفها هو بأنها أي شيء أكثر من مجرد مزرعة.

وربما هي كذلك واحدة من أولئك المخطئين، حين حسبت أن الرجل في مكانة ثم حاسبته لأنه لا يتصرف بقدر تلك المكانة، كأنها طفلة حسبت أباها يومًا ملكًا من فرط حبها له وافتخارها به، وحين كبرت فهمت أنه ليس كذلك فصرخت باكية بأنه ليس بأبيها أصلًا، بل ومجرم شرير أخطأ حين تصرف بنبل الملوك وهو من عامة الشعب.

أم أن كل هذ مجرد تبريرات فقط لأنها لا تريد فعلًا أن تتقبل كل ما اكتشفته عن أبيها ذاك؟



والكلام ده كان من تلاتاشر سنة .. إنت نسيت وgولا إيه؟!

وسواء كان الشيخ (مصطفى) يعلم بكل هذا وله يد أو ذنب فيه أم لا، فإن كلتي الحالتين لا تنفي وقوعه فعلًا، كما لا يوجد ما ينفي وقوع كل ما وقع مع أهلها، دون النظر إلى أي نية أو قصد. باختصار، كل ما أخبرها به (صالح) يظل حقيقيًا في ظاهره بغض النظر عن أي شيء في الخفاء. كأنها جريمة قتل على يد جارك في البناية التي تسكن فيها، أخبرك عنها أحدهم، لتكتشف في النهاية أنها لم تكن جريمة أصلًا وإنما دفاع شرعي عن النفس.

الفكرة هنا أن (أحدهم) هذا لم يكن مصيبًا في كلامه عن الجزء المتعلق بالجريمة فعلًا، لكن جزءالقتل يظل قتلًا رغم كل شيء، والفعل نفسه لا ينتفي لمجرد أن النية سليمة، فالسؤال هنا هو، كيف عرف (احدهم) بحادث بنايتك التي لا يسكن فيها، وقد قابلك أنت نفسك للمرة الأولى في حياتك بالأمس فقط؟

لأ بجد عرفت إزاي؟

إنت اللي شكلك نسيت إن أخو (صادق) الصغير، كان اسمه (صالح)



(١٦)

عدن (٢٠١٥)

عند وشوك انتهاء يوم الوقفة، وقرب موعد رحيل (صالح)، أخذه (هشام) و(أمجد) في نوع من الجولة العامة والتمشية الخفيفة، مصطحبين أختهما الصغرى وطفلي الكبرى. تقافز الطفلين في مرح أمام البالغين الذين راحوا يتبادلون أحاديثًا ودية خفيفة، وابتسامات تبدو طبيعية جداً لأي عابر من بعيد.

لكنك مع ذلك إن دققت، فستشعر بحرارة زائدة غريبة في مزاح (هشام)، تشي بعصبية تشي بدورها بنوع من الافتعال، على عكس (أمجد) بوجهه البارد قليل الانفعالات، والذي لا تعرف معه أبداً ما يدور بداخله حقاً.

أما (دنيا)، فقد بدا وكأنها لا تمثل من الأساس، اختلاط المشاعر والأفكار في رأسها جعل وجهها يظل متأرجحًا بين التصلب الشارد والضحكات العصبية القصيرة. لكنها في فترات صمتها المتصلب تلك، كانت تحدج الثلاثة الآخرين بنظرات تبدو عادية، وفيها شيء من الجمود رغم ذلك، ربما لأن ذاك هو الجزء الذي استطاعته من التمثيل، أن



تضع وجه لاعب البوكر هذا إخفاءاً لأي شيء وكل شيء.

لكن خلف وجه لاعب البوكر هذا، اشتعل قلبها من (هشام)، وكيف يبدو الآن لطيفاً كما هو دوماً بدرجة جعلتها تشك فعليًا فيما سمعته بأذنها شخصيًا منه، ولتكتشف أيضًا، أن تصرفاته التي ترى ما فيها الآن من تمثيل، ليست إلا طريقته العادية في الكلام والمزاح بالفعل، وإن لم ترى ما فيها من تمثيل من قبل لأنها لم تدرك أبداً، أو لم تتصور لسذاجتها، قدرته على أن يكون بوجهين جداً هكذا، كما هو مع (صالح)، ومعها هي نفسها. وكيف أنها ربما إن فقدت ثقتها فيه الآن، ستكون قد فقدتها تماماً وبالكامل وللأبد، في أي شخص وأي شيء في المستقبل.

و(صالح)...

(صالح) هو الوحيد الذي بدا طبيعيًا جداً تماماً كالطفلين، وكأن كل ما في قلبه يخرج كما هو على لسانه ووجهه بالفعل، أو أنه الوحيد بينهم الذي يستحق فعلًا لقب ممثل، محترف، بل وجائزة كذلك على تمثيله، حتى حين بدا وكأن الظروف تجبره على خوض اختبارات لثباته الانفعالي، وربما ثبات (دنيا) معه كذلك، فقد كانت المشاعر التي تعتمل بداخلها نحوه خلف وجه لاعب البوكر



الصامت، كثيرة، لكن أقواها على الإطلاق كان شعوراً غامضاً بالقلق والترقب لم تعهده معه من قبل، وبعد كل ما قاله وما حدث، فقد كانت طبيعيته هذه، بطريقة ما، تخيفها.

واللي إنتي مش شايفاه؟

يعني إيه؟

يعني فيه حاجات كتير إنتي ماتعرفيهاش عني

مش هتأثر في رأيي فيك، لأن كل شيء نسبي، وبما إن مفيش حاجة أو حد كامل فعلًا زي ما إنت بتقول، يعني مفيش شيء مطلق، فلو أخدنا الحاجات اللي أعرفها عنك كعينة، وحسبنا نسبة الحاجات الحلوة اللي فيها هي بس، هنلاقي النسبة دي عالية جداً، وتقترب فعلًا من الكمال

مش يمكن أنا مخبي عليك كل الوحش؟

لطالما كره ذلك الشعور لدرجة، جعلته لا يكاد يعترف به أبداً، ولو حتى لنفسه، إن اعتراه. لذلك قرر الشيخ (مصطفى) التحجج بما يتيح له إنهاء خلوته مع (عثمان) في المكتب، كي يختلي هو بنفسه في ظلام سيارته التي فتح جميع نوافذها، أملًا في أن يغسل هواء الليل البارد عنها رائحة الخوف، التي



ظلت تزكم أنفه رغم ذلك، حتى كادت تصيبه حقًا بالغثيان، وحتى أن معدته انقلبت وتقلصت بالفعل في نوع من الألم، ذكره بأيام خالية مضت، لم يكن يرغب في تذكرها أبدًا، ربما لأنه خاف كثيرًا فيما مضى، فأقسم لنفسه أنه لن يخاف مرة أخرى، ولذلك أيضًا تعب كثيرًا، حتى حصن نفسه أخيرًا ضد ذلك الشعور الكريه، بأمان ظن أنه لن يجعله يشعر به ثانية أبدًا في المستقبل.

زأر محرك السيارة وهو ينطلق بها بتلك السرعة الرهيبة، الخطرة نوعًا، والتي يعرف بها أحيانًا، في صمت تام، ووجه جاد تقطب جبينه قليلًا.دارت عيناه في أنحاء (عدن) الشاسعة، التي لم تقلل سرعته في الدوران داخلها من إحساسه باتساعها. ركز عينيه على الطريق، حاول تهدئة نفسه كي يتمكن على الأقل من التفكير بشكل سليم غير متخبط، لكن عقله أبى إلا أن يلح عليه باسترجاع ما دار بينه وبين (عثمان) منذ قليل في المكتب.

العيل الصغير اللي كان بيلعب حوالينا ونجيب له شوكولاتة؟!

الكلام ده كان من تلاتاشر سنة زي ما إنت بتقول

صمت (عثمان) وكأنما هبط كل ما كان يعتمل في نفس (مصطفى) على رأسه دفعة واحدة، وشرد



قليلًا كأنه يفكر قبل أن يقول:

طب وده جاي ليه دلوقت؟ عايز إيه؟؟ بيعمل كل ده ليه؟!

عايز يمسك الطريقة بعد والده..

عايز يقلب الطريقة شيعة .. لأنه أصلًا من أصول إيرانية، ولما لقى إنه مش هيعرف ينفذ اللي في دماغه، سافر هو ووالدته وأخوه على بلدهم في (ايران)

هيكون ليه في رأيك..؟

اعتاد أهل (عدن) على صوت سيارة الشيخ (مصطفى)، حتى أنهم عند التقاط آذانهم لأي صوت سيارة مارة من بعيد، يتوقفون عن السير والحديث وينصتون جيداً، ليتبينوا إن كان ذلك صوت سيارة بابا أم لا، لأنهم قد حفظوا عن ظهر قلب، امتزاج هدير المحرك القوي بزئير السرعة الفائقة. أما بعضهم، فقد زاد أيضًا بحفظه لتشكيل وألوان كشافاتها الأمامية، والخلفية، لحفظه كذلك ماركة السيارة وموديلها وسنة تصنيعها، والتي كانت في الغالب نفس السنة الحالية، لأنبابا يحب تغيير سياراته بشكل دوري،



حفاظًا على مظهره كرجل أعمال، تمامًا كحرصه على أناقة ملبسه وغلو عطوره.

أما السبب الآخر في توقفهم عن السير والحديث، فهو ترقبهم لاحتمالية ضربة حظ تهبط على رؤوسهم من السماء، وتجعل الشيخ يوقف سيارته عندهم كي يحظوا بالتسليم عليه، ذلك لأنه في أحيان كثيرة، أو في الغالب ربما، يكون مشغولًا جداً بأشياء أهم وأكبر وأكثر بكثير، لذلك كانوا يشعرون بامتنان وسعادة لا حد لها، إن اقتطع الشيخ (مصطفى) نفسه، بكل جلاله، شيئًا من وقته الثمين لأجل مريديه، رغم مشاغله التي لا تنتهي.

وربما لأن الليلة ليلة عيد، يجب أن يفرح بها المسلمون، بدا لأهل (عدن) وكأن اللّه قد استجاب لدعائهم وجبر بخاطرهم، حين سمع السائر والواقف قرب الساحة، صوت سيارة الشيخ (مصطفى) يقترب منهم، فلا يصدقوا أنفسهم حين يجدوه يوقفها عند المجموعة تلو الأخرى من المريدين، أو حتى مريد واحد فقط يقف بمفرده.

كل واحد وكل مجموعة، وكما اعتادوا على الدوام، يقفون باحترام وترقب على جانب الطريق، داعين اللّه بحرارة بالغة في سريرتهم، أو حتى بصوت مسموع، أن يكون دورهم هو التالي، وألا يرحل



الشيخ عن موضعهم قبل أن يسلموا عليه، حريصين دومًا، بأدب علمه لهم قربهم منه، على ترك مسافة كافية بينهم وبين من يسبقهم، إن أراد أحدهم أن يسر أمرًا للشيخ أو يشكوا إليه بثًا أو حزنًا.

وربما فقط لأن الشيخ قرر في تلك الليلة التوقف للمريدين لسبب ما، لحاجة في نفس (يعقوب). ولا أحد يدري إن كانت الصدفة أم القدر، أم فعل فاعل من البشر، أو غير ذلك، هو السبب وراء تواجد تلك المجموعة الطريفة قرب الساحة في ذلك الوقت بالضبط، والمكونة من طفلين وأربعة من البالغين، أحدهم فتاة تحاول جاهدة إبقاء وجه لاعب البوكر على وجهها.

يللا عشان نسلم على عم الشيخ .. نسلم على بابا!

كذا هتف (هشام) محايلًا (مصطفى) الصغير، ومحاولًا حمله وإثنائه عن العبث بحصى الطريق دون أن يجعله يبكي، والصغير يأبى إلا التذمر بطفولية، في حين وقفت (وعد) بأدب وترقب ممسكة بيد خالها الآخر ومتقدمة المجموعة معه.

أما (دنيا)، فقد كانت منشغلة عن كل هذا ببصرها الذي تعلق بالشيخ (مصطفى) و(صالح)، وتأرجح بينهما.الأول قريب منهم بدرجة تجعلهم يرون



ابتسامته المشرقة من داخل سيارته، وهو يسحب يده كي لا يقبلها بعض المريدين، يتقبل مظاريفاً من البعض بشيء من الخجل والتواضع، صغيرة بحجم لا تسع معه إلا خطابات مكتوبة، أو أوراق مالية. والثاني لا يشي وجهه ولا عيناه بأي شيء وهو يقف صامتاً مبتسماً، بهدوئه ورصانته المعتادين.

ومن ضمن من تقبل منهم الشيخ مظروفاً، وإن لم يسمح لهم بتقبيل يده، كانت (عايدة)، عمة (دنيا)، التي لمحتها في تلك اللحظة بشيء من الدهشة لعدم انتباههم لقربها منهم من الأساس، وإن رجحت أنها ربما لم تكن قريبة جداً بالفعل، وإنما هرعت مع من هرعوا نحو نقطة التجمهر التي يعرف الجميع أنها غالباً ما تكون محطة لوقوف الشيخ بينهم، أو أنها أصلًا كانت في الشاليه الخاص بها، والذي يقع قرب الساحة، وخرجت كعادتها مسرعة للحاق به، عند سماع صوت سيارته يأتي من بعيد.

الدور عليهم الآن ليقترب الشيخ منهم بسيارته، وليركض كل من الطفلين نحوه ليتقابلا في منتصف المسافة بينهما، فيرفع كل من الأخين واحد من الطفلين كي يقبل يد الشيخ هو والطفل وهم يلفظون عبارات السلام والمباركة بالعيد، في مزيج من التأثر والفرحة والخجل، وبالغ الاحترام.



أما (دنيا)، فقد بدا أنها تؤخر دورها في السلام عن قصد، ربما ككل مرة يعصف بها خجلها الشديد، وربما لسبب آخر تلك المرة، ربما لمراقبة تعبيرات وجه (صالح)، الذي ظل لا يشي بأي شيء على الإطلاق، محافظًا في نفس الوقت على هدوئه، بابتسامته الودودة ونظرته المهذبة، بطريقة لا تعرف معها كيف يظهر مشاعرًا تبدو حقيقية أصيلة جدًا هكذا، و في نفس الوقت يخفي أي شيء يدل على ما يفكر فعليًا فيه.

اتجهت أخيرًا نحو الشيخ حين لم يبق الدور سوى عليها وعليه، لم تدر لما انتابها شعور غريب هذه المرة، وهي تقدم على فعل أقدمت عليه مليون مرة في حياتها من قبل دون أيٍ مشكلة، شعرت أن عينًا كاشفة تراقبها، وأن شيئًا ما يعتريها لينزلق في جوفها ساحبًا معه روحها للأسفل، كأنها على وشك أن تسقط مغشيًا عليها.

وفي النهاية، ودون طبعًا أن ينحني أو يقبل يدًا، ألقى (صالح) السلام باحترام وكبرياء على الشيخ الذي رد عليه بالمثل، قبل أن يهز رأسه لهم جميعًا مبتسمًا وينطلق بسيارته مبتعدًا، مخلفًا عاصفة صغيرة من الغبار على الأرض، وأخرى مماثلة في نفوس من لم يحظوا آسفين بالتسليم، حين تجبره مشاغله وضيق وقته على إيقاف سيل اللقاءات السريعة هذه، ويقرر التوقف عند مجموعة



معينة، لأنه فعلًا لو ترك نفسه لشوق المريدين إليه، لما برح مكانه أبداً.

وشربت المُدَامَ من كف شيخي .... أسكرتنى المدام سكراً حلالا

عم الشيخ شكله كده زعلان مني!

بأسف شديد وتأثر، خرجت العبارة من (عايدة) التي اقتربت منهم بعد رحيل الشيخ، وعيناها معلقتان بنقطةٍ ما في الأفق هي تلك التي اختفت عندها سيارته. ورغم أن عبارتها تبدو لأي مستمع عادي غريبة غامضة، وغير مفهومة تحتاج إلى توضيح، إلا أن كل من الأخوة الثلاثة كان يفهم تماماً ما قالته وما تعنيه، والذي فسرته رغم ذلك قائلة العبارة التي يعرفونها جيداً، وسمعوها أكثر من مائة مرة:

سحب إيده مني، ما رضيش يخليني أبوسها

ورغم المائة مرة، على الأقل، التي سمعت فيها (دنيا) هذه العبارة، حتى ملتها، إلا أنها شعرت أنها تسمعها الآن للمرة الأولى، أو ربما ترغب في الاستفسار أو الاعتراض بجدية عليها هذه المرة، وليس بتخاذل أو حرارة زائفة، ونوع من المجاملة لعمتها، حين تلقي عليها عبارات لا معنى لها ولا تقنعها هي نفسها بدرجة كافية، من نوعية، لا



طبعًا، أوليس من الضروري أن يعني هذا ذاك، ترغب في أن تهتف فجأة، ربما بالشيخ نفسه، لماذا فعلًا تترك البعض يقبلون يدك وتسحبها من آخرين؟

هل أصبحت الآنتقيم عم الشيخ وما يقوله ويفعله؟ بابا الذي كان ثابتًا من ثوابت الدهر لديها، صار خاضعًا الآن للتساؤل بهذا الشكل كغيره من البشر؟ هذا وحده كفيل بزلزلة إيمانها بكل ما تعرف، حتى وإن جاءت الإجابات كلها في صالحه.

قد لا يفهم (صالح) فكرة تقيبل اليد كلها، ولا هي تفهمها ربما، كل ما اهتمت به فيها كان غبطة خفية لأن الشيخ لم يسحب يده منها ولو مرة واحدة، وكل ما تعينه لها هو نوع من الاحترام ومحبة القرب، ربما شيء من نيل البركة كذلك، ولا أكثر من ذلك.فإن كان الأمر حبًا واحترامًا، والشيخ يسحب يده ممن يسحبها كنوع من التواضع مثلًا، فهل يتركها ترفعًا على من يتركها لهم؟ وإن كان طلبًا لبركة، فلماذا يمنع شيخ طريقة بركته عن أي من مريديه، وإن كانزعلانًا منه في شيء؟

هذا هو الجزء الذي انتبهت الآن إلى أنها لم تفهمه فعليًا أبدًا، حتى حين تحاول أن توليه جزءًا يسيرًا من اهتمامها وتفكيرها، محاولة إجابة أسئلتها عنها، يأبى عقلها إلا أن يرد خائبًا ليستولي قلبها



على زمام الأمور، ويغلغل روحها أكثر، في بحر غبطة المحبة المسكر.

البحر الذي لا تستطيع حتى الآن هجرانه نهائيًا وإن وقفت بشاطئه، وتركت مياهه تضرب ساقيها دون أن تقوى على النزول فيه مجددًا لسبب ما، وهي تنظر لعمتها التي تبدو غارقة تمامًا فيه حتى العنق، والتي راحت تلمس شفتيها ووجهها بيدها التي سلمت بها على الشيخ، بتأثر يكاد يكون رومانسيًا، كأنها تتشمم بقايا رائحة يده فيها، وتقبلها بخفة ولا إرادية عوضًا عن تقبيل اليد نفسها، أما عيناها وجسدها كله، فقد كانوا ما يزالون معلقين بنقطة اختفائه في الأفق البعيد بشرود.

من له فى الرجال شيخ كشيخي ..... منحة اللّه قد حاز الكمال

هو فاهم إن كل ده حقه، اللي انتقل له بموت أبوه وأخوه، وجاي يطالب به دلوقت

هو ما طالبش بأي حاجة، ما أقرش حتى هو مين قدامنا عشان يبقى من حقه أصلًا يطلب أي حاجة

وده اللي مخوفني يا (عثمان)، تفتكر ممكن يعمل إيه عشان يوصل للي عايزه مادام دخل الدخلة دي؟



كده الموضوع ممكن يبقى أعنف وأسوأ بكتير، لأنه مش ماشي في العلن بطريقة ممكن نعرف منها خطوته الجاية على الأقل، خاصة إننا ما نعرفش مصير أمه، ممكن تكون ماتت هي كمان، وبكدة يكون مقطوع من شجرة بجد، ما فاضلوش حاجة ولا حد في الدنيا يبقى عليه، مستبيع وما عندوش حاجة يخسرها، ومش حاسس بنوع من الانتماء أو الامتلاك إلا لإرثه من أبوه، لطريقته، لضريحه بالأرض اللي عليها، لـ (عدن) كلها

فدخلت المقام طوعًا لشيخي ..... وإرث المصطفى حقًا لا جدالا

أولها أهه، إنه داخل عامل نفسه بيحب بنتك وعايز يتجوزها، وقلبها عليك وعلينا وعلى الطريقة كلها، اللّه أعلم بقى ممكن يعمل إيه كمان، يقلب المريدين على بعض مثلًا، والطريقة ترجع تتقسم من جواها تاني زي ما حصل قبل كده مع (صادق)

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا

قصدك خاصة .. إن أبوه ما ماتش يا (مصطفى)

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا



القاهرة (٢٠١٥)

أنا آسف .. بس مش هقدر أكون واحد من اللي بيتبرعوا لشيخ ملياردير بأظرف مليانة فلوس، هم محتاجينها أكتر منه بكتير، وأنا كمان اللي أوطي على إيده أبوسها وأزعل لما يشدها مني، ولا عايز لما أخلف ابني يطلع يجري ورا عربية الشيخ عشان يبوس إيده

خلفت عبارة (صالح)، في أول لقاء لهما بذلك المقهى الهادئ، بعد عودتهما من رحلة العيد في (عدن)، لمعة دموع في عيني (دنيا)، واختلاجة خفيفة بين حاجبيها، يعلم جيداً أنها إيذان ببدء هطول تلك الدموع من مقلتيها كالمطر. سحب نفساً عميقاً زفره بقوة وهو يقول:

أنا عند وعدي يا (دنيا)، ومش همنعك عن حاجة، لأني مش هينفع أتحكم فيكي، لكن لازم أتحكم .. في نفسي أنا

جاءت وقفة عبارته بغتة مع لهاث خفيف خفيض، وتهدج صوته في آخرها وهو يغلق عينيه بقوة تقلص معها جبينه كأنه يقطب في ألم، جعل (دنيا) تكاد تقفز من مجلسها هلعاً عليه وهي تقول:



مالك يا (صالح)؟؟!

حاول تهدئة أنفاسه وهو يفتح عينيه ببطء ويرفعهما لينظر لها نظرة غريبة شاردة، بدت مع ما قاله بعد ذلك، وكأنه يرجوها بحزم وإرهاق ألا تقاطعه، أو كأنه ينظر خلالها وليس لها، يتذكر شيئًا، ولم يسمع ما قالته من الأساس:

نفسي الأمارة بالسوء غلبتني مرة زمان، وخلتني أعمل ذنب، من كبره حاسس إني عمري ما هقدر أكفر عنه أبداً، مهما مد ربنا في عمري، خلاني أوهب حياتي كلها للحقوق، عشان أرد حق اللي اتظلم، لأن الحق لازم يرجع لأصحابه، وأنا لازم أكفر عن ذنبي زمان لما ظلمت

هو فاهم إن كل ده حقه..

عاد قليلًا من شروده الغريب لينظر في عينيها مباشرة بعينيه التي لا تدري كيف جعلهما الألم أعمق هكذا، وامتزجت فيهما الصلابة بالتعب، وكأنه لوح فولاذ يهتز ويتضعضع لكنه لا ينكسر. ورغم طاعتها له في عدم مقاطعته بقول شيء أو السؤال عما به، إلا أنها لم تستطع أن تمتنع عن التفكير في رغبتها أن تمد أصابعها لتمس جبينه الشاحب برفق، وتزيح الخصلات القليلة الناعمة التي تسربت من سواد شعره الكثيف لتتهدل ملتصقة



به. صمت هو قليلًا ليتنفس بعمق وهدوء كأنه يعطي نفسه راحة قصيرة ظل يحدق خلالها في عينيها بعمق قبل أن يقول أخيرًا:

بس صعب

عاد لفترة من الصمت أقصر من سابقتها، وظلت هي على احترامها لما يريد ليكمل هو قائلًا:

كل اللي بعمله وبقوله، كل اللي هعمله وهقوله، صعب حتى عليا أنا .. صدقيني

تهدج صوته وتلاحقت أنفاسه حتى بدا وكأنهم ينحشرون جميعًا في حلقه، ارتجف جسده قليلًا كأنه يسيطر عليه كي لا يدخل في نوبة تشنجية حادة، لتفقد هي أعصابها مركزة فيه وفي حالته، وملتهية عن كونها لا تفهم حقًا ما يقوله، أو ما يقصده ويعنيه بكلامه، لذلك هتفت رغمًا عنها بصوتها الذي انحشر هو الآخر في حلقها من الذعر:

(صالح)، مالك يا (صالح)؟؟! أأ .. أطلب الإسعاف؟ أنده .. أنده حد؟؟

بدأت عيناها تدوران حولها بتوتر بالفعل كأنها تبحث عن نجدة ما، حين رفع هو يده قليلًا ونظر لها في صمت في إشارة حازمة راجية أن تهدأ



وتصبر قليلًا، لتصمت مرغمة وهي تكاد تنفجر، وتتابع بعينيها يده التي أنزلها ببطء ليسند مرفقها على الطاولة، ويسند رأسه عليها مغطيًا عينيه، ومعتصرًا جبهته بقوة، في حين تشنجت يده الأخرى كقبضة مضمومة على سطح الطاولة، لم تستطع (دنيا) إلا أن تمد يدها لتربت عليها برفق، فقط كي ترتاع من برودتها الشديدة، ولتجده هو الذي يتمسك بأصابعها ويضغط عليها بقوة مرتجفة، وكأنه في صمت، يستمد منها عونًا، أو يرتجاها ألا تتركه.

كأنه أنين أجش مكتوم، أو زئير ضعيف متألم ..

سالت الدموع من عينيها بصمت وهي تنظر إليه، لا ترى عينيه، لكنها تشعر من انقباض كفه وارتخائه أحيانًا أن جسده يدخل في نوبات من التشنج، أو ربما هو من يخفف ضغطه على أصابعها عامدًا كلما شعر بموجة أشد من الألم، كي لا تؤلمها قوته الشديدة، وفي الحالتين، تشعر بمدى قوته، ومدى ألمه.

لم تعرف ما به بالضبط، لكنها قدرت أن له ألم يبكي منه الرجال كالأطفال الصغار، ويضرب العقلاء رؤوسهم بالحائط كالمجانين.رأت بعينيها الحد الذي وصل له احمرار وجهه الأبيض، وزمة شفتيه التي ما عادت معها تراهما الآن، كي لاتخرج منه ولو



آهة واحدة تشي عما بداخله، فعرفت من كل هذا أنه يضغط على شفتيه وكفها هكذا كي لا ينفلت منه صراخ عال محموم.

لكن الاحتمالات التي نبتت في رأسها عما يمكن أن يكون السبب في كل هذا، كانت جميعها مخيفة للغاية.

كأنه شيء يزوم!

آسف

لم تدر كم من الوقت مر قبل أن تفيق على هذه الكلمة وهي تخرج منه بصوت أجش مشروخ، وتشعر بيده وهي تنسحب عن يدها وتتراجع إلى جواره ببطء. كان وجهه يبدو أفضل، وأقل احمراراً، لكنه بدا وكأنه عاجز عن النظر في عينيها لسبب ما، كأنه خجل أو محرج منها. ورغم ذلك، وبعد أن أعطته فترة كافية كي يصبح لون وجهه أقرب للطبيعي، وتهدأ أنفاسه قليلًا، وجدت نفسها تقول بصوتٍ حازم ووجهٍ جاد:

إنت مش بيجي لك الصداع ده زغللة من الشمس يا (صالح)، ولا من قلة النوم عشان الكوابيس، إنت فيه حاجة مخبيها علي، من كبرها حاسة إن من حقي عليك إني أعرفها






(١٧)

القاهرة (٢٠١٥)

لأ أنا .. فعلًا عندي مشكلة مع الشمس والكوابيس، لكن..

وصمت قليلًا ثم:

إنتي برضو عندك حق في إنه .. من حقك تعرفي .. إن الصداع ده حاجة تانية فعلًا، وأنا كنت مخبيها عليكي

أشاح بوجهه ليشرد في النافذة الواسعة المجاورة لمقعده لتنعكس الإضاءة الداخلة منها على عينيه، ولتظهرا في تلك اللحظة بلون الزرع، تلمعان كقطعتين من الزمرد، وهما تمتلئان بدموع ظهر أثرها طفيفًا في صوته الأجش الذي بح قليلًا في آخره، وكأنه كان يصرخ ألمًا بالفعل، وهو يحاول جاهداً إخفاء كل ذلك، وهو يقول:

ده ذنبي يا (دينا) .. ده الظلم..

صمت لمدة سحب فيها نفساً يحبس به دموعه داخل مقلتيه على مايبدو، وتساءلت (دنيا) بقوة



عما يعنيه، دون أن تجرؤ على كسر سيل حديثه الذي أكمله قائلًا:

من كبره هفضل أتعذب بألمه ليوم الدين وياريته يكفي. الظلم ظلمات يا (دنيا) تؤلم الظالم كما تؤلم المظلوم

شعرت بوقع غريب للجزء الأخير من عبارته، وراحت تفكر فيه بشرود، حتى نظر لها أخيرًا وقد عادت عينيه لتجفا من الدموع دون أن تغافله أيها وتنسل على وجهه، وهو يقول:

أنا عندي ورم في المخ يا (دنيا) .. عندي سرطان

إدى له العمة زمان وهو صغير...

..لقى راسه بعد تلات أيام بالضبط خفت خالص من المرض..

العمة دي فين دلوقت..؟

عدن (٢٠١٥)

عمة إيه يا بنتي، إنت بتقولي إيه؟؟

بشيء من الانفعال ونفاد الصبر ردت (دنيا) على أختها، موجهة حديثها لأمها التي تجلس معهما



أيضًا، قائلة:

العمة بتاعة الشيخ (آدم) اللي إنتوا بنفسكوا حكيتوا لي عنها، وقلتوا لي إنه إداها للشيخ (مصطفى) زمان وإنها شفته تمامًا من مرضه. العمة دي..!

لسه مع عم الشيخ وللا..؟

أنا شخصيًا معرفش، وماليش إني أسأله في حاجة زي دي

إنتي مرات أخوه

مهما كان ومهما كانت صلتي به!

خلاص كلمي (ياسين) واسأليه، أكيد هو عارف

في تلك اللحظة، وبعد أن كانت فقط تبدي تذمرها واعتراضها بملامح وجهها ومصمصة شفتيها، مع بعض الهمهمات المستنكرة التي لا تكون جملة مفيدة أو مسموعة بالكامل، انفجرت (نجوى) بانفعال شديد في وجه ابنتها الصغرى وقد احتقن وجهها بشدة، وهي تلوح بكامل ذراعها بعصبية، وتهتف بغضب:



إنتي عايزة تجيبي لنا مصيبة؟! عايزة أختك تروح تسأل جوزها عن حاجة زي كده عشان يدبوا خناقة ويتعصب عليها وعلى العيال ويــــ..

كادت (نجوى) تضيف شيئًا لكنها صمتت لسببٍ ما ..

ويـ إيه..؟ كملي! ويضربها، مش كده؟ مش هو ده اللي إنت خايفة منه؟ إن أخو الشيخ يضربها؟!

بدا وكأن أعصاب (دنيا) على وشك الانفلات، أو ربما انفلتت بالفعل، وهي تقول عبارتها التي تغير لها وجه (ميادة) في تلك اللحظة وشحب قليلًا وكأنها صدمت أو أحرجت، وإن لم ترد على أختها بشيء، في حين قامت (نجوى) بالمهمة على أكمل وجه وهي تهب من مقعدها بهلع بعينيها المتسعتين، ووجهها الذي ازداد احتقانًا وهي تلطم فمها بيدها هاتفة بصوت مبحوح خفيض:

يخرب بيتك، وطي صوتك! إنتي عايزة تفضحينا؟!

بدا وكأن هذا هو هدف (دنيا) بالفعل، وهي تتجه بنفس انفلات الأعصاب نحو (ميادة)، التي لم تتوقع ما يمكن أن تفعله أختها، التي أزاحت سترتها عن كتفها بحركة حادة لينكشف عضدها، وكأنها أزاحت ستارًا عن لوحة شديدة التعقيد كثيرة



الألوان، اختلط فيها الأزرق بالأحمر والأصفر، والبنفسجي بالأخضر.

إيه اللي في كتفك ده؟؟

لم تتمكن من إتمام عبارتها لشدة فزعها من منظره وهو يندفع فجأة نحوها بشراسة ليعتصر عضديها بين قبضتيه، ويدفعها بقوة حتى يرتطم ظهرها بالحائط خلفها بعنف، اصطكت له أسنانها داخل فمها، حتى كادت تحطم بعضها البعض.

إنتوا إزاي فاكرين إن محدش واخد باله من كل ده!

بات واضحًا أنها وصلت لنقطة اللا رجوع، وكأن بها مس من جنون، انعكس بعضه في عينيها وهي تضيف:

وإنتي يا ماما كل اللي هامك إن جوز بنتك ما ينكدش عليها هي والعيال، لحسن يا عيني يناموا متضايقين، لكن خطيب التانية؟ يموت عادي مش مهم، هي التانية دي تقرب لكوا أصلًا؟ دي بس اللي بنتكوا، ستنا (ميادة) رضي اللّه عنها

إنتي إيه اللي إنتي بتقوليه ده؟؟!



قالتها (نجوى) بغضب مستنكر لتكمل وكأنها لم تسمعها:

وعشان هي ربنا راضي عنها، اتجوزت من عيلة الشيخ، فرضيتوا إنتوا عنها، لكن أنا؟ أنا اللي اتجرأت وقالت عايزة أتجوز واحد مش من عيلة الشيخ، ولا من الطريقة كلها، وكأن الطريقة دي مثلًا هي الإسلام نفسه، أو ماضية عقد احتكار معاه، أي حد براها في نظركوا بيبقى خارج عن الملة كلها، زي كده ما الناس عند طنط (عايدة) نوعين، يا ولاد طريقة، يا ولاد كلب!

صلِّ على النبي يا (دنيا) وكفاية كده

قالتها (ميادة) ببطء وخفوت في محاولة تهدئتها أو إسكاتها، إلا أنه بدا وكأن شيئًا لن يوقفها وهي تتابع قائلة:

طب لو (ميادة) و(ياسين) اتجوزوا فعلًا عشان بس بيحبوا بعض، زي ما إنتوا بتقولوا، مش عشان أي حاجة تانية، ولا فيه إجبار ولا أمر من أي حد لأي حد بأي حاجة، فـ إيه المشكلة بقى إن أنا كمان أتجوز واحد بحبه؟ إنه ما يقربش للشيخ؟ طب ما تبقى الفكرة كده في القرابة للشيخ مش في الحب، و(ميادة) مثلًا كان حظها حلو إنها لما حبت واحد، ده لو كانت حبته أصلًا، كان الواحد ده يقرب للشيخ،



وأنا بقى اللي حظي وحش، يا أتجوز واحد ما بحبوش، يا ما أتجوزش خالص

مين قال كده؟ ما تتجوزي! إحنا أجبرناكي على حاجة والا حشناكي عن جواز؟!

قالتها (نجوى) بحدة لتثبت (دنيا) عينيها في عينها وتصمت، وهي تعيد تدوير الشريط مرة أخرى كي تسمع ما قالته أمها بشكل صحيح، أو ما قصدته بمعنى أدق، أنا لم أمنعك عن الزواج حين رفضت من اخترته أنا لكِ زوجًا، فليس ذنبي أنك إنت من اخترت بدلًا منه واحداً قد تتعذبين بسببه طوال حياتك، ولم يعد في حياته هو أصلًا من بقية إلا سنوات معدودات، وربما أشهر .. أو أقل.

ما يغلوش عليك، أنا وإنت واحد يا (دنيا)

بحبك..

وكأنه في صمت، يستمد منها عونًا، أو يرتجاها ألا تتركه.

صح، عندك حق، إنتوا فعلًا مش رافضين جوازي من (صالح)، إنتوا بس رافضين إن (صالح) نفسه يعيش



أستغفر اللّه العظيييييم، إحنا هنتدخل في مين يموت ومين يعيش كمان؟! دي حاجة بتاعة ربنا، والأعمار بيد اللّه

إنتوا عندكوا طريقة تقدروا تساعدوه بيها ومش عايزين، إنتوا اللي حكيتوا لي الحكاية بنفسكوا

يا ماما الحكاية دي مــــ..

الشيخ (آدم) كان ممكن يسيب الشيخ (مصطفى) برضو عيان ويقول دي حاجة بتاعة ربنا، ده حتى ما كانش يعرفه أصلًا

ما عشان هو..

إنتوا لسه قاعدين تحاولوا تبرروا ومش عايزين حتى تكلفوا خاطركوا وتسألوا إذا كانت العمة موجودة أصلًا والا لأ

ما ينفعش نـــ...

فيه واحد بيموت!!

صرخت بالعبارة فجأة بثورة فهبط صمت متوتر على المكان، لتعود هي وتقول من جديد بلهجة متحدية باردة:



وأنا بقى عايزة إثبات للحدوتة دي...

القاهرة (٢٠١٥)

طب أنا هسألك سؤال، ومش لازم تردي عليه بصوت عالي، كفاية إنك تجاوبيه بينك وبين نفسك، بس تكوني صريحة معاها، حتى لو مش عايزة تبقي صريحة معايا أنا

مين بس يا (صالح) قال إني مش..؟!

الشيخ (مصطفى)، بتقولي إن له كرامات بجد زي إنه بيطير ويمشي على المية والحاجات دي، بتقولي إنك سمعت، فلانة حكت، علان قال..

رغم سماعها للكثير عن كرامات الشيخ (مصطفى) وأنواره ..

ولي من أولياء اللّه، سمعت الكثير عن كراماته وعجائبه ..

كلها حواديت..

عدن (٢٠١٥)

حدوتة إيه؟؟!



تبادلت أمها وأختها النظرات بتوتر وتساؤل وهما تنطلقان بالسؤال لتجيب هي بهدوء:

حكاية العمة، وكل حاجة بقى من الأول، عشان أنا ما بقيتش فاهمة حاجة أصلًا. طب إنتوا زعلانين من (صالح) من غير سبب، ماشي، لدرجة إنكوا هتسيبوا مرضه يقتله وإنتوا تقدروا تشفوه منه نهائي عشان خايفين تسألوا الشيخ، برضو ماشي، بس يا ترى ده رأي الشيخ نفسه برضه، اللي إنتوا خايفين منه وعلى زعله قوي كده؟ لو الشيخ عرف إنكوا مستهينين بحياة واحد للدرجة دي، عشان بس محرجين تسألوه ينفع نحاول ننقذها ولا لأ، هيعمل إيه؟؟

صمتتا تمامًا وكأنهما لا تعرفان كيف تردان، لتكمل هي:

طب لو أنا فوت إن أخو الشيخ هاري مراته ضرب، وقلت ماشي، أخوه شيخ، هو مش شيخ، يا ترى بقى (الشيخ) عارف الموضوع ده وساكت؟ ولا ما يعرفش أصلًا؟ وإنتوا برضو (محرجين) تتكلموا معاه فيه؟ بس معقول غوث الزمان نفسه، مستني حد يقول له حاجة عشان يبدأ يتصرف و(يغيث) حد؟ ولي وعنده كرامات، ومش عارف إيه اللي بيجرى في بيته، ومن أخوه؟!



بدا وكأنما انفتحت ثغرة لكل من (نجوى) و(ميادة) أخيرًا كي تتسع أعينهما وتنطلق كل منهما بلسانها محذرة:

إنتي بتقولي إيه يا بنتي إنتي؟؟

إعرفي إنتي بتتكلمي عن مين!

عارفة، عن غوث الزمان! اللي مش بيغيث مراة أخوه من اللي بيعمله فيها، هو ده الغوث اللي كنتوا عايزيني أتجوز ابنه، مش كده؟ ده المصير اللي كنتوا عايزينه لي أنا كمان، آجي لكوا مبقعة أزرق وأخضر، هو ده القرب من الشيخ

محسساني إن القرب من (صالح) بتاعك هو الجنة ونعيمها! إيش عرفك؟؟ مش يمكن يموتك من الضرب ويبيتك في المستشفيات والأقسام؟!

جميل! ساعتها هيبقى واحد فاسد وسموه عكس صفته بالغلط، زي ما فيه واحد وحش اسمه (وسيم)، وواحد بخيل اسمه (كرم)، واحد عادي فاسد، ما قالش في يوم إن فيه أي حاجة مميزة، لا قال إنه شيخ، ولا ولي، ولا يقرب لغوث

إتلمي ووطي صوتك ما توديناش في داهية..! إنتي مش فاهمة حاجة..!!



كذا قالت (نجوى) بوجه امتزج فيه التهديد بالفزع وهي تنظر حولها بتوتر شديد في حين أكملت (دنيا) بنفس التحدي البارد:

اللي إنتي بتعمليه وتقوليه ده أكبر دليل على إنك بتداري حاجة وعايزة تسكتيني وخلاص، مش فاهمة إيه؟ فهموني طيب، أنا عايزة أفهم موضوع الضرب ده إيه؟ بتداروه كده ليه؟ عايزة أعرف غوث الزمان مش بيغيث الناس من بغي قرايبه ليه؟ مش عارف ولا مش عايزه؟؟ ومش عايزه حد يسأل لي على حاجة، ولا يعمل لي حاجة، أنا هروح له المكتب بنفسي لو حكمت وأسأله، أفهم غوث الزمان لما أروح أقول له يغيث روح بني آدم، هيعمل إيه!

بدت (نجوى) وكأنها تلطم وتندب حظها بصوت خفيض، في حين اتسعت عينا (ميادة) وهي تحدج (دنيا) بنظرة تهديد وتقول:

بصي يا بنت الناس، إنتي تعملي اللي إنتي عايزاه، تتجوزي (صالح)، تتجوزي فاسد، بكيفك! لكن تفضحينا وتقصري رقبتنا قدام الشيخ، عشان أمك تتنقط وأبوكي يموت بحسرته، لأ!!

أفاقت (نجوى) من ولولتها لتنضم إليها في سيل التهديد، وتجهز على (دنيا) كأنما تريد طرق الحديد



وهو ساخن، لتقول بعينين متسعتين هي أيضًا، ولهجة وعيد مخيفة:

ده أنا اللي لو حكمت يا بنت الكلب أقول لأبوكي يحبسك في البيت وما تخرجيش إلا ورجل واحد من أخواتك الصبيان على رجلك في الرايحة والجاية!!

لا تَخَفْ إِنَّكَ إنت الأعْلَى

على عكس ما توقعتاه، ورغم تحزبهما المخيف ضدها، بدت (دنيا) هادئة للغاية، حتى أنها جلست باسترخاء وعقدت ذراعيها أمام صدرها، قبل أن تقول:

أنا هاعمل معاكوا اتفاق..

بتساؤل نظرتا لها فأكملت:

هتجوز (محمد)

انتظرت قليلًا كأنما لترى تأثير وقع كلامها على وجهيهما اللذين تصلبا بذهول وحيرة لتضيف هي:

بس على شرط..



الظلم ظلمات يا (دنيا)، تؤلم الظالم كما تؤلم المظلوم

إني أقتنع إن هكون بتجوز ابن غوث الزمان فعلًا، لأني حقيقي بدأت أشك في الموضوع ده، والسبب في كده إنتوا، مش أي حد تاني، لأني واللّه لحد اللحظة اللي قبل كل ده ما يحصل، كنت لسه مقتنعة بمكانة عم الشيخ، ولو شوية، لكن دلوقت، أنا شاكة أصلًا إنه شيخ، بسبب موضوع العمة ده، من أول رفضكوا لإنقاذ حياة واحد بيموت، أيًا كان هو مين، لحد منعكوا لي إني أروح أنا حتى أحاول أنقذه، ولدرجة تهديدي بالحبس، اللي إنت تقدروا تعملوه فعلًا، بس هتبقوا بتثبتوا لي شكوكي أكتر، وبتخسروا شرط جوازي من (محمد) على الفاضي

بدا على كل من (نجوى) و(ميادة) ما يشي بأنهما ترغبان في قول شيءٍ ما، أو التعقيب على ما قالته، إلا أنهما ظلتا صامتتين في شيء من الحيرة وكأنهما لا تجدان ذلك الشيء، لتعود هي وتكمل بهدوء بالغ:

ما هو الاستماتة في المنع دي من الآخر، يا تدينكوا يا تدين الشيخ، وملهاش غير معنى من أربعة..



الأول .. إن الشيخ ممكن ينقذ (صالح) فعلًا، وإنتوا اللي بجد عايزين تسيبوه يموت، وساعتها يا ماما أنا مش هستغرب لو حبستيني في البيت فعلًا لحد ما خطيبي يموت من السرطان، إن ما قتلوش ألمه قبلها، عشان ما أروحش أحاول حتى أنقذه، هتوقع إيه من أم مستعدة تسيب جوز واحدة من بناتها يموت عشان التانية جوزها ما يتخانقش معاها؟

التاني .. إنكوا عارفين إن هو اللي مش عايز ينقذه وهيسيبه يموت، وساعتها هيبقى عيب قوي تحاول تقنعوني إن ده ممكن يبقى (غوث)، وإلا لو هو شيء عادي إنه يرفض، بتمنعوني أروح أسأله بنفسي ليه؟ إحبسوني واثبتوا لي التهمة عليه أكتر، الاتفاق كده كده بالاحتمال ده هيبقى لاغي، لأني بصراحة مش هضحي واتجوز واحد ما بحبوش، وفي الغالب هيضربني ويبهدلني، وهو راجل عادي، وأبوه راجل عادي، يعني يبقى فيه حاجة أضحي عشانها طيب، لكن بهدلة من غير سبب كده، ليه؟ بهدلة ببهدلة بقى، أتبهدل على كيفي أنا، مش على كيفكوا أنتوا

يا غياث المستغيثين أغثني

هتفضلوا حابسيني ومانعيني أتجوز (صالح) أو أنقذه؟ طب لحد إمتى؟ لما يموت؟ وده هيخليكوا



تقدروا تجبروني أتجوز (محمد) مثلًا؟ حتى بعد ما (صالح) يموت؟ لأ طبعًا، خسارة! كان ممكن أتجوزه بكيفي لو كنتوا أثبتوا لي إن أبوه غوث الزمن، بإنكوا بس ما تسيبوش (صالح) يموت، لكن إنتوا رافضينه وكارهينه لدرجة إنكوا فعلًا تفضلوا إنه يموت، وأنا ما أتجوزش خالص، عشان مش عايزين قلق ووجع دماغ، على إنكوا تحاولوا حتى تنقذوا حياته، حتى لو مش هتجوزه، وحتى لو ده أثبت لي مكانة الشيخ نفسه، وخلاني أوافق أتجوز ابنه عشانها

القاهرة (٢٠١٥)

لكن هل عمرك إنت بنفسك، أثبت أو شوفت له بعينك، أي كرامة؟

عدن (٢٠١٥)

التالت .. إن الشيخ (ما يقدرش) يعمل حاجة، مش مش عايز، لأن مفيش عمة أصلًا أو إنها ما بتعملش حاجة، والحكاية كلها ما حصلتش، وساعتها هيبقى غوث الزمان .. كداب!

إنتي يا بت إنتي بتقولي إيه إنتي إتجننتي!!



قالتها (نجوى) بانفعال في حين هدأت (ميادة) صوتها وهي تقول بلين كأنما تقنعها بالمنطق:

وليه يا بنتي؟ مش يمكن العمة موجودة فعلًا بس مش معاه؟؟

صح، ما هو ده الاحتمال الرابع..

نظرتا لها بحيرة وقلق وتوتر وهي تتابع:

العمة دي كانت عندك الشيخ (آدم)، وبموته المفروض إنها انتقلت لخليفته أو وريثه. طب إزاي الشيخ (مصطفى) يبقى وريث علم الشيخ (آدم)، وخليفته في أحقية مشيخة الطريقة كلها، وهو غوث الزمان أصلًا، والعمة دي مش معاه؟!

صمت تام، ووجوه ممتقعة.

الشيخ (آدم) ما سابهالوش ليه لما هو خليفته؟؟ طب هي فين؟ سابها لمين؟ للي المفروض بقى .. يبقى خليفته الحقيقي مثلًا؟؟



(١٨)

عدن

هو ده اللي كان عايز يوصل له من البداية..

القاهرة

إيه؟ أنا؟؟ أنا أعمل حاجة زي كده؟!

عدن

لأ ولعبها صح قوي، عرف إزاي يزنقنا في خانة اليك

القاهرة

لأ يا (دنيا)، لأ..!

عدن

طب وبعدين هنعمل إيه؟ هنسلم له العمة والطريقة وكل حاجة كده عادي؟؟

لأ وإنت الصادق دا إحنا هنبقى بنسلم له رقبتنا، مش مجرد عمة ومشيخة طريقة



ما ده اللي أنا بتكلم فيه يا (عثمان)! ما إنت عارف العمة دي تقدر تعمل إيه..

تمنحك من المدد ما لا تمنحه لغيرك، وتمكنك مما لا يتمكن منه سواك..

القاهرة

مش عايز!

ليه بس يا (صالح)؟؟!

قالتها (دنيا) بحسرة الدنيا كلها ليرد هو قائلًا:

كده أنا حر! دي حياتي ودي دماغي وأنا حر فيها، مش معقول أبقى مش قادر ألبسها المنطق بتاع شيخك وطريقته، وأروح حرفيًا ألبسها العمة بتاعته!!

عدن

أنا عارف كل حاجة يا (مصطفى)

قالها (عثمان) بوجه جامد قليلًا ولهجة غريبة، وهو ينظر في عيني (مصطفى) بثبات أشعر ذلك الأخير بالقليل من عدم الراحة رغم هدوئه وهو يقول:



و(دنيا) ..؟

مالها (دنيا)؟

تبادلت النظرات الثابتة الغير مريحة بينهما قبل أن يعود (مصطفى) ليقول:

عارفة كل حاجة برضه؟ عارفة (صالح) ده يبقى مين وأبوه مين؟

القاهرة

يا (صالح) والنبي! ده أنا ما صدقت أقنعهم في البيت عــ...

تقطب جبينه قليلًا في شيء من الضيق أو التساؤل وهو يقاطعها قائلًا:

تقنعيهم؟؟

بلوعة ردت:

أيوه، أنا حاربت! حاربت واتهددت بالحبس عشانك، أنا حتى فهمتهم إني.. إني..!

لم تستطع إكمال عبارتها لتطرق برأسها هاربة بعينيها منه ليستحثها هو على الإكمال سائلًا:



إنك إيه..؟؟

هتجوز (محمد)..

صمت كأنما هبطت على رأسه قنبلة وتحجرت عيناه بشكل غريب، لتندفع هي بصوت انعكس في كل حرف منه، كل الدموع التي بدأت تتكون في عينيها المحتقنتين بها، قائلة:

أنا .. أنا لا يمكن أعمل كده بجد! لا يمكن!! أنا كنت بقول لهم كده وخلاص واللّه، في مقابل إن .. إن الشيخ ينقذ حياتك..

عدن

ما أظنش، لأنها مستقتلة ومقتنعة فعلًا إنه عنده ورم وبيموت، وشكله كمان مفهمها إنه هو اللي مش عايز حاجة أصلًا، ورافض الموضوع كله عشان دي كلها خرافات وخزعبلات، فهي دلوقت اللي بقى لها مدة قاعدة تتحايل عليه وتقعنه عشان يتكرم ويوافق يشرفنا، وده طبعًا مخليها تصدقه وتستقتل عشانه أكتر

القاهرة



مش عايزه ينقذني، مش عايز حد ينقذني، مش عايز حاجة .. مش عايز حاجة من حد..

ظل يردد عباراته بشرود وعينين غائمتين أفزعتاها ليزداد انتحابها أكثر، وهي تنظر له عاجزة عن قول أو فعل أي شيء، حين أغمض هو عينيه فجأة بألم وتقطب جبينه بقوة، كأنه تلقى لكمة في وجهه، قبل أن يسند مرفقيه على طاولة المقهى الصغيرة بينهما، ويسند وجهه بيديه مخفياً إياه بين راحتيه المفتوحتين، ويرتجف، بطريقة لم تعرف معها، وهي تنظر له بين غيام عينيها الدامعتين، إن كان يبكي أم يتألم أم يتشنج، أم كل ما سبق.

عدن

بس اللي إنت حكيته لي عن كلامها بيقول غير كده، بيقول إنها عارفة وبتلمح كمان، وإنت فاهم..

فاهم إيه؟؟

القاهرة

أنا عارفة، عارفة وفاهمة إن اللي قلته صعب قوي، بس إنت كمان لازم تفهم حاجة مهمة قوي..



كانت قد انتظرت حتى زال الارتجاف عن جسده أو كاد، لتقول عبارتها تلك بصوت، حاولت نبرة الثبات شق طريقها فيه بين أثر الدموع، وليعتدل هو ببطء رافعًا عن كفيه وجهه المتسائل بصمت، الخالي من أي أثر لدموع ولو حتى جافة، ورغم ذلك يتنافس كل من بياض بشرته وعينيه نصف المغلقتين، في درجة الاحمرار بينهما، فتعود هي لتكمل:

أنا زي ما وصلت مع أهلي لدرجة إني أحط جوازي من واحد غيرك، مقابل إنهم ينقذوا حياتك، ممكن كمان أوصل معاك لدرجة إني أحط حياتي أنا كلها، في مقابل حياتك، بس المرة دي هكون صادقة معاك، مش بتكلم وخلاص زي ما عملت معاهم

يعني إيه؟؟

عدن

إنت عايز تقول إن (دنيا)، عارفة ومتفقة على كل حاجة معاه؟! عايز تقول إن بنتي، بتتآمر مع خطيبها ضدي، وضد الطريقة التي اتربت جواها؟!

بنتك هي اللي جابته لنا ودخلته عقر دار الطريقة دي يا (عثمان)، عارفة بقى ولا مش عارفة



لأ مش عارفة! دي بنتي وأنا عارفها كويس، ما تعملش كده، وإنت كمان عارف، مش هي اللي تعرف تخطط وتدبر كده يا (مصطفى)، إنت عارف كويس مين اللي بيعرف يخطط ويدبر ويتفق

من شابه أباه فما ظلم

هو! هو اللي ضاحك على عقلها ولاعبها صح زي ما قلت لك، إنما (دنيا)، (دنيا) غلبانة وعلى نياتها ومالهاش في الكلام ده، هي بس اللي عاملة مستقوية ومستشهدة في الحب زي بتوع الأفلام، ده إحنا دافنينه سوا

شكله هيقلبنا إحنا كمان على بعض وللا إيه يا (عثمان)؟

أنا برضو اللي بقلب؟!

مش وقته الكلام ده وخلينا في المصيبة اللي إحنا فيها

أنا مش فاهم إنت ليه أصلًا مقتنع إنه ابن (آدم)، وباني كل ده على شوية تكهنات

مش ممكن يكون كل ده صدفة

وفي نفس الوقت مفيش أى دليل حقيقى عليه



أنا مش هجازف على احتمالات

وأنا مش عارف ليه عندي إحساس غريب إن كل ده غلط

القاهرة

إنتي بتقولي إيه؟؟ إنتي كده تبقي بتصلحي غلط بغلط! بتصلحيه بمصيبة! مش بتصلحيه حتى أصلًا!!

لم تجاوب انفعاله بانفعال مماثل وهي تقول بنفس الثبات:

غلط؟ ما كل اللي أنا كنت عايشة فيه طول حياتي ومقتنعة جداً إنه الصح الوحيد في الدنيا أصلًا، طلع غلط .. تفتكر هيبقى فيه معنى تاني عندي للصح والغلط؟

عدن

الغلط فعلًا إننا نسيب حاجة للظروف، ونحكم بالأحاسيس ونقول يمكن

لم يجب (عثمان) وإن ارتسم في عينيه تأثير ضائق بتعليق (مصطفى) الذي تابع:



أنا بفكر نكشفه على حقيقته قدام بنتك

يعني إيه؟

هو كلامها المنقول من كلامه عن الورم والسرطان اللي في مخه ده إيه؟ مش شوية كلام عشان يوصل للي هو عايزه وخلاص؟ حد شاف ورقة ولا تقرير ولا أي إثبات إنه عنده كحة حتى؟؟

وكل سعلة يتشنج لها جسده ..

القاهرة

(دنيا) من فضلك ما تهزريش في حاجة زي كده! إنتي أكيد ما بتتكلميش جد!! أنا عارف إن..

إنت عارف وأنا حاكية لك تاريخ حياتي كله، حاكية لك إني حاولت أنتحر قبل كده، كذا مرة، بس للأسف عمري ما نجحت ولا مرة، يمكن عشان كان لسه عندي أمل إن حاجة كويسة تحصل في حياتي، اللي لما إنت ظهرت فيها، اتمسكت أنا بيها قوي، ومحاولتش ولا فكرت حتى أموت وأنا معاك، ولا مرة

لم تحسب نفسها يومًا من المحظوظات في هذه الدنيا، بل كثيراً ما شعرت أن حظها قليل جداً، أقل على الأقل من أغلبية أقرانها، لكنها الآن تشعر



وأنها فهمت لما كان كل ذلك، لأن الحظ كان مختزنًا لها مع (صالح)، معه حصلت على نصيبها الكامل منه، وربما أكثر قليلًا..

بدأت الدموع تتسرب إلى صوتها وعينيها رغم محاولاتها في الحفاظ على ثبات وجهها، وقد ارتعش جانب شفتيها بشبه ابتسامة، لا تفهم إن كانت تشي بسخرية مريرة أم حنين لذكريات، وهي تتابع:

كنت فاكرة إن الدنيا صالحتني بيك، ما كنتش فاهمة هي كانت ليه ظالمة معايا قوي كده قبلك، بس بعدك لقيت نفسي أصلًا مش مركزة معاها قوي، ومستعدة أسامحها على ظلمها اللي فات كله من غير ما أسألها حتى كانت ظالمة ليه، مستعدة أستحمل ظلم زيادة منها كمان .. بس إنت تبقى فيها .. معايا

لم يجب بحرف واحد وهو يتطلع إليها بعينيه الواسعتين التي شعرت هي أنها تود لو تلقي نفسها بين أحضانهما وتنهار باكية بهيستريا كالأطفال، متشبثة بأهدابه الطويلة، مختفية في كثافتها، رافضة الخروج كي لا يبتعد عنها أبداً، رافضة الاعتراف حتى لنفسها أنها قد لا تراهما ثانية .. أبداً. فحتى عندما يطبق جفنيه للمرة الأخيرة، ستكون هي بداخلهما كي يطبقهما عليها معه.



لكنها قاومت رغبة البكاء الهيستيري تلك بأقصى ما استطاعت، وإن تكسرت حروفها ومخارج ألفاظها بسبب ضغطها الشديد على أعصابها، وهي تعود لتقول:

لكن دلوقت .. أستحملها ليه؟ هيبقى فاضل فيها إيه .. أو مين، أستحمل عشانه أي حاجة؟ أهلي؟ تفتكر أنا ما كنتش حاسة من زمان بحقيقتي وسط عيلتي وعند أبويا وأمي مقارنة ببقية إخواتي؟ حتى (هشام) اللي مش طايقينه، بيعاملوه أحسن مني، وبياخد اللي هو عايزه دايمًا في النهاية، رغم إن هم كانوا أغلى حاجة عندي في الدنيا، وفضلوا غاليين علي قوي، رغم كل اللي بيعملوه، كل اللي زاد دلوقت بس إني شفتها بعيني، سمعت أمي بودني وهي بتقول لي اترملي قبل ما تخشي دنيا معلش، عشان أختك ماتتخانقش مع جوزها .. فما بقيتش قادرة أكمل، ولا أمثل، ولا أكدب على نفسي أكتر من كده

فضغط أسنانه وأن قليلًا بصوت خفيض ..

عدن

تفتكر بقى هيبقى شكله إيه قدامها، ولا هيبقى إيه إحساسها هي، لما تعرف إنه حرق قلبها عليه وعمل فيها كل ده، وهو كداب وبيمثل؟



ده على أساس إنها ممكن تروح تقول له، حتى لو أقنعناها بشكل ما، والنبي بس هات لنا ورقة مختومة من اتنين موظفين تثبت إنك عيان وبتموت بجد عشان الشيخ يرضا ينقذ حياتك؟

القاهرة

أستحمل أعيش معاهم إزاي دلوقت؟ طب أشتكيهم لمين؟ ولا أطلب من مين ينقذني منهم وهم أهلي؟؟ (عم الشيخ)؟! اللي كان تاني أهم حاجة عندي بعدهم هو والطريقة، واللي راحت مني هي كمان خلاص لأني شوفتها على حقيقتها من بره، رغم إني كنت شايفاها قبل كده، زي ما كنت شايفة حقيقة أهلي، بس من جوه، وبكدب على نفسي فيها، زي ما بكدب عليها معاهم

عدن

وإنت هتغلب تلاقي سبب مقنع لحاجة زي دي يا (عثمان)؟ اخترع لها دكتور شاطر ولا قول لها إن دكتور (أحمد) اللي فيللته لازقة في فيللتك، عايز يبص على حالته عشان ممكن يساعده

وهي عايزه دكتور يساعده يموت بعد سنتين بدل سنة ونص؟ ولا عمة تعرف إنها ممكن تشفيه من مرضه تمامًا أصلًا؟



اتسعت عيناه قليلًا كأنه ضائق أو غاضب قبل أن يقول:

خلاص فهمها إنك مش مصدقه فعلًا وعايز دليل على كلامه لأنك خايف تكون مراية حبها عامية ومش مخلياها تشوف الحقيقة

ومين قال إن أنا مش مصدقه؟

القاهرة

ماعادش ينفع أصدق كدبهم عليا، ولا كدبي على نفسي وأنا معاهم، ما بقاش فيه حقيقية أعيش عشانها يا (صالح)، حتى لو قلنا إن الدنيا أكيد فيها حاجات غير أهلي، والطريقة .. وغيرك .. بس كلها حاجات عبيطة قوي، أصغر وأتفه بكتير من إن الواحد يقدر يتسند عليها هي بس، من غير لا أهل ولا حبيب ولا انتماء، عشان يكمل ولو يوم واحد من حياته، مش بقية حياته كلها

عدن

نعم؟!

أنعم الله عليك يا مولانا، مش إنت برضه اللي المفروض ما تغلبش، ولا تحتاج لورقة ولا تقرير،



عشان تعرف تقرر إيه هي الحقيقة بالضبط؟

ثبت (مصطفى) عينيه في عيني (عثمان) بعد عبارته في صمت لثوانٍ، قبل أن يقول ببطء وخفوت:

مش قلت لك هيقلبنا على بعض إحنا كمان؟

أنا بحاول أساعدك وأساعد نفسي، مش بقلب، وقلت لك قبل كده مش أنا اللي بقلب، ولا برجع في كلامي عشان حسابات أو أسباب شخصية، عشان كده هعمل اللي في مصلحتك مهما كان، لأنه من مصلحتي أنا كمان، ومن مصلحة الطريقة، ومصلحة بنتي نفسها

إنت عايز تقول إيه يا (عثمان)؟

القاهرة

اللي أنا بقى عايزة أقوله لك .. إن أنا لو مت فعلًا .. فمش بس هيكون بسبب موتك، وخروجك بيه من دنيتي، لكن هيكون كمان عشان الموت ده سحب حياتي كلها وراه، وقتل بعده أي سبب تاني في الدنيا دي .. كان ممكن أعيش عشانه

عدن



اللي عايز أقوله فعلًا مفيش لازمة من قوالته، ولا ده وقتها، لكن اللي لازم أعمله إني أنبهك لحاجة إنت مش واخد بالك منها

القاهرة

مش فاهم

قالها بجبين مقطب بطريقة تأرجحت بين التساؤل عما تعني، والانزعاج مما ظن أنه فهم أنها تعنيه، لتقول هي وهي تبكي:

كل ده حصل بسببك إنت! حتى لو ما كنتش تقصد .. ما أقدرش أحملك ذنب إن إنت اللي خليتني أكتشف إن حياتي كلها غلط، لأن ده في حد ذاته المفروض يعتبر خدمة مش إساءة، ولو ظاهريًا على الأقل، لأنه فعلًا مخليني من جوه عايزة أصرخ وأقول لك ما تتبتليش مصيبة وبعدين تموت وتسيبني عايشة وحدي فيها! لكن من بره مقدرش، لأن أنا بقى من الأساس اللي عرفتك على المصيبة دي، وحاولت أدخلك فيها، فمش ممكن أبدًا يكون ذنبك إنك بس إثبت لي أسباب رفضك لشيء، أنا اللي عرضته عليك

عدن



مش إنت اللي قلت ما نجازفش باحتمالات ولا نسيب حاجة للظروف ونقول يمكن؟ طب إزاي مش واخد بالك من احتمال بديهي ووارد جداً، ولو حتى بنسبة بسيطة قوي؟

القاهرة

مش إنت بتاع الحقوق؟ أنا بقى عايزة حقي! ومن حقي أحملك ذنب ثقتي وإيماني بكل شيء، اللي آخر قشة فيهم اتحطمت وأنا بحاول أنقذ حياتك، وإنت رافض بس عشان تثبت لي إني بحاول في حاجة غلط! ذنب إنك مش بس عايز تثبت لي المصيبة وتموت وتسيبني فيها، ده إنت عايز تثبت المصيبة دي أصلًا بإنك تسيبني وتموت!!

تضرب رأسه كمطرقة من حديد..

عدن

إن حتى لو افترضنا إن ده (صالح آدم عبد الحي) بجد، وجاي ياخد مشيخة الطريقة فعلًا، فإيه اللي يمنع إن يكون عنده سرطان في المخ برضو؟ وتفتكر هيبقى شكلنا إحنا إيه أو .. شكلك إنت يا مولانا، قدام الكل ساعتها .. لما يموت؟



صمت الشيخ للحظات حدج فيها (عثمان) بعد عبارته تلك بنظرة غريبة وقد تقطب جبينه قليلًا وهو يقول:

إنت مالك زي ما تكون واثق من معلوماتك عنه بزيادة كده ليه يا (عثمان)؟

القاهرة

كفاية يا (دنيا) ...

عدن

بزيادة يعني إيه؟؟

يعني الأول تقول لي مين قال إن أنا مش مصدقه، وبعدين تقول ما يمكن عيان بجد، إنت كأنك عارف ومتأكد إنه عيان

هتأكد إزاي؟ أنا زيي زيــ..!

بتر عبارته وكأن الدور عليه تلك المرة كي يحدج هو (مصطفى) بنظرة صامتة ثابتة لكن متصلبة، وكأنه يمنع عينيه وملامح وجهه من إعطاء تعبير معين، قبل أن يعود ليقول بهدوء:

لأ ده قلبنا على بعض بجد بقى..



إنت اللي بتتكلم بطريقة غريبة كأنك في صفه

أنا في صف الطريقة، وفي صف اللي في صف الطريقة

كل حاجة بتقولها بقى كأن لها معنيين يا (عثمان)

مش هلومك .. لك حق تشك في أقرب الناس لك

قالها وهو يثبت عينيه في عيني (مصطفى) بقوة تلك المرة وكأنه يود الدخول إلى أعماقه، وبادله هذا الأخير النظرة قبل أن يقول:

وأنا بس اللي كده؟

سحب نفسًا قصيرًا كأنه يتنهد قبل أن يقول بنبرة فيها لمحة من الضيق ونفاد الصبر:

لما تواجهه قدام الناس وهو كداب، أحسن ما تستخبى ويبان صادق ومظلوم

فاكر إنت بقى لما واجهنا (صادق) بجد والعمة معانا مش معاه؟ فاكر كان هيحصل لنا إيه لولا ستر ربنا؟ تخيل بقى لو اديت العمة دي لأخوه بإيدي، شوف إنت كده يقدر يعمل بيها فينا إيه..

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا



القاهرة

مش هقدر أشيل ذنبك ولا ذنب أي حد تاني، وأنا على كتافي حمل ذنب واحد بس من زمان قوي، لسه ما كفرتش عنه لحد دلوقت، لكن إنتي .. إنتي بالذات حاجة تانية يا (دنيا) .. إنتي الدنيا

عدن

مش هيقدر يعمل أي حاجة

إزاي؟

القاهرة

حبي لك بيقويني ساعات، ويخليني صح حتى لو مش على هواك، لكن بيضعفني ساعات أكتر، ويخليني أنا كلي اللي على هواك

قلْبي يُحدّثني بأنّكَ مُتلِفي، .... روحي فداكَ عرفتَ أمْ لم تعرفِ

عدن

هو أصلًا عايز إيه من ورا كل ده المفروض؟

مشيخة الطريقة



وعشان ياخدها، لازم (يزيحك) عن الطريق طبعًا

قطب (مصطفى) جبينه قليلًا في صمت ضائق أو متسائل، في حين تابع (عثمان):

بس تفتكر ممكن يؤذيك قدام الناس اللي عايز يبقى شيخهم؟

مش فاهم

مش أنا بقول لك الأحسن تواجهه قدام الناس لو هو كداب؟ ما هو لأن المواجهة دي هي اللي هتثبت كدبه قدامهم، ونبقى إحنا اللي زنقناه مش العكس

قدام مين؟

كل الموجودين وإنت بتدي له العمة

مين اللي قال إن هيبقى فيه حد موجود؟

مين اللي قال إن مش هيبقى فيه؟

هو مش هيبقى عايز كده طبعًا

هو بيقول إنه مش عايز ييجي أصلًا



إنت عارف إنه كده كده جاي

بس عامل نفسه رافض، وشايف إن دي خرافة، فمش طبيعي أبدًا، إنه لما يعمل عاصر على نفسه لمونة عشان يوافق، ولا حتى موافق بجد تعلقًا برغبة وأمل في الحياة مثلًا، يقول بس على شرط، الشيخ يعمل لي الخرافة وأنا وهو لوحدنا، كده هيبقى هو اللي مثير للشك، ومدعاة للتساؤل عن سبب اشتراطه لحاجة زي دي

ويبان مظلوم برضه لما (دنيا) تقول إنتوا بتذلوه وتتشرطوا عليه ليه حرام عليكوا

ومين قال إن إنت هتتشرط؟ إنت هتوافق عادي والموضوع هيمشي طبيعي، لو هو اللي اعترض وطلب حاجة تانية بعينها، يبقى هو اللي غريب وبيتشرط، مش إنت

ولما يروح بالعمة عشان تقعد على راسه تلات أيام؟؟

أنا اللي هقول لك برضه يا (مصطفى)؟ إنت ناسي إنك ممكن تخليها تعمل في ساعة واحدة اللي بتعمله في تلات أيام، لو قريت عليها الحزب السيفي؟



هل السر في الرجل، أم العمامة، أم الإثنين معًا؟

فيها أم في الشيخ (آدم)، أم الشيخ (مصطفى)، أم في الثلاثة معًا؟

وممكن ما تعملش حاجة خالص حتى لو قعدت عشرة أيام وإنت عارف

بالضبط، لأنها عمة الشيخ (آدم)، عشان كده ليها وضع خاص وهي معاه هو بالذات، مختلف خالص عن أي حد تاني، بس إنت هتبقى عملت اللي عليك، والحكاية مش سحر فعلًا، ما كل حاجة في إيد ربنا في النهاية وإحنا بس بناخد بالأسباب

آديك قلتها بنفسك، العمة مع الشيخ (آدم)، أبوه، كان ليها وضع خاص

وهي دي حاجات بتتورث زي الأملاك؟

طب إفرض جازف قدام أي حد بأي حاجة

أظنه أذكي من كده

أنا برضه مش مطمن، إفرض راوغ مثلًا ولا زنقنا تاني بأي طريقة، وهو دايمًا اللي سابقنا بكذا خطوة



ما هو مادام عدوك مرواغ، وسابقك بكذا خطوة، يبقى مش هينفع معاه أي مرواغة منك، الحل إنك تمشي عدل قوي، عشان هو اللي يحتار .. والباقي سيبه على ستر ربنا

القاهرة

المرة دي هابقى كأني الاتنين مع بعض، هامشي في السكة اللي إنت عايزاها عشان أولها على هواك، رغم إن آخرها مش هيبقى عليه، بس أنا اللي عايز أوصل له لأنه الصح

وأنا مش عارف ليه عندي إحساس غريب إن كل ده غلط



(١٩)

الليلة الكبيرة

في يوم عادي، وفي قاعة المناسبات الخاصة بمبنى الزوار على مدخل (عدن)، بدت الليلة كمناسبة عادية هي كذلك، كواحدة من ليالي الموالد التي تقام أحيانًا في المكان، ولم يكن عدد الحضور قليلًا على الإطلاق، بل أكثر حتى مما أمل فيه الشيخ (مصطفى) و(عثمان). لكن أحداً لم يتكلم عن الأمر بتفاصيل كثيرة، الفكرة العامة تضمنت أنها ليلة ذكر سيقيمها الشيخ ويحضرها خطيب ابنة نائبه، وإن تسرب خبر هنا وهناك، عن أمر العمامة. البعض شعر بشيء من الفضول بكل تأكيد، لكن الكثيرين كذلك حضروا فقط إتباعاً لقلوبهم، وحباً للشيخ والحضرة والذكر.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ

حين اقتربت (ضحى) وهي تسير مع أمها التي تأبطت ذراعها مستندة عليه، من المبنى، كان الوقت ما يزال مبكرًا نوعًا، حتى أنه لم تكن هناك سيارات كثيرة في المكان، فقط سيارة الشيخ السوداء الكبيرة في مكانها المعتاد، بجوارها سيارة خالها الفضية الأصغر حجمًا، ومعهما أيضًا



سيارة شبابية أنيقة أصغر منهما، ذات لون أزرق لامع جريء.

بصمة مميزة يعرفها الجميع بها، وعندما يرونها في أي مكان يهمون بالدخول إليه، ويعرفون أن الشيخ (مصطفى) بداخله، يعرفون أيضًا أن (ابتسام) قد سبقتهم، كالعادة، إليه..

لكن (ضحى)، رغم فضولها واهتمامها بأمر الليلة، الذي لم تفصح لها (دنيا) عنه بالكثير على غير العادة، إلا أنها وجدت عقلها ينسحب فجأة في اتجاه جانبي غريب، تساءلت عنه قليلًا من قبل حين كان أكثر غموضًا وإبهامًا بطريقة لم تعرف بها عما تتساءل أصلًا بالضبط، لكنها الآن وقد عرفت على الأقل جزءًا منه، تجد نفسها تتساءل عنه ثانية وبقوة، وكأن أعماقها تصرخ به عليها.

طب وبابا عمل معاها إيه؟؟

لماذا كالعادة؟ لماذا (ابتسام) بالذات هي دائمًا السباقة بحضور أي شيء سيظهر فيه عم الشيخ؟

لكن الاحتمالات التي نبتت في رأسها عما يمكن أن يكون السبب في كل هذا، كانت جميعها مخيفة للغاية.



لو هي عرضت نفسها عليه للزواج لأنها مخطئة اعتقدته في نفس قدر النبي، والعياذ بالله، فهل يكون هو قد وافقها في اعتقادها ذاك، وتزوجها بالفعل؟ ويكون هذا مبرر قربها الشديد الذي لا يصده، منه؟ لكن أحداً لم يعلن أو يقل شيئًا عن أمر كهذا أبداً. إذن هو زواج في السر؟ وإن كان النبي نفسه حتى قد عدد زوجاته، وكان في مكانة لا تكون لسواه، تجعل النساء يعرضن أنفسهن عليه للزواج، فهل في حياته كلها تزوج من أي امرأة، سراً؟

وهل تجرؤ هي الآن على سؤال حتى نفسها فقط، عما يمكن أن يعنيه بحياد وفي العموم، أي قرب غريب لأي مرأة من رجل، يستطيع بسهولة منعها ومنعه؟ هل تستطيع التفكير في أي تفسير آخر، غير الزواج السري، دون أن تجد نفسها تصطدم باحتمالات، كلها أسوأ منه بكثير؟

والذي شردت قليلًا بشيء من الحيرة قبل أن تجيب عنه قائلة:

معرفش

((في مقام البتول طير يغني ....وغناء الطيور يشجي الثمالى))



بؤرة اهتمامك الآن هي الحضرة التي بدأت للتو...

بدأت الحضرة برتم خفيف هادئ كالمعتاد، وبإنشاد واحد من أعضاء الطريقة الكبار والقدامى، الشيخ (ناجي) المعروف بنفسه الطويل وصوته الحسن. جلست (دنيا) بين النساء وعيناها معلقتان بـ (صالح) وسط مجلس الرجال، حيث جلس إلى يسار الشيخ (مصطفى)، الذي جلس أبوها على يمينه. العمامة فوق ساقي الشيخ وقد وضع يده اليمنى عليها وأسبل جفنيه في صمت، و(صالح) قد شبك أصابع كفيه وأطرق برأسه صامتًا هو الآخر، بلا أي تعبير على وجهه على الإطلاق.

يمهل

تزامن إنشاد القصيدة مع تصفيق منغم، مصحوب بكلمة (اللّه)، قوية كأنما تخرج من الأرواح لا الأفواه، تختلج بها الأصوات فيختلج بها قلبك رغمًا عنك وهي تختلط بدقاته، ولا تدري إن كان جسدك يتمايل هكذا بإرادتك، أم يهتز طربًا بالذكر رغمًا عنك.

مدة قصيرة مضت والحضرة مستمرة، وحين رأت (دنيا) الشيخ وهو يضع العمامة على رأس (صالح)، وجدت نفسها تزفر بحرارة كأنها تتنفس الصعداء، لكن شعور الارتياح الذي اعتراها لم يكد يستقر



بداخلها، حتى شعرت فجأة بشعور آخر غريب، جعل عينيها تدوران في كل اتجاه حولها، وعقلها يصرخ عليها بشدة أن شيء ما خطأ.

لكنك لا تعرف لما تشعر أن شيء ما خطأ..

لماذا يشعر وكأنه رأى هذا المشهد من قبل؟ لم يره هو بالضبط بحذافيره ولكن .. كأنه رأى شبيهاً له في وقت ما سابق من حياته..

وإضاءة الغرفة كانت شبيهة جداً بهذه، وإن لم تكن بهذا الضعف..

لكنها ما تزال لا تعرف أين الخطأ، أو ما هو؟ ماذا يكون؟ شيء غريب يحدث .. حولها؟ في عينيها أو أذنيها؟ أم عقلها؟؟

إضاءة الغرفة خفتت أكثر منذ دخل، كأنها مضاءة بشموع أوشكت على لفظ آخر لهب لها.كل شيء يبدو غريباً الآن، غريباً عما كان عليه منذ دخل..

كل شيء يبدو غريباً جداً، كل ما تراه وتسمعه، بل وتشعر به وتفكر فيه، غريب في مضمونه، وغريب عنها، كأنما تنتابها مشاعر وأفكار، تعلم جيداً أنها لا تمتلكها، تتذكر أحداثاً عجيبة لم تكن طرفاً فيها، أو تسترجع ذكريات لا تخصها، بقوة كأنها لا



تسترجع أو تتذكر، بل تعيش الحدث ذاته مرة أخرى، أو كأنه يعاد ثانية في عقلها فيما يشبه الحلم.

والمريدين في الحضرة، كأن هالة من النور أحاطت بهم لتخفي ملامحهم، وتكسو ملابسهم جميعًا بلون أبيض.

الحضرة غارقة في الأنوار حرفيًا، ومضات من الضوء تظهر في المكان، كأجسام من النور بين المريدين.

وما بين اللمحات التي تلتقطها وسط تزايد سطوع الضوء الذي كاد يعميك، تشعر وكأنك لا ترى لهم وجوهًا أصلًا، وترى أجسادهم غريبة وكأن في تكوينها أو نسبها خطأ ما..

إذ كانت السيقان أقصر قليلًا، والأذرع أطول بكثير، وجوههم بيضاء ممسوحة وكأنها بلا ملامح، ويرتدون جميعًا ثيابًا بيضاء..

ارتجف جسد (دنيا) وقلبها يدق بعنف، واتسعت عيناها وأذنيها تنصتان.

هناك أيضًا أصوات ذكر عذبة بشكل غريب، إنشاد بصوت غير آدمي، لكن كلماته غير واضحة، تدخل الأذن وكأنها فحيح، ما عدا لفظ الجلالة الذي يتكرر بطريقة تجعل القلب يدق في الصدر بقوة بغير ألم،



تخرج جميعًا من أجسام كأنها بؤر من الضوء، تراصت بنسق معين في أنحاء المكان، لكن المؤلم حقًا هو أن تحاول التحديق في أجسام النور تلك، التي تخرج الأصوات منها.

تتعلق عينك فجأة بنقطة تجد نفسك تدقق فيها رغمًا عنك..

لكن ما لم تعرفه (دنيا)، هو أنها لم تكن الوحيدة التي شعرت بكل هذا، لأن الأمر نفسه حدث مع كل الموجودين، من بينهم (عبد اللّه) الذي يعمل في محل البقالة، وزوجته (عائشة)، وابنة عمتها (ضحى)، الكل تعلقت عينه بشخص يجلس بينهم، ووجوههم تمتقع ببطء.

واحد من الذاكرين وسط الحضرة، يرتدي سوادًا يظهره بشدة وسط بياضها، كهيئة عامة لم تتبين ملامحها بعد..

((لاح لى نجمه فأرق جفني ..... رؤية العين واضحًا لا خيالا))

يزداد تدقيقك في الرجل فتشعر كأنك تعرفه لكنك نسيته، كأن اسمه ينزلق من على طرف لسانك كلما حاولت تذكره..



اتسعت عينا (عبد اللّه) وجف فمه وهو ينظر، ويتذكر.

الصوت يزداد علواً، والرجل الصامت ثابت في مكانه..

و(عائشة)، و(ضحى) كذلك.

بسم اللّه الرحمن الرحيم، كان هناك شيء بالفعل يقف عند النخلة المائلة..

رجل طويل عريض الكتفين، يرتدي ملابسًا داكنة، ويسير وحده في الظلام.دائماً وحده، ودائماً في الظلام. خطواته واسعة ثابتة، وفيها شيء غريب.وجهه لا يظهر بالكامل أبدًا، وكأنه يحمل ظلاله معه أينما سار، أحيانًا في الطرقات كأنه هائم بلا هدف، لا يعرفون من أين يأتي، و لا لأين يذهب، وأحيانًا أخرى قرب المقابر، أو عند المقام. بعضهم رأى عينيه تلمع من بعيد، وبعض آخر سمع صوت بكاء خفيض يأتي من ناحيته.

((قال لى شيخنا قطب الوقت قولًا ..... لُذ بروض الحسين ترتاح بالا))

لكن هذا الرجل ليس..!



((فدخلت المقام طوعًا لشيخي ..... وارث المصطفى حقًا لا جدالا))

هل الصوت يأتي من أسفل المقام نفسه؟ من القبر؟؟!

و(عبد اللّه) يزجر نفسه داخليًا بشدة كلما انتابه الخوف، فكيف يخاف وهو في مقام مولانا؟ بل كيف يخاف من .. مولانا؟!

حتى (عثمان)، والشيخ (مصطفى) نفسه.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

لكن الأمر كان يختلف معهما، هما الاثنان بالذات.

وحين هبطت عينا (مصطفى) لأسفل عند موطئ قدميه، وجد نفسه يرتدي حذاءه، ويتعجب كيف لم يخلعه في الخارج على الباب، ويدنس المقام هكذا..

وتساءل إن كان بصره يخدعه، أم أنه بالفعل يرى شخصًا يقف هناك في سكون كأنه تمثال..

((والزم الباب إن عشقت جمالًا .....واهجر النوم إن أردت وصالا))



طرق باب المكتب ودخل. اقترب من المكتب الأرابيسك الصغير..

اتسعت عينا (مصطفى) بشدة وقلبه يخفق بطريقة عجيبة، لكنه غير قادر على الحركة لسبب ما، ربما لهول ما يحدث، وربما لو كان قادراً لانتفض من مكانه راكضاً، أو حتى التفت إلى (عثمان) ليصرخ فيه قائلًا..

ألم أقل لك؟؟!

وَيَمْكُرُونَ

ارتجفت يده الممسكة بالصينية قليلًا ليصطك كوب الشاي الزجاجي القصير بالطبق الصيني الصغير أسفله وهو يتقدم نحو المكتب ببطء.

((زادنى سادتى وقوفى لديكم .....انكسارا وذلة وانعزالا))

تنحنح ليسلك حلقه باحترام وهو ينحني ليضع الصينية على المكتب قائلًا:

الشاي يا مولانا

((من له فى الرجال شيخ كشيخي .....منحة اللّه قد حاز الكمال))



هنا رفع الشيخ (آدم) عينيه إليه وثبتها في عينيه قليلًا وهو يبتسم بهدوء..

((نظرة من رضاه تذهب حزني ..... غضبة منه تزيل الجبال))

قبل أن يشير له ببساطة أن يجلس قائلًا:

إقعد يا (مصطفى)

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا



(٢٠)

جهنم

إنَّمَا أمْرُهُ إذا أرَادَ شَيْئًا أنْ يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

وإن كانت الحيرة قد تملكت كل الموجودين في البداية، فقد بات واضحًا الآن لمن تكون كل تلك الرؤى، والأفكار، والذكريات، والأحلام.

القديم الأزلي

فجأة نهض الرجل الغريب من موضعه بين المريدين، وقد تبدى شكله لأول مرة أمام أعينهم الذاهلة، وسيم قسيم، أبيض يرتدي السواد، له عينان واسعتان حادتان، يخرج من بين سواد شعره الناعم، طرفين صغيرين لقرنين مدببين، بدا وكأن باقيهما قد اختفى في كثافته.وبدأ يسير ببطء إلى وسط الحضرة، حيث يجلس الشيخ (مصطفى)، و(عثمان)، و(صالح).

قصدك خاصة .. إن أبوه ما ماتش يا (مصطفى)

هنا جف حلق (عثمان).

دا إحنا دافنينه سوا..



واتسعت عيناه بفزع.

عينا الرجل تحدقان فيك من على بعد لكنك تراهما بوضوح غريب كأنه يقف أمامك، وجهه يبدو هادئًا طبيعيًا وهو يسير متقدمًا نحوك ببطء، ليس في عينيه أي تخويف أو تهديد، ورغم ذلك، فهو آخر من ترغب في أن يقترب منك.

يخضع لي جميع من يراني

وكان الرجل نسخة شبه متطابقة، من الشيخ (ادم عبد الحي)، أو بمعنى أصح .. قرينه.

ولايهمل

ارتفعت يد الشيخ (مصطفى) تقبض على صدره كأنه يتألم، والقرين يقترب.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أم اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

جاءته ضربة شرسة مفاجئة في كتفه الأيسر..

شعر فجأة بألم حاد في كتفه الأيسر، من الجهة التي يجلس فيها (صالح)، وكأنما يأتيه منه هو. أراد أن يلتفت إليه فلم يستطع، وإن استطاع بجانب عينه أن يلمح وجهه، الوحيد الذى بدا هادئًا جداً



وسط كل هذا، والذي بدأ كل شيء منذ لامست العمامة رأسه.

فمدد الأولياء لا يتحمله إلا ولي..

ضيق (مصطفى) عينيه لينظر مرة أخرى لنفس الموضع فلم يجد أحداً، وتساءل بخوف وحيرة إن كان يتخيل، لكنه انتبه فجأة أن (صالح) لم يعد عند باب المقام لأنه الآن بداخله، يقف قريبًا من المقصورة، عيناه لا ترمشان، ووجهه جامد ملتصق بزجاجها من الخارج، يتطلع إليه في صمت وثبات.

(مصطفى) الذي جلس أمام هيكل المدفن الخشبي على ركبتيه محني الرأس، وقد اختفى رأسه حتى العنق داخل القبر.

وحين وقف القرين أمامهم، حدق (مصطفى) في عينيه اللتين لا ترمشان، المشقوقتين بالطول كأعين القطط.

ظلت نظرات الشيخ (آدم) غريبة رغم هدوئه وهو يشرب الشاي. سأل عن الأمانة، فطمأنه عليها. طلبها منه فماطل واعداً بحرارة أن يردها له في أقرب وقت ممكن، حرارة زائفة طبعًا، يعرف كيف جيداً كيف يتقن تمثيلها، لأنه يعرف أنه بالطبع لن يرد شيئًا..



ارتجف جسده كله وتقلصت أمعاؤه حتى شعر بها تكاد تنعقد على بعضها البعض، والقرين يفتح فمه ليتكلم فيخرج منه صوت غريب، يشبه صوت الشيخ (آدم) كثيرًا، لكنه يقع على الأذن كأنه فحيح:

الأمانة

عمامة (البدوي) تمنحك من القدرات ما لا يخطر على بالك، أكثر مما تظن أنها تمنحك الآن، لكنها أمانة، أمانتك أنت..

صوت يأتي من مكانٍ ما، كعويل مكتوم، هل هو من الرجل الذي اختفت رأسه داخل القبر، أم ذلك المدفون فيه؟

لك أن تفعل بها ما شئت، شرط أن تردها إلي لأحملها عنك مرة أخرى قبل أن توافيك المنية، وإلا، ستنقلب كل ذرة من مدد منحتها لك العمامة إلى جمرة من لهب تتقلب عليها في قبرك إلى يوم الدين

مرور الفكرة في رأسه فحسب جعته يكاد يتقيأ على نفسه قرفًا منها..

فجأة يرفع كل من في الحضرة وجوههم نحوك فتشهق بلا صوت، تشعر أنك تختنق، تتسمر في



مكانك وإنت تنظر لوجوههم الممسوحة الخالية من أي ملامح، بلا أي قدرة على الحركة أو التنفس.

كل المريدين في حال لا توصف من الصدمة، يد (مصطفى) المرتجفة ترتفع إلى عنقه وهو يجاهد لسحب أنفاسه، و(صالح) ينهض بهدوء ليخلع العمامة، ويضعها على رأس القرين.

كان الشيخ (آدم) هادئًا في موته كما كان في حياته، وعلى كل حال، فلم يكن في المكان سواهم، (مصطفى) و(عثمان)، والشيخ (آدم)، (عثمان) يقف بالباب حارسًا تحسبًا لأي شيء، و (مصطفى) يقدم للشيخ آخر كوب شاي يشربه في حياته.

و(عثمان) لم يكن أفضل حالًا بكثير.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ

لم يقل شيئًا وروحه تخرج من جسده، لم يصرخ أو يطلب نجدة حتى، فقط خرجت منه شهقات ألم خفيضة وهو يتحسس صدره وكتفه الأيسر، تبعتها الشهادة التي أسلم الروح فور نطقها، مريحًا رأسه على ظهر كرسيه، مرخيًا يديه على



مسنديه، وعيناه مسبلتين بسكينة، تجعل من يراه يحسبه في غفوة أو سنة قصيرة فحسب.

((من له فى الرجال شيخ كشيخي .....سهمه فى العزول ينفذ حالا))

يجب عليه التصرف بسرعة كي لا يحدث أي خطأ، أن يتظاهر الآن بالبكاء والولولة كي يخرج إلى (عثمان) منهارًا ويخبرا الجميع معًا بجزع أن مولانا قد أصيب بأزمة قلبية لم تمر في سلام كسابقاتها، الأمر الذي سيكون صادقًا فيه بالفعل، فقط سيخفي وسط ولولته أنه لم يحاول حتى إسعافه أو الإتيان بأقراصه العلاجية قبل فوات الأوان، وأنه هو من سبب له تلك الأزمة بما وضعه في كوب الشاي الذي قدمه له.

الشيخ (آدم) اتقتل

قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ

شحب وجه (عثمان) وهو لا يكاد يصدق أن سحره انقلب عليه، وأن من أرادهم الليلة شهوداً على (صالح) كي لا يؤذيهما، كانوا شهوداً بالفعل، وإنما على جريمة ارتكبها هو وصاحبه، منذ ثلاث عشر سنة.

وَيَمْكُرُ اللَّهُ

عرفوا كل شيء .. رأوا كل شيء .. وكل شيء أيضًا ضاع .. محبتهم .. احترامهم .. العمامة .. الطريقة .. (عدن).

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

ازداد الألم في كتف (مصطفى)، والدموع تسيل من عينيه دون أن يشعر.

وجد أنه يبكي فعلًا بلا صوت ولا حاجة لأي تمثيل. رأسه يشتعل نارًا ورؤيته تتكسر بفعل الدموع..

جاهد حرفيًا ليتنفس، وعيناه تتسعان.

كان ذلك حين شعر بالضغط على عنقه، كأن أحدهم يخنقه..

أراد أن يصرخ، أن يهرب، أن ينهض أو يتحرك أو يتكلم حتى، لكنه عاجز عن كل شيء.

دارت عيناه حوله بذعر يبحث عما يخنقه، فتح فمه ليشهق بلا صوت وهو يرى عشرات العيون الكبيرة جدًا، وبشكل غير طبيعي، تحيط به من كل جانب. عيون كل من في الصور وقد بدوا وكأنهم مدوا منها وجوههم فقط ليحيطوا به وقد انضغطت



تلك الوجوه عن آخرها حتى انتفخت أعينها وتضخمت بشكل غريب غير آدمي. أما أياديهم، فقد التفت جميعًا فوق بعضها البعض حول عنقه فيما يشبه رباطًا متلاحمًا لا يخترق، فكلما فك زوج من الأيدي، لف عليه واحد آخر.

أعين مريديه مثبتتة عليه بشكل مخيف، وجوههم جميعًا واجمة، وكلهم صامتون..

والألم في كتفه لم يعد يطاق...

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

قاين

هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

إستنى..!!

كذا صرخت (دنيا) وسط ليل (عدن) الصامت الكئيب، الذي لم تشعر أن هواء أثقل من هوائه يدخل رئتيها الآن. ربما كانت صادقة فعلًا حين أخبرت (صالح) أنه لن يبقى لديها ما تعيش لأجله من بعده، وربما كانت تعرف أنها ستجد وقتًا كافيًا جداً فيما بعد، كي تمزق خديها لطماً على كل ما اكتشفته وفهمته منذ قليل، ولذلك ربما أرادت أن



تفهم أكثر، أو أن تضع القطعة الأخيرة من اللغز في مكانها، ربما لذلك أيضًا كانت الوحيدة التي لاحظت اختفاءه المفاجئ وسط كل شيء، لتفزع من مكانها وتخرج من القاعة والمبنى كله، فتراه يسير مبتعداً وحده، وبياضه يظهره بشدة، كأنه يضئ وسط سواد الليل، كأنه ملاك أو شبح.

هي تذكر اللون الأبيض، لم يكن منبعثًا من وجهه فقط، بل كانت هناك هالة بياض مشوش في مكان ما..

توقف عند سماعه لندائها موليًا ظهره لها، على بعد خطوات منها، رغبت في الركض نحوه والتشبث به كي لا يرحل، وفي نفس الوقت ثبت شيء ما قدمها بالأرض كأنه يمنعها، كأنه رهبة أو خوف، أو شيء آخر لا تعرفه، لكنه أكبر منها بكثير. نزلت الدموع من عينيها حارة حارقة، ولكن على وجه متصلب جامد تمامًا، كأنها لا تشعر حتى بدموعها تلك.

إنت مين؟؟!

قالتها بصوت مرتجف أجش، فدار بجسده نحوها، ونظر في عينيها..



تجرأت فجأة واختصرت جل ما يجول بقلبي وعقلي في كلمة واحدة قلتها له:

لَأَقْتُلَنَّك

رأيته يوقف حركته دون أن يستدير ليواجهني. وحين نطق أخيرًا وأجاب:

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ

وجدت نفسي أركض نحوه كالبرق، أرفع ذلك الحجر الكبير.. وأهوي به على رأسه.

لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

ربما لو أنه قاتلني .. قاومني!

إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ

وجاءت سكرة الموت أخيرًا ليسكن صدره، ولأستفيق أنا، وأستوعب ما حدث.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ



– نفسي الأمارة بالسوء غلبتني مرة زمان..

لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل.

مازال عقابي مستمرًا.

مال رجلك يا (صالح)؟

الشمس ما تزال على وجهي تحرقني، وساقي المعلقة إلى فخذي تؤلمني بشدة..

طب وهي الشمس تعمل فيك كل ده؟؟

وقد ذكر مجاهد: أن (قابيل) عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلًا به وتعجيلًا لذنبه، وبغيه، وحسده لأخيه لأبويه.

أهلي كلهم ماتوا من زمان

لم يتغير المشهد عما كان منذ وقت طويل مضى، كذا فكر وهو يدخل المغارة، لا يبدد ظلامها إلا قليل من أشعة الشمس الغاربة، ولا يكسر سكونها إلا صوت تقطر المياه الرتيب. مر على الجدران بيديه متذكرًا، فشعر أنها تتذكره كذلك، وأن تحسسه لها يؤلمها أكثر مما يؤلمه، آثار الدماء



ما تزال عليها وعلى كل شيء حوله، وكل ما حوله بدا له وكأنه يصرخ متألما غاضبًا في صمت.

في الليالي المقمرة حين يتبدى الطريق وبعض تضاريس الجبل، تظهر المغارة كأنها كوة يشع منها نور شديد الإبهار، كأنما تضيئها ألف شمعة. ظن من ظن أن الأمر من فعل الجان، أو له علاقة بهم..

(...مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم، صلى اللّه عليه وسلم، يتصل من نحو نصفا الجبل إلى المغارة، وقد أبقى اللّه منه في الجبال آثارًا حمرًا في الحجارة ..) – ابن جبير الأندلسي.

ولم يعرفوا أنه منذ صعوده للمغارة ذلك اليوم، وهو يأتيها كل يوم، كي يناجي اللّه، حتى اتخذها محرابًا.

مضى نحو الماء المتقطر من السقف كعين تبكي، اغتسل من مائها البارد العذب فشعر أن له طعم الدموع في جوفه.أنهى اغتساله ثم هبط بهدوء على ركبتيه على الأرض، ورفع يديه يناجي اللّه.

هل اختار(الخضر) لمحرابه موضعًا يستجاب فيه الدعاء، أم أن الدعاء صار مستجابًا في الموضع الذي



اختاره محرابًا؟

(وأما مغارة الدم التي في أعلى الجبل فتشمل على مكان لطيف شريف، عليه الهيبة والوقار، والدعاء عنده مستجاب ..) – ابن طولون

منذ ذلك اليوم وهو لا يقطع عادته، يحضر كل يوم قبيل غروب الشمس فلا يغادر إلا مع شروق أول شعاع لها، لا يأخذ معه زاد ولا ماء، ولا حتى مشعلًا أو شمعًا أو أي مصدر للضوء، لتتساءل إنت عمن يضيء المكان له كل ليلة.لا يريد من الدنيا شيئًا سوى أن يغفر اللّه ذنبه قبل أن يقبض روحه. ومهما أغدقت عليه الدنيا وأعطته من نعيمها علمًا وجاهًا، فلن يكون فيها سوى عبدٌ صالح، وينساها.

أنا عبد الحي الذي لا يموت، الصالح الخضر، قابيل بن آدم عليه السلام

ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا



صدر للكاتبة

أكلك منين (مجموعة قصصية) ٢٠٠٩

صوت من القبر (مجموعة قصصية) ٢٠١٠



